التأويل في العربية بين القديم والحديث

الدكتور محمود حسن الجاسم
كلية الآداب - جامعة حلب - سوريا

مقـالات

تقديم:

ميّز الله سبحانه الإنسان عن بقية المخلوقات باللغة التي يعبر بها عما بداخله من أفكار ومشاعر، ليتواصل مع الآخرين، فقد عرّفها ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1]، وإذا ما كان التطور من سنن الوجود، فإن عدم استقرار دلالة اللفظ على حال أمر لابد منه، ذلك أن الإنسان قد يتوسع بما يريده من اللفظ، فينتقل بالدلالة من حقل حسّي إلى حقول حسّية أخرى متنوعة، أو ينقلها من المجال الحسي إلى المجردات الذهنية، فيطوّرها بالطرق المجازيّة إلى ما يريد التعبير عنه، وهو أمر مرهون بمدى حاجة الإنسان.

ولا يخفى أن الإنسان بتطور الزمن يحتاج إلى ألفاظ ذات دلالات محددة في كل ميدان علمي يسلكه، مما يجعله بحاجة إلى المصطلح، ولما ارتبطت الدلالة الاصطلاحية

في الأساس بالمعاني اللغوية، كان لابد لدارس المعنى الاصطلاحي لأي لفظ من العودة إلى المعاني اللغوية له، لأنه دائمًا ثمة صلة دلالية بين الاصطلاحي واللغوي. وإذا ما كانت معظم دلالات الألفاظ قد نشأت بتواضع واصطلاح فإن المصطلح مواضعة على مواضعة، إذ تنقل دلالته من مجال

الاستعمال العام الشائع في الحياة إلى مجال أضيق وأكثر تخصصًا، فأصحاب علم ما بحاجة إلى لغة مشتركة تجمع تصورهم وتضبط آليات علمهم وتفكيرهم به[2]، وهو ما يؤديه المصطلح بوصفه أداة لضبط المعاني في سياق كل علم، مما يجعله نقطة تركيز دلالي معين، فلكل علم معجمٌ لغويّ ومصطلحات خاصة به، وهذا دليل على أهمية الوقوف عند المصطلح في تناول أي ظاهرة[3] وعلى ذلك فلابد لنا في بحثنا هذا من أن نقف عند مصطلح «التأويل» الذي شاع في الدراسات العربية

قديمًا وحديثًا، وسنرصد في تناوله المعاني اللغوية وكيفية تشكل الدلالة الاصطلاحية من خلال تتبع التطور الدلالي، وتوضيح العلاقة بين اللغوي والاصطلاحي، والمقصود بالدلالة الاصطلاحية قديمًا وحديثًا، وتجليات التأويل في مستويات الدرس اللغوي كافة، لننتهي إلى رأي معين نركن إليه.

العرض:

المعنى اللغوي:

ترد كلمة (تأويل) في كتب التراث بمعان متعددة، يكاد جلّها يدلّ على رجوع الشيء وردّه، أو على تغيّره وتحوّله من حال إلى أخرى، أو على التحكّم في الشيء وتدبّر أمره.

فمن المواضع التي جاءت بها الكلمة ذات دلالة حسية بمعنى الرّجوع والرّد قولهم: طبخت الشراب، فآل إلى قدر كذا وكذا، أي: رجع، وطبخت النبيذ حتّى آل إلى الثلث أو الرّبع إذا رجع[٤].

وتتطور الدلالة في المجال الحسي بالتوسع، فيقال: آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً إذا رجع، والأيلولة الرّجوع، والموئل الموضع الذي يرجع إليه، ولعل الأيِّل سُمّي بذلك لمآله إلى الجبل، أي: رجوعه[٥].

ويظهر أن دلالة الكلمة بمعنى الرّجوع والرّدّ تطوّرت، فانتقلت إلى المجالات الذهنية، إذ تشيع الدلالة الذهنية بمعنى الرّجوع في الحياة الاجتماعية مرارًا، بعد أن نزل القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء/٥٩]. والمراد: أحسن مرجعًا وعاقبة، أو ردًّا، بدليل القرينة اللفظية السابقة «فردوه». ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف/٥٢]. ولعل المراد: هل ينتظرون إلا مآله ومرجعه وعاقبته يوم القيامة، ويوم يأتي تأويله: يوم يأتي مرجعه ومآله[٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء/٣٥]. والمراد: أحسن مرجعًا وعاقبة[٧].

وكذا الحال في الحديث الشريف، نحو قوله صلى الله عليه وسلّم: «من صام الدّهرَ فلا صامَ ولا آلَ»[٨]، «أي: لا رجع إلى خيره»[٩].

كما يقال في الدعاء للّذي فقد ضالته: أوّل الله عليك، أي: ردّ عليك ضالّتك. ويقال أيضا: تقوى الله أحسن تأويلا، والمراد أحسن مرجعاً أو عاقبة[١٠].

ويبدو مما سبق أن التأويل(الرجوع) يقتضي مآلاً أو عاقبة أي: مرجعًا ينتهي إليه الأمر، وأن تأويل الأمر (الرجوع به إلى مآله) يقتضي تغيّرًا، ولذلك شاعت دلالة أخرى لكلمة تأويل في البيئة العربية وهي تغير الأمر من حال إلى حال، فمن المواضع التي جاءت فيها كلمة (تأويل) بهذا المعنى قولهم: آل اللّبن، يؤول أولاً، وقد ألته، أي: صببتُ بعضه على بعض حتى آل وطاب وخثر، وآل الدهن والقطران والعسل يؤول أولاً وإيالاً إذا خثر. وآل لحم الناقة إذا ذهب، فضمرت، وآل جسم الرجل إذا نحف[١١].

ويبدو أن دلالة الكلمة بهذا المعنى معنى التغير

استمرت في الحياة الاجتماعية، ولكنها انتقلت إلى المجالات الذهنية، ففي حديث الزهري قال: قلت لعروة: ما بال عائشة تُتم في السَّفر؟ يريد: تتمّ صلاتها، فلا تجمع ولا تقصر - قال: تأوّلت كما تأوّل عثمان، وأراد بتأويل عثمان ما روي عنه أنه أتم الصلاة بمكة في الحج بعدما نوى الإقامة فيها[١٢]، وهذا يعني أن الصحابيين الجليلين غيّرا صلاة السفر من قصر أو من جمع وقصر إلى صلاة كاملة، وبذلك يكون التأويل استعمل بمعنى التغير من حال إلى حال أخرى للوصول إلى غاية معينة .

ويبدو مما سبق أن الأمر لم يقتصر على التغير أو التحول من حال إلى أخرى، وإنما كان ذلك التأول بفضل التأمل والاجتهاد الذي يبتغي الوصول إلى غاية معينة من خلال تغيير الصلاة، ولعل مما يندرج ضمن ذلك تفسير أبي عبيدة (ت٢١٠هـ) لقول الأعشى[١٣]:

على أنها كانت تأوّل حبها

تأوُّلَ رِبعِيِّ السِّقابِ، فأصحبا

بعد أن يذكر أبو عبيدة أن تأوّل حبّه هو تفسيره ومرجعه يضيف مفسرًا أنّ حبّها كان صغيرًا في قلبه فلم يزل يثبت حتى أصحب فصار قديمًا مثل هذا السقب الصغير الذي لم يزل يكبر حتى صار كبيرًا مثل أمه وصار له ابن يصحبه[١٤]. ومعنى «تأوّل الرِّبعي» على هذا التفسير هو التعهد أو الرعاية التي تنقله من حال إلى حال في حركة متغيرة[١٥]، وبذلك فإن معنى التأويل في هذه الدلالة هو تغير حال الشيء، وإن هذا التغير لا يلغي أصل الشيء، وإنما يجعله يتحول من هيئة هو عليها إلى أخرى مختلفة.

وتواجهنا دلالة أخرى لكلمة (تأويل) ترتبط بالسابقة وهي: التحكم في الشيء وتدبّر أمره، فمن ذلك في المجال الحسي قولهم: ألتُ الإبل إذا سُقتَها، وألت الإبل إذا صررتَها، وإذا بلغت إلى الحلب حلبتها، وآل ماله، يؤوله: إذا أصلحه وساسه[١٦]. وواضح معنى التدبر والتحكم في أول الإبل أو المال.

ويظهر أن هذه الدلالة انتقلت إلى المجالات الذهنية لتعني إدارة الأمور وإصلاحها، من ذلك القول المأثور: أُلنا وإيل علينا، أي سسنا وسيس علينا، أو ولّينا وولّي علينا[١٧]، فإيالة الناس هي التحكّم في أمورهم وإدارتها وتدبيرها. ولعلّ الدلالة بهذا المعنى توسعت فباتت تشمل الخطاب، إذ يقال: أوّل الكلام وتأوّله إذا دبّره وقدّره وفسّره[١٨].

ويظهر أن الاستعمال القرآني للكلمة بهذه الدلالة جاء في غير موضع، مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف/٦]. والملاحظ أن استعمال الكلمة بهذا المعنى هو الأكثر من غيره في سياق النص القرآني[١٩].

ويبدو أن قول الرسول صلّى الله عليه وسلم في دعوته لابن عباس:«اللّهم فقّهه في الدّين وعَلّمْهُ التّأويل»[٢٠] يدلّ على ذلك[٢١].

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن التأويل في البيئة العربية وفي الاستعمال القرآني هو حركة بالشيء أو الظاهرة، إما باتجاه الأصل المألوف (بالرجوع) وإما باتجاه الغاية والعاقبة (الأمر المفترض المتوقع الذي ينتهي إليه المؤوَّل) وهذه

الحركة بالشيء هي تغير في هيئته لذلك استعملت الكلمة بهذا المعنى (التغير)، ولا يخفى أن الرعاية والسياسة أو التحكّم والتدبّر سمة أساسية من سمات هذه الحركة بالشيء، فكان أن استعملت الكلمة بهذا المعنى أيضًا.

وإذا ما انتقلنا إلى استعمال اللفظ في السياقات العلمية التي نشأت في رحم التفاسير القرآنية وجدنا أن مفهوم التّأويل في القرون الثلاثة الأولى يأتي مرادفًا لمعنى (التفسير)[٢٢]، من ذلك ما ذكره أبو عبيدة، وهو أن التّأويل والتفسير بمعنى واحد[٢٣].

ويروى عن أبي العباس ثعلب أن التّأويل والمعنى والتفسير واحد[٢٤]. وإذا نظرنا في بعض مؤلفاتهم نستنتج من السياق الذي ترد فيه كلمة (تأويل) أنه لا فرق بينها وبين كلٍّ من كلمتي (معنى) و(تفسير)، فهم يستعملون تلك الألفاظ حين يفسرون المعنى ويقفون عند الدلالة وتحديدها وتوضيحها، سواء أكانوا يحملون اللفظ على غير ظاهره أم يشرحونه شرحًا يقتصر على الظاهر[٢٥]. وكأن شيوع استعمال الكلمة في القرآن الكريم بهذا المعنى قد أثر في أذهان المفسرين.

المعنى الاصطلاحي:

عندما تطورت الحياة الفكرية في البيئة العربية الإسلامية ازداد الاختلاف في فهم القرآن الكريم، وتشعبت الآراء، وأسهم فهم النص القرآني إسهاماً فعالاً في كثرة الاختلافات، وباتت تلك القراءات المتعددة لنصوص القرآن الكريم تخضع لاعتبارات سياسية ومذهبية متشعّبة، فما كان التعدد والخلاف إلا بسبب الدلالة النصية القرآنية وإخضاعها لأفهام مختلفة الاتجاهات بفضل التعامل معها تعاملاً لا يخلو من اجتهاد يحمل النص على غير ظاهره بحركة ذهنية تتحكم في دلالته مستندة إلى أسس مختلفة فيما تذهب إليه، مما دفع بعض المفسرين في القرن الرابع الهجري إلى أن يجعل هذا النمط من التلقي والتفسير مخالفًا لما هو مألوف من مظاهر تفسيرية، فكان أن فرق بين هذا الضرب من الفهم وبين التفسير بالمفهوم الشائع الذي يخلو من التسييس والجهد الذهني الذي يتحكم في معطيات النص، فأطلق عليه مصطلح التأويل، ومن هنا أصبح أمامنا تعريفات اصطلاحية تفرّق بين التفسير والتأويل، فقد رأى الماتريدي (ت ٣٣٣هـ) أن التفسير هو القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه. والتأويل: ترجيح أحد المحتملات بدون القطع[٢٦]. فإنه يربط التفسير الصحيح بالدلالة القاطعة التي ترتكز على أدلة قاطعة لا تقبل الخلاف، وكأنها أدلة مادية لفظية أو مقامية، على حين يصف التفسير الذي يعتمد الاجتهاد ويفتقد إلى هذه الأدلة بالمنهي عنه، وهو الذي أصبح مع الزمن يعرف بالتأويل، أما التأويل عنده فهو الذي يرتبط بما يثير أكثر من احتمال دلالي، ويكون بترجيح أحدها من غير قطع، أي: إنه يربطه بالمُشكِل الذي لا يمكن أن يحسم معناه.

ومما يصب في هذا التوجه ما رآه بعضهم، إذ قال: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة[٢٧]. وهنا يتضح أن التفسير يرتبط بما لا يحتمل تنوّعًا في المعنى، أما

التأويل فيتعلق باللفظ الذي يحتمل تنوعًا دلاليًا ليرجّح أحدها بدليل.

ويعطي بعضهم التأويل خصوصية المشكل في النص الديني، يقول الراغب (ت٥٠٢هـ): التفسير أعمّ من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها، وأكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها[٢٨]. ومن خلال التعريف المذكور يظهر أن التفسير يتناول توضيح الدلالة توضيحًا مستمدًا من معطيات النص أو من ظاهر اللفظ، وقد يتناول اللفظة الواحدة أو الكلام، على حين أن التأويل يختص بالمركّب وبمعنى المعنى وبما يشكل في النصوص الدينية.

ويحدد بعضهم خصائص كل منهما، إذ يبين ارتباط التفسير بالأدلة النقلية الملموسة والتأويل بالاجتهاد والرأي بقوله: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية[٢٩].

ومما يندرج في هذا التوجه ما قاله أبو نصر القشيري: التفسير مقصور على التّباع والسماع، أما التأويل فيتعلق بالاستنباط[٣٠]. فهو يقصر الأول على النقل والمأثور في الأدلة، أما الثاني فيربطه بالاجتهاد العقلي.

ويضيف أبو طالب الثعلبي ميزة جديدة لكل منهما، فيمثل للفرق بين المصطلحين بقوله: التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازًا، كتفسير الصراط بالطريق والصيّب بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر/١٤]. تفسيره: إنه من الرصد، يقال رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه. وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد من اللفظ على خلاف وضعه في اللغة[٣١]. فالثعلبي في تفريقه بين التفسير والتأويل يحصر الأول بما يعطيه ظاهر اللفظ أو يكشف عنه من غير تأمل في خفايا المعنى البعيد، على حين يذهب إلى أن التأويل يتعلق بالباطن وما يحتاج إلى تأمل وينحصر بمعنى المعنى، وهو بذلك يختلف عمن سبقه، إذ يفصل بين معنيين معنًى ظاهر يعطيه التفسير حقيقة أو مجازًا، ومعنًى آخر وراءه يعطيه التأويل، وهذا معنى قوله: فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد.

ويفصل بعضهم، فيربط التفسير بالدلالة الواضحة التي تستمد مشروعيتها من جملة من الأسس المتناغمة المتضافرة من كتاب الله وسنّة رسوله، ثم يجعل التأويل مرتبطًا بالاجتهاد الذي يختص به العلماء المتبحرون في العلم، وذلك حين يُشكِل المعنى وتتعدد الاحتمالات، يقول صاحب الرأي: ما وقع مبيّنًا في كتاب الله ومعيّنًا في صحيح السنّة سمّي تفسيرًا؛ لأن معناه قد ظهر ووضح، وليس لأحد أن يتعرض إليه لا باجتهاد ولا بغيره، بل يحمله على المعنى الذي ورد لا يتعداه. والتأويل: ما استنبطه العلماء العاملون في معاني الخطاب الماهرون في آلات العلوم[٣٢].

ويضيف ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) خصوصية نصّيّة صريحة لكلٍّ من التفسير والتأويل حين يربط الأول بالظاهر، والثاني بالحمل على غير الظاهر،

يقول: التفسير إخراجُ الشيء مِن مَعْلُومِ الخَفاء إلى مَقام التَّجَلّي والتأويل: نَقْلُ الكلام عن مَوضِعِه إلى ما يُحتاجُ في إثباته إلى دَليلٍ لَولاه ما تُرِكَ ظاهِرُ اللَّفظِ[٣٣]. وهنا نرى أن التأويل يكون بحمل الكلام على غير ظاهره بخلاف التفسير، فضلاً عن ارتباط التأويل بالمشكل أو بما يحتمل معاني متعددة ويحتاج إلى اجتهاد ودليل.

وفي ضوء ما سبق يظهر أن التفسير يستمد أسسه في تحديد الدلالة من المأثور والمنقول عامة فيرتبط بالنقل، ومن حيث النص والدلالة يرتبط بالمعطيات السياقية الظاهرة وبما يتبادر إلى الذهن من دلالات، في حين أن التأويل يستمد أسسه من الاجتهاد العقلي ومحاكمته للأمور في ضوء المعطيات النصية التي تحتاج إلى درجة عالية من الجهد والاجتهاد، وذلك حين يحتمل النص أكثر من معنى أو حين يُشْكِل معناه.

وإذا كان التعريف الاصطلاحي نشأ في رحم التفسير القرآني فإنه ما من غرابة في أن يأخذ التعريف بعدًا دينيًا صريحًا وتنوعًا واضحًا، يخضعه كل فريق لمذهبه الفكري، ولهذا نجد بعضهم يربطه بما يوافق الكتاب والسنّة ويجعل التأويل مشروطًا في حين نجد بعضهم الآخر يتوسع في مفهومه، مما يجعل مساحة التأويل وشروطه تتباين من مذهب لآخر، فالتأويل عند بعض المذاهب غيره عند بعضها الآخر في فكر الجماعة، وخطوطه العامة في فكر الجماعة غيرها عند الفرق الإسلامية الأخرى كالمعتزلة والخوارج والشيعة، وهو ما نلمسه في تفاسير القرآن الكريم. ونسوق فيما يلي طائفة من التعريفات التي تبين الخلاف في المفهوم، من ذلك ما يراه ابن حزم (ت٤٥٦هـ) وهو من أصحاب المذهب الظاهري من أن: «التأويل نقل اللفظ عما اقتضاه ظاهره وعمّا وضع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صح ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق، وإن كان ناقله بخلاف ذلك اطّرح ولم يلتفت إليه، وحكم لذلك النقل بأنه باطل»[٣٤]. ولا تخفى القيود الصارمة التي وضعها ابن حزم والتي تمس الدلالة أو الشخص المؤول، وذلك من ميزات المذهب الظاهري.

وقد عرّف الغزالي صاحب المذهب الأشعري (ت٥٠٥هـ) التأويل بأنه: «عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يعضده الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفًا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز»[٣٥]. فالغزالي يخصص التأويل بما ينطوي تحت مفهوم الصواب في فكر الجماعة حين اشترط له الدليل في تناول الدلالة القرآنية، ولذلك ردّ عليه الآمدي (ت٦٣١هـ) بأنه أراد أن يعرّف نوعًا من أنواع التأويل وهو التأويل الصحيح عند الجماعة[٣٦].

ورأى البغوي (ت٥١٦هـ) أن التأويل هو صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية، ويكون غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[٣٧]. فهؤلاء يشترطون في التأويل أن يوافق الكتاب والسنة وينسجم والدلالة المحيطة باللفظ المؤوّل.

ويعرّف الفخر الرازي صاحب المذهب الأشعري (ت٦٠٤هـ) التأويل تعريفًا مقيدًا في سياق ردّه على من أغرق فيه، فيجعله أكثر تخصيصًا ممّا سبق، حين يرى أن التأويل لا يُلجأ إليه إلا إذا كان الظاهر يتعارض مع الدلالة المقصودة، يقول: «التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال»[٣٨].

فالتأويل يُلجأ إليه بحسب مفهوم الرازي لأن الظاهر لا يعطي الدلالة المقصودة، ولأن عدم اللجوء إليه يؤدي إلى فساد المعنى.

ونجد تاج الدين السبكي(ت٧٧١هـ) يقيد التأويل بالدليل القاطع حين يعرفه بقوله: هو حمل الظاهر على المحتَمل المرجوح فإن حُمِل لدليلٍ فصحيح أو لما يُظَنّ دليلاً فَفاسد أو لا لشيء فلعب لا تأويل[٣٩]. وهو هنا يشترط بأنه لا بد للتأويل من أن يستند إلى دليل قطعي ولا يجوز أن يقوم على دليل ظني أو أن يقوم من غير دليل.

ويذكر الزركشي(ت٧٩٤هـ) أن التأويل صرف اللفظ إلى ما يؤول إليه، وذلك لاستنباط الأحكام وبيان المجمل وتخصيص العموم، وكل لفظ احتمل معنيين فصاعدًا فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعلى العلماء اعتماد الشواهد والدلائل وليس لهم أن يعتمدوا مجرد رأيهم فيه[٤٠].

ويتضح في ضوء ما سبق أن التأويل في فكر الجماعة مشروط بقوانين لا ينبغي الخروج عليها، ويمكن إدراجها ضمن ملامح مشتركة بين توجهات الجماعة وهي أن توافق الدلالة المؤولة الكتاب والسنة وأن تسمح به معطيات السياق الظاهرة، وأن يكون اللجوء إليه عند الحاجة، وألّا يلجأ إليه المؤول إلا بعد فهم الظاهر والتفسير، كما يجب أن يكون المؤوِّل على مكانة مميزة من العلم والورع. وفي هذا السياق يقول الزركشي: «ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ومن ادّعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب»[٤١].

وإذا تجاوزنا فكر الجماعة وانتقلنا إلى بعض الفرق الإسلامية الأخرى تبين لنا أنهم ترخصوا في تلك القيود بحسب ما يظهر في تفاسيرهم فكان الوقوف عند تحديد المصطلح لا جدوى منه، لأنّهم كانوا أكثر حرية في الإجراءات التأويلية فتوسعوا في المفهوم، ومن ثم لم يكونوا بموقف الحريص الذي يهدف إلى التوضيح ووضع الشروط خلافًا للجماعة، لهذا لم يظهر لنا تعريف محدد لظاهرة التأويل فيما اطلعنا عليه من جهودهم.

ويبدو لنا أيضًا أن مصطلح التأويل إذا لم يقيّد بقيد شرعي يأخذ دلالة موحدة في البيئة الفكرية بألوانها المختلفة، وهي حمل النص على غير الظاهر مع مراعاة خصائص اللسان العربي، فهذا الفيلسوف ابن رشد (ت٥٩٥هـ) يقول: «التأويل إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوّز»[٤٢]. فهو يشترط في التأويل أن يوافق سنن اللغة بعيدًا عن أسس النقل والمأثور أو مفهوم الحاجة أو نحو ذلك.

ويشير ابن حزم إلى أن التأويل بالمفهوم العام من حيث هو تأويل مع قطع النظر عن الصحة والبطلان هو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له[٤٣].

أما ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) فيذكر أن التأويل عند المتأخرين جميعًا من المتفقهة والمتكلمة والمحدِّثة والمتصوِّفة هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٤٤]. وهو بذلك يجعله لا يقوم من غير دليل لكنه يترك الدليل من دون تحديد، لأنه نسبي يختلف من فرقة إسلامية إلى أخرى.

ويظهر مما سبق ارتباط التفسير بظاهر اللفظ من الأدلة أو الأسس السياقية الملموسة التي يقتضيها منطق النص وفقًا لشروط الذوق العربي وقوانين اللغة ومعطياتها المألوفة التي لا تثير غرابة في الذهن، ويبدو من تعريفهم للتفسير الذي ورد بعبارات متنوعة أنهم أعطوه ملمحًا نقليًا، فهو يعتمد الأثر والنقل وتؤيده السنّة النبوية في تحديد الدلالة النصية، فأصبح ذا سمة نقلية، من حيث تحديد الدلالة، فجعلها تخضع لشروط وقوانين لغوية وسياقية وغيرها من أدلة ترتبط بالمأثور، كما يرتبط بالدلالة المحكمة المحدّدة، في تحديده للمعنى والتوصل إلى رأي قاطع، وعندئذٍ لا يرتكز على التأمل في الدلالة الخفية للنص التي تحتاج إلى الاجتهاد.

على حين أن التأويل ارتبط بما يخالف الظاهر وبالدلالة الاجتهادية التي تحتاج إلى درجة عالية من التأمل في خفايا النص، والتي تصطبغ بالصبغة العقلية، مما جعله أكثر ما يرتبط بالمُشكل أو بما يثير أكثر من احتمال دلالي، وشرطه عند الجماعة أن يرتكز على دليل حتى يرجّح المعنى المؤول وأن يكون اللفظ قابلاً له، فـالمشهور والمتبادر إلى الذهن عند تعريف التأويل ربطه بخصائص التركيب داخل النص، فهي التي تدفع القارئ لما فيها من مجاز أو تعميم أو إبهام إلى الاجتهاد»[١٥]، بعد أن يرتكز على المعطيات النصية.

وعلى الرغم من أن الكثير من الجماعة وضعوا له شروطًا وقوانين، فإنه مع مرور الأيام تشعبت مناحيه وكثرت تعريفاته، وتنوّع حجم المساحة المتاحة للمؤوّل في تحديد الدلالة النصية، ومن ثم باتت تلك التعريفات تختلف من توجه فكري إلى آخر، ومن بيئة دينية إلى أخرى، فأصبحت تختلف في طبيعة هذه الإجراءات التأويلية من حيث المشروعية والمعطيات والأدلة والمساحة الممكنة. بيد أن تلك المذاهب والفرق تتفق جميعًا على أن التّأويل هو الاجتهاد في تحديد الدلالة التي قد تتنوع أو التي لا يعطيها الظاهر، وذلك بصرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى آخر يرتئيه المؤوّل أيًا كان انتماؤه، سواءٌ أكان عمله يتعلق بالمشكل أم بغيره في القرآن الكريم[١٦].

وتحسن الإشارة إلى أن المصطلح في العصر الحديث بقي بهذا المفهوم، فالتأويل هو القراءة التي تتجاوز المستوى الأول من الفهم المتبادر إلى الذهن إلى مستوى آخر من الفهم تتخطى فيه ظاهر النص إلى باطنه، لتوصل فيه بين عالم النص وعالم القارئ المختلف باختلاف مذاهب القراءة[١٧]. وذلك للوقوف على مقاصد المؤلف، وتسليط الضوء على كثافة المعنى للمفاضلة بين وجوه الدلالة التي يحتملها النص[١٨]. ومن ثم فالتأويل يختلف عن التفسير، إنه يتجاوز المعنى الأول الذي يعطيه النص، ليبحث «عن دلالة ثانية قد ترمز إليها الألفاظ وتوحي بها وتحيل إلى العالم الخارج عن النص وهو عالم الكاتب أو عالم القارئ النفساني والسياسي والاجتماعي والثقافي. فالتأويل عندئذٍ فعل فردي ذاتي يخترق اللغة ويخترق النص لامتلاك فهم متجدد للنص وللذات المؤولة نفسها»[١٩]. والخلاصة يمكن القول في ضوء الدراسات الحديثة بتوجهاتها كافة: إن التأويل هو القراءة ذات الطابع الاجتهادي التي تحتاج إلى درجة عالية من التأمل في معطيات النص والتي تخضعه لروح العصر وطبيعة المتلقي، وذلك بصرفه عن ظاهره سواء أكان النص دينيًا

أم أدبيًا أم غير ذلك من النصوص القانونية ونحوها[٥٠].

ج- التأويل في الدرس النحوي:

لما كانت الدلالة نتيجة طبيعية للنظام النحوي كان هذا النظام في صميم الإجراءات التأويلية الدلالية، فالمتتبع لتفاسير القرآن الكريم وتأويله يلحظ أن القضايا النحوية كثيرًا ما تمتزج بتحديد الدلالة وتأويلها، لذلك يحسن بنا أن نتتبع كلمة تأويل في الميدان النحوي، نظرًا لطبيعة العلاقة بين الجانبين النحوي والدلالي لنرى كيف استعملت الكلمة؟

إذا نظرنا في أول مصدر نحويّ موثوق، وهو الكتاب[٥١]، فإننا لا نجد استعمالاً لكلمة (تأويل) وكذا الحال في المصادر المنسوبة إلى نحاة تلك المدة، أمثال (الجمل) المنسوب إلى الخليل بن أحمد، و(مقدمة في النحو) المنسوب إلى خلف الأحمر.

ولكن مع مرور الأيام تشيع لفظة (تأويل) في مصادر النحو التي أُلّفت في القرن الثالث الهجري، نحو (معاني القرآن) للفرّاء(ت٢٠٧هـ)، و(مجاز القرآن) لأبي عبيدة، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و(المقتضب) للمبرّد (ت٢٨٥هـ). ويكثر استعمالهم لها حين يصرفون اللفظ عن ظاهره، غير أنهم لم يلتزموا بمعنى اصطلاحيّ لها، وذلك لأنهم لم يلتزموا باستعمالها كلما صرفوا اللفظ عن ظاهره، كما أنهم أعطوها دلالة (معنى) أو (تفسير) أحياناً[٥٢]، وهو أمر لم يختلفوا فيه عما كان شائعًا في البيئة الثقافية الإسلامية كما رأينا فيما مر بنا. ثم تبقى الكلمة شائعة في كتب النحو بعد ذلك، وترد في الغالب حين يصرف اللفظ عن ظاهره[٥٣]، عندما تحلل عناصره التركيبية، لكنها لم تكتسب معنى اصطلاحيًا محددًا، فكثيرًا ما أطلق النحاة تسميات مثل (العمل)، و(المجرى)، و(المعنى)، و(التعليل)، و(التوهّم) وغيره[٥٤].

بيد أننا نستطيع أن نحدد مفهوم التأويل عند النحاة مما ينسب إلى أبي حيّان(ت٧٤٢هـ)، فقد ذكر السيوطي (ت٩١١هـ) عن أبي حيان أن «التّأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادّة فيتأول. أما إذا كانت لغة طائفة من العرب لم تتكلم إلا بها فلا تأويل،...»[٥٥]. ولعل المراد من ذلك أنه إذا جاء نصٌّ لغويٌّ مخالفٌ للجادة حمل على غير ظاهره لموافقة الجادة التي يراد بها القاعدة أو المعنى. ويظهر أن هذا الفهم القديم كان أصلاً للتعريفات في العصر الحديث التي تناولت التّأويل النحوي، فهو حمل اللفظ على غير ظاهره لمراعاة القاعدة أو لمراعاة المعنى[٥٦].

ومن ثم نلحظ أن المفهوم النحوي للتأويل يشترك مع المفهوم الدلالي، فهو صرف للفظ عن ظاهره إلى غير الظاهر، كأن يُقدّر محذوف أو يحمل لفظ على لفظ آخر، مثل حمل تركيب على آخر أو لفظ على لفظ بالتضمين ونحوه أو يؤوّل كلام بمفرد، أو يحكم على لفظ بالزيادة...إلخ[٥٧]. وهذا العمل يحتاج إلى تأمل واجتهاد وتدبر كما رأينا في التأويل الدلالي.

ويبدو أن هذا الأمر يحدث في مستويات الدرس اللغوي المختلفة، فدارس المستوى الصوتي عندما يحلل لفظة مثل (اصطبار) يحملها على غير ظاهرها، أي: يردّها إلى أصلها (اصتبار). ودارس المستوى الصرفي عندما يرى أن كلمة (يقُلْنَ)

أصلها (يقْوُلُن)، وأن الواو حذفت منها بعد الإعلال بنقل الضم (يقُوْلُن) لالتقاء الساكنين إنما يصرف اللفظ عن ظاهره. وكذا الحال عند دارس المستوى النحوي عندما يقول مثلًا في عبارة (ضربًا زيدًا): إن (ضربًا) منصوب بفعله المتروك، والتقدير: اضرب ضربًا. ولا يختلف الحال في المستوى الدلالي، كما في تفسير الخلود من قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة/٢٥]، إذ يذهب المعتزلة في تفسير الخلود إلى أنه البقاء الدائم الذي لا ينقطع أبدًا، في حين يذهب غيرهم إلى أنه البقاء الطويل، انقطع أو لم ينقطع، وأن كون نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار سرمديّ لا ينقطع ليس مستفادًا من لفظ الخلود، بل من آيات أخر من القرآن في غير هذا الموضع، وفي أحاديث من السنة[٥٨].

د- مظاهر التأويل في مستويات الدرس اللغوي:

يحسن بالبحث أن يبين أنماط التأويل في اللغة من خلال علاقة بعضها ببعض، فقد يكون صوتيًا أو صوتيًا صرفيًا أو صوتيًا صرفيًا نحويًا، أو نحويًا دلاليًا، فمن الصوتي تفسير (ممّا)، فالأصل: مِنْ +مَا، رُدّت النون إلى أصلها، ومن الصوتي الصرفي تحليل (قَالَ): فوزنها فَعَلَ، بفتح العين، لأن الأصل: قَوَلَ، تحرّكت الواو بالفتح فقلبت ألفًا، وأما الصوتي الصرفي النحوي فكما في تحليل لفظة (ليسجنُنّه): فأصل الكلمة: (ليسجنُوْنَ نْ نَ ـه)، وفي إعرابها نقول: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون في آخره التي حذفت لتوالي الأمثال (تصبح: ليسجنوْنْ نَـه) وواو الجماعة التي حذفت لالتقاء الساكنين في محل رفع فاعل، ونون التوكيد المشددة لا محل لها من الإعراب، وهي: (نّ) المشدّدة في آخر الفعل التي أصلها (نْ نَ) التقى متماثلان والأول ساكن فأدغم الأول في الثاني، وهو إدغام صغير واجب، والهاء مفعول به. ففي هذه الإجراءات التحليلية النحوية تطرقنا إلى قضايا صرفية وصوتية، لا بل لم يكن بوسعنا أن نصل إلى الأحكام النحوية من غير الوقوف عند الجوانب الصوتية الصرفية السابق ذكرها.

وربما اقتصر التأويل على التركيب فقط، كما في التأويل النحوي لـ(يا زيد)، فالتقدير: أدعو زيدًا، ونابت الأداة عن الفعل، وقد يمس التأويل المعنى والتركيب معًا، كما في تحليل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء/١٧٦]. لا يمكن قبول المعنى بحسب معطيات الظاهر، لأن الله سبحانه لا يريدهم أن يضلوا، مما جعلهم يذكرون أن التأويل في ضوء معطيات السياق القرآني: بتقدير محذوف إما (لا) النافية بعد «أن» وإما الاسم «كراهة» قبلها، أي: ألّا تضلوا، أو: كراهة أن تضلوا[٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة/٣٦،٣٥]. يتعدد التحليل النحوي للضمير «هاء في «عنها»، بتعدد المعاني المحتملة في ضوء السياق، فالنص يحتمل غير معنى، وكل رأي يلجأ إلى أدلة فيما يذهب إليه بتحديده المعنى، فيرى أبو حيان الضمير «هاء في «عنها» يعود على «الشجرة»، لأنها أقرب مذكور، والمعنى: فحملهما الشيطان على الزلّة بسببها، وتكون «عن» للسبب، وقيل: إن الضمير يعود على «الجنة»، لأنها أول مذكور، وقيل: عائد على غير مذكور يفهم من المعنى المتحصّل من السياق،

وهو «الطاعة»، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا ﴾، لأن المعنى: أطيعاني بعدم قربان هذه الشجرة، فعاد الضمير على معنى «الطاعة» المتحصّل من السياق، وقيل: يعود على الحالة التي كانوا عليها من الرفاهية والتفكّه، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ التي مرت في الآية الكريمة، وهناك أقوال أخرى مرتبطة بمعطيات السياق [٦].

الخلاصة:

وهكذا نلحظ في ضوء ما تقدم أن المعنى الاصطلاحي للفظة (تأويل) حافظ على الدلالات اللغوية الرئيسة التي دارت حولها الكلمة في البيئة العربية، وهي الرّجوع والردّ، والتغيّر والتحوّل، والتحكّم والتدبّر، فاللفظ عندما يصرف عن ظاهره يغيّره دارسه ليرجعه إلى أصل في ذهنه توصّل إليه بفضل التحكم والتدبر للمعطيات النصية أو اللغوية التي يتناولها، ولا تخفى دلالة الغائية التي يبتغيها بالتحكم والتدبر في هذه العملية التي يقوم بها. كما تبين أن التأويل يحدث في مستويات الدرس اللغوي كافة، فلا يقتصر على الجانب الدلالي أو النحوي.

الحواشي

١. ابن جني، أبو الفتح عثمان: الخصائص، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط٢،١/٢٣.

٢. خليل، لؤي علي: العجائبية في النثر الحكائي الأندلسي، (مخطوط) رسالة دكتوراه جامعة دمشق، كلية الآداب ٢٠٠١م، ص٢٠.

٣. إسماعيل، عز الدين: جدلية المصطلح الأدبي، مجلة علامات، النادي الأدبي، جدة، ١٩٩٣م، مج٢، ج٨، ص١١٢.

٤. الأزهري، أبو منصور محمّد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبد الحليم النّجار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٦٧م، (أول). والجوهري، إسماعيل بن حمّاد: تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، القاهرة، د.ت، (أول). وابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، دار صادر ببيروت، ط٣، ٢٠٠٤م، (أول).

٥. ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م، (أول). ولسان العرب (أول).

٦. الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة بلبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ٤٧٨/١٢.

٧. تفسير الطبري ٢٠٥/٦.

٨. ابن الأثير، مجد الدين: النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزّادي ومحمود محمّد الطناحي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط(١)، ١٩٦٣، ٨١/١، وللمزيد: اللسان (أول).

٩. لسان العرب (أول).

١٠. المصدر نفسه (أول).

١١. تاج اللغة وصحاح العربيّة (أول)، ولسان العرب (أول).

١٢. النّهاية في غريب الحديث والأثر ٨١/١، وللمزيد: لسان العرب (أول).

١٣. الأعشى الكبير، ميمون بن قيس: ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمّد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، ص١١٣، والسُّقاب: ولد الناقة، وأصحب: كَبُر، وصار له ابن يصحبه، ويقال: انقاد.

١٤. أبو عبيدة، معمر بن المُثنّى التّيمي: مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط (٢)، ١٩٧٠م، ٨٧٨٦/١، وللمزيد: لسان العرب (أول).

١٥. أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٤م، ص ٢٣٠.

١٦. لسان العرب (أول).

١٧. تهذيب اللغة (أول)، وتاج اللغة وصحاح العربيّة (أول)، ومقاييس اللّغة (أول).

١٨. لسان العرب (أول).

١٩. انظر مثلاً: يوسف: ٢١، ٢٦، ٢٧، ٤٤، ٤٥، ١٠٠، ١٠١، والكهف: ٨٢.

٢٠. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٨٠.

٢١. عبد الغفّار، السيّد أحمد: ظاهرة التّأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية د.ت، ص ٢٨، وأبو زيد، نصر حامد: فلسفة التّأويل (دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدّين بن عربي)، دار التنوير، بيروت ط(١) ١٩٨٣م، ص١٣.

٢٢. الزّركشي، بدر الدّين محمّد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط(٢)، د.ت، ٢/ ١٤٩، والسيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت لبنان، د.ت، ٢/ ٢٢١، ٢٢٢، و زادة، طاش كبرى: مفتاح السّعادة ومصباح السيادة، دائرة المعارف الثّقافيّة، حيدر آباد دكن، الهند ط(١) د.ت، ٢/ ٤٠٢.

٢٣. مجاز القرآن ١/ ٨٦.

٢٤. لسان العرب (أول).

٢٥. انظر مثلاً: الفرّاء، أبو زكريّا يحيى بن زياد: معاني القرآن، حقّق الجزء الأول والثاني أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٥٥م، وحقق الجزء الثالث عبد الفتاح شلبي وراجعه علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، ٢/ ٢٩، ٢١٤، ٣٧٢، ٣/ ٥١، ومجاز القرآن ١/ ١٢، ٨٦، ٨٧، ٢١٦، والأخفش، أبو حسن سعيد بن مسعدة: معاني القرآن، تحقيق فائز فارس، الصفاة، الكويت، ط(٢) ١٩٨١م، ١/ ١٧٢، وابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم: تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨م، ص١٢، و المبرّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد: المقتضب، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ١/ ١١٩، ٢/ ٢٨١، والطبري: تفسير الطبري ١/ ٢٢، ٥٤، ٧٢، ٧٨، ٨٢، ٨٩، ٩٢، ١٢٢، ١٢٥، ١٦٨، ...إلخ.

٢٦. الماتريدي السمر قندي، أبو منصور محمّد بن محمّد: تأويلات أهل السّنة، تحقيق إبراهيم عوضين والسّيد عوضين، الجمهورية العربية المتّحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة القرآن والسّنة، القاهرة ١٩٧١م، ١/ ٢٤، وللمزيد من الاطّلاع على كثرة التّعريفات الاصطلاحية ومناقشتها انظر: ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة، ص ١٧، ٦٥.

٢٧. الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٢١.

٢٨. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٢٩. المصدر نفسه ٢/ ٢٢٢.

٣٠. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٣١. الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٢١-٢٢٢.

٣٢. المصدر نفسه ٢/ ٢٢٢، و يحدد صاحب التعريف هنا الشخص المسموح له بإجراء التأويل.

٣٣. تاج العروس (أول).

٣٤. ابن حزم الظاهري، أبو محمد علي: الإحكام في أصول الأحكام، ط١، القاهرة، ١٣٤٥هـ، ١/ ٤٢.

٣٥. الغزالي، أبو حامد: المستصفى من علم الأصول ط١، القاهرة ١٣٢٤هـ، ٢/ ٢٢.

٣٦. ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، ص١٧.

٣٧. الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٢٢.

٣٨. الرازي، فخر الدين: أساس التقديس في علم الكلام، ط١ القاهرة، ١٣٢٨هـ، ص٢٢٢.

٣٩. تاج العروس (أول).

٤٠. البرهان في علوم القرآن ٢ / ص١٦٦- ١٦٧، وصاحب التعريف هنا يحدد الشخص المسموح له بإجراء التأويل.

٤١. المصدر نفسه ٢/ ١٥٥.

٤٢. ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، ص١٨.

٤٣. ابن حزم الظاهري: الإحكام في أصول القرآن ١/ ٢٦١.

٤٤. ابن تيمية: الإكليل في المتشابه والتأويل، ط١، القاهرة ١٩٤٧م، ص٢٢.

٤٥. الجطلاوي، الهادي: قضايا اللغة في كتب التفسير، المنهج التأويل الإعجاز، دار محمد علي الحامي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سوسة صفاقس بتونس، ط١، ١٩٩٨م، ص٢٣٢.

٤٦. ظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة، ص ٢٠.

مقالات

٤٧. الجطلاوي، الهادي: قضايا اللغة في كتب التفسير، المنهج التأويل الإعجاز، ص٢٦.

٤٨. حرب، علي: النص والحقيقة الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكّرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٥٢.

٤٩. الجطلاوي، الهادي: قضايا اللغة في كتب التفسير، المنهج التأويل الإعجاز، ٢٧.

٥٠. انظر مثلاً: فلسفة التّأويل، ص١٢-١٥، وأبو زيد، نصر حامد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط(٣)، ١٩٩٤م، ص١٩٢، ومفهوم النص، ص٢٢٠، وحنفي، حسن: قراءة النص مجلة ألف، ع٨، ص٩، وظاهرة التأويل وصلتها باللغة، ص ٤٨-٦٥، وانظر في كيفية استعمال المصطلح، ناصف، مصطفى: نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥١. سبق إلى هذه الإشارة عبد الفتاح الحموز في كتابه التّأويل النّحوي، انظر: الحموز، عبد الفتاح: التّأويل النّحوي في القرآن الكريم، مكتبة الرّشد، الرّياض ط(١) ١٩٨٤م، ١٨،١٧/١، وعلى الرغم من أنّ الكتاب يخلو من لفظة (تأويل) ذهب الباحث نصر حامد أبو زيد إلى أن سيبويه كان يكثر من استخدام لفظة (تأويل) إزاء العبارات الّتي يحتاج تحليلها إلى بعض العمق، انظر: أبو زيد، نصر حامد: التّأويل النحوي في كتاب سيبويه، مجلة ألف (مجلة البلاغة المقارنة) العدد (٨) ١٩٨٨م، تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، مطبعة إلياس العصرية، ص ٨٩، وإشكاليات القراءة وآليات التّأويل ص ١٩٢.

٥٢. انظر مثلاً: الفرّاء : معاني القرآن ٢/ ٢٩، ٢١٤، ٢٧٣، ومجاز القرآن ١/ ١٢، ٨٦، ٨٧، والمقتضب ١/ ١١٩، ٣/ ٢٨١.

٥٣. التّأويل النّحوي في القرآن الكريم ١/ ١٧.

٥٤. المصدر نفسه ١/ ١٧،٢٠، وعيد، محمّد: أصول النّحو العربي في نظر النّحاة ورأي ابن مضاء بضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٨٥.

٥٥. السّيوطي، جلال الدّين: الاقتراح في علم أصول النّحو، تحقيق وتعليق أحمد محمّد قاسم، مطبعة السّعادة، القاهرة ط(١) ١٩٧٦م، ص ٧٥.

٥٦. أبو المكارم، علي: أصول التفكير النّحوي، منشورات الجامعة الليبيّة، كلية التربية طرابلس ١٩٧٣م، ص٢٦٢، وظاهرة التّأويل وصلتها باللّغة ص ٥٦، وحسّان، تمّام: الأصول (دراسة أيستمولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب)، الهيئة المصريّة العامة للكتاب ١٩٨٢م، ص ١٤٨، ١٥٥،١٥٦، ١٦٠، والتّأويل النحوي في القرآن الكريم ص ١٧.

٥٧. الجاسم، محمود حسن : مفهوم التأويل النحوي، مجلة جذور، ع(٦)، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤٢٢ هـ، ص٤٥٠-٤٥٥.

٥٨. أبو حيّان النحوي، أثير الدين محمّد بن يوسف: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت، ط (١) ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م - ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م،١/ ٢٥٨-٢٥٩.

٥٩. البحر المحيط٢/ ٤٢٤.

٦٠. البحر المحيط١/ ٣١٤.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، مجد الدين ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزّادي، محمود محمّد الطناحي، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط(١) ١٩٦٣.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: الإكليل في المتشابه والتأويل، ط١، القاهرة ١٩٤٧م.
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط٢.
- ابن حزم الظاهري، أبو محمد علي: الإحكام في أصول الأحكام، ط١، القاهرة، ١٣٤٥هـ.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.
- ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين: لسان العرب، دار صادر ببيروت ط٢، ٢٠٠٤م.
- أبو حيّان النحوي، أثير الدين محمّد بن يوسف: تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت، ط (١) ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م - ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.
- أبو زيد، نصر حامد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، ط(٢)، ١٩٩٤م.
- أبو زيد، نصر حامد: التأويل النحوي في كتاب سيبويه، مجلة ألف (مجلة البلاغة المقارنة) العدد (٨) ١٩٨٨م، تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، مطبعة إلياس العصرية.
- أبو زيد، نصر حامد: فلسفة التّأويل (دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدّين بن عربي)، دار التنوير، بيروت ط(١) ١٩٨٣م.
- أبو زيد، نصر حامد: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٤م.
- أبو عبيدة، معمر بن المُثنّى التّيمي: مجاز القرآن، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط (٢)، ١٩٧٠م.
- أبو المكارم، علي أبو المكارم: أصول التفكير النّحوي، منشورات الجامعة الليبيّة، كلية التربية طرابلس ١٩٧٣م.
- الأخفش، أبو حسن سعيد بن مسعدة: معاني القرآن، تحقيق فائز فارس، الصفاة، الكويت، ط(٢) ١٩٨١م.
- الأزهري، أبو منصور محمّد بن أحمد : تهذيب اللغة، تحقيق عبد الحليم النّجّار، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٧م.
- إسماعيل، عز الدين: جدلية المصطلح الأدبي، مجلة علامات، النادي الأدبي، جدة، ١٩٩٢م، مج٢، ج٨، أبو المكارم، علي: تاريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، القاهرة الحديثة للطباعة، ط١، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
- الأعشى، ميمون بن قيس الأعشى الكبير : ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق محمّد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية.
- الجاسم، محمود حسن: مفهوم التأويل النحوي، مجلة جذور، ع(٦)، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤٢٢هـ.
- الجطلاوي، الهادي: قضايا اللغة في كتب التفسير، المنهج التأويل الإعجاز، دار محمد علي الحامي كلية الآداب والعلوم الإنسانية سوسة صفاقس تونس، ط١، ١٩٩٨م.
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد الجوهري : تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، القاهرة د.ت.
- حرب، علي: النص والحقيقة الممنوع والممتنع (نقد الذات المفكّرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- حسّان، تمام الأصول، «دراسة أبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
- الحموز، عبد الفتاح أحمد الحموز: التّأويل النّحوي في القرآن الكريم، مكتبة الرّشد، الرّياض ط(١) ١٩٨٤م.
- حنفي، حسن : قراءة النص، مجلة ألف (مجلة البلاغة المقارنة) العدد (٨) ١٩٨٨م، تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، مطبعة إلياس العصرية.
- خليل، لؤي علي: العجائبية في النثر الحكائي الأندلسي، (مخطوط) رسالة دكتوراه جامعة دمشق، كلية الآداب، ٢٠٠١م.
- الرازي، فخر الدين: أساس التقديس في علم الكلام، ط١ القاهرة، ١٣٢٨هـ.
- زادة، طاش كبري زادة: مفتاح السّعادة ومصباح السيادة، دائرة المعارف الثّقافيّة، حيدر آبادوكن، الهند ط(١) د.ت.
- الزّركشي، بدر الدّين محمّد بن عبد الله الزّركشي: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ط(٢) د.ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس، ط(١) ١٩٨٨م.
- السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت لبنان، د.ت.

- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة بلبنان، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- عبد الغفار، السيّد أحمد عبد الغفار: ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية د.ت.
- عيد، محمّد عيد :أصول النّحو العربي في نظر النّحاة ورأي ابن مضاء بضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢م.
- الغزالي، أبو حامد: المستصفى من علم الأصول ط١، المطبعة الأميرية بالقاهرة، ١٣٢٤هـ.
- الفرّاء، أبو زكريّا يحيى بن زياد: معاني القرآن، حقّق الجزء الأول والثاني أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٥م، وحقق الجزء الثالث عبد الفتاح شلبي وراجعه علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.
- الماتريدي، أبو منصور محمّد بن محمّد الماتريدي السّمرقندي : تأويلات أهل السّنة، تحقيق إبراهيم عوضين والسّيد عوضين، الجمهورية العربية المتّحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة القرآن والسّنة، القاهرة ١٩٧١م.
- المبرّد، أبو العبّاس محمّد بن يزيد: المقتضب، تحقيق محمّد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت ،د.ت.
- ناصف، مصطفى: نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي بجدة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

كناشة محمد الطالب وأهميتها للتاريخ الثقافي المغربي

الدكتور حماه الله ولد ميابي
نواكشوط - موريتانيا

لا تزال الكناشات المغربية أرضاً بكراً لم تطأها أقدام الباحثين كثيراً، **رغم أنها تمثل كنوزاً معرفية مهمّة، وظلت ترقد** على رفوف المكتبات طوال السنين، وتكتنز آداب **عصور وأجيال لفّها النسيان، وتعد كناشة محمد** الطالب بن **حمدون بن الحاج** (١٢٧٣هـ) **من أهم هذه الكناشات، لما تضمنته من آداب عصرها** التي **لم تسعفنا بها مصادر** أخرى **معروفة.**

أولا المؤلف:

شهدت فاس عاصمة الغرب الإسلامي إبان القرن ١٢ هـ ١٩م أحداثاً داخلية أليمة، وأطماعاً استعمارية باتت وشيكة. وشكلت هذه الأحداث جرحاً عميقاً انعكست آثاره جلية على العطاء المعرفي والثقافي، وأظلمت سماؤه بعد أن ظلت سنين طويلة متلألئة بمصابيح العلوم والمعارف.

غير أنها لم تعدم إنجاب رجالات أفذاذ استطاعوا أن يحركوا الركود، ويبددوا الظلام الذي لف محيطهم، لعل من أهمهم أبا عبد محمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي المرداسي الفاسي.

١- نشأته وحياته:

ولد أبو عبد الله محمد الطالب بفاس غير أننا لا نملك معلومات تحدد سنة ميلاده، لكن الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي يفترض أنه ولد بين سنة: (١٢١٧-١٢٢٢هـ= ١٨٠٢-١٨٠٧م) استناداً إلى مجموعة من الأدلة الوجيهة[1]

وقد نشأ في أحضان بيت عريق توارثت رجالاته العلم والسيادة طويلاً، الأمر الذي جعل الرجل يستشعر ضخامة الإرث الثقيل الذي ينتظره، فشمر عن ساعد الجد وهو لا يزال يافعا، وأمدته مواهبه الذاتية بما يكفل له الوصول إلى ما يصبو إليه، وهكذا تولى الخطابة بفاس ثم القضاء بمراكش

زهاء عشرة أعوام، ثم بفاس حتى وفاته: ١٢٧٣ هـ.

ب - دراسته وتدريسه:

لا تختلف المتون التي درسها محمد الطالب عن تلك المدرسة في عصره، حيث درس صحيحي البخاري ومسلم، والشفاء للقاضي عياض، وموطأ الإمام مالك، وشمائل الترمذي، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل، ومختصر التفتازاني، وخريدة والده حمدون في المنطق، والأجرومية، والمرشد المعين لابن عاشر[٢] وقد اختطف الموت منه أباه قبل أن يتعلم عليه، غير أنه وجد في شقيقه محمد المحدث: (١٢٧٤ هـ) خير خلف له، فأخذ عنه أغلب علومه.

ثم أخذ عن أغلب علماء فاس أمثال: بدر الدين الشاذلي الحموي الفاسي (ت: ١٢٦٦ هـ)، وأحمد بن عبد الملك العلوي (ت: ١٢٤١هـ)، وعبد القادر بن أحمد الكوهن: (ت: ١٢٥٣هـ)، والقاضي أبي الفتح محمد التهامي الحمادي المكناسي: (ت: ١٢٤٩هـ)، ومحمد الزرهوني الفاسي: (ت: ١٢٣٣هـ)، ومحمد اليازغي: (ت: ١٢٢٨هـ) ومحمد ابن العربي قصارة الحميري: (ت: ١٢٥٧هـ)، وغيرهم كما أخذ الطريقة الدرقاوية عن الشيخ محمد الحراق: (ت: ١٢٦١هـ).[٣]

وقد أخذ عن محمد الطالب أغلب علماء فاس القادمين عليها لأخذ العلم، أمثال: القاضي أحمد ابن الطالب بن سودة الفاسي (ت ١٣٢١هـ)، وابن أخيه أحمد بن محمد المحدث، وشقيقه المهدي بن محمد المحدث (ت: ١٢٩٠هـ)، ومحمد بن المديني كنون الفاسي: (١٢٠٢هـ)، ومحمد بن أحمد بناني النفري الفاسي: (١٢٧٠هـ) ومحمد بن عبد العزيز ابن السلطان مولاي سليمان: (ت: ١٣٢٦هـ) والعباس ابن السلطان عبد الرحمان (١٢٩٦هـ) والعربي بن إدريس العلمي: (ت: ١٣٢٠هـ) وغيرهم[٤].

جـ: مؤلفاته:

كان محمد بن الطالب سيال المداد غزير التأليف شملت تآليفه الفقه، والصرف، والتاريخ، والأنساب والعروض، والأدب، من تآليفه:

١- حاشيته على شرح ميارة على المرشد المعين في الفقه، طبع عدة مرات.

٢- حاشية على شرح بحرق للامية الأفعال، وقد طبع عدة مرات.

٣- رياض الورد فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد، في ترجمة أبيه أبي الفيض حمدون بن الحاج، وقد حققه الأستاذ جعفر بن الحاج السلمي، ونُشِرَ جزؤه الأول في دمشق سنة ١٩٩٣م وجزؤه الثاني في تطوان سنة ١٩٩٩ م.

٤- التعريف بالتاودي بن سودة، وقد حققه ونشره الأستاذ جعفر بن الحاج السلمي في دمشق ١٩٩١م.

٥- نظم الدرر واللآل في شرفاء عقبة بن صوال، وقد نشره الأستاذان حمزة بن الطيب، وعلي بن المنتصر الكتانيين بالرباط سنة ٢٠٠٠ م.

٦- الأزهار الطيبة النشر، فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادئ العشر، نشر بطبعة حجرية بفاس سنة ١٣١٧ هـ، ويقوم الآن بتحقيقه الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي.

٧- شرح أحياء الميت، بفضائل آل البيت، للسيوطي،

لا زال مخطوطا.[٥]

٨- شرح مقصورة والده حمدون في العروض مخطوط.[٦]

٩- كناشة كبيرة بالخزانة العامة بالرباط مسجلة برقم: ٦٢ ك.

١٠- كناشة بالخزانة الملكية مقيدة برقم: ١٢٢٢٤، وهي التي نحن بصدد تحقيقها الآن.

وعلى العموم فمحمد الطالب كان يتمتع بصفات خلقية فاضلة مثل الزهد الشديد والورع البالغ، ومواهب علمية تمثلت في التعلق بالعلم، وغزارة التأليف، والولع الزائد بالأدب، ليس فقط من خلال تدوينه، وإنما أيضا من حيث إنتاجه. كما يتمتع بحس تاريخي تجلى في كافة تآليفه، هذه الصفات وغيرها جعلت منه أحد ألمع أعلام فاس والمغرب كلها إبان حياته، وجعلته محط اهتمام الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً، لعل ذلك تترجمه غزارة المصادر التي تحدثت عنه[٧].

ثانيا- الكناشة:



الكناشة هي: «الأصول التي تتشعب منها الفروع... ومنها الكناشات: الأوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط»[٨].

هكذا عرفها الزبيدي، وهو تعريف لا يبعد عنه في جوهره تعريف محمد المنوني، إذ يعرفها بأنها هي: « المجموعات التي يسجل فيها المعتنون مختارات مما يقرؤون أو يسمعون، وأحيانا يضيفون لذلك إنتاجاتهم ومشاهداتهم وما جرى مجرى ذلك[٩]».

وتقييد الفوائد والشوارد قديم قدم الكتابة نفسها، غير أن الاعتناء بهذه المقيدات في المشرق والمغرب، وتسميتها هناك بالتذكرات، وهنا بالكناشات لم يعرف إلا في عصور متأخرة.

وإذا كانت «تذكرة ابن مكتوم» وتذكرة بن حمدون من أقدم التذكرات في المشرق، فإن أقدم الكناشات المغربية غير معروفة على وجه الضبط، وإن كانت الكلمة التي هي مغربية صرفة دخلت التداول الثقافي في القرن:٨هـ وأول كناشة مذكورة هي كناشة الجادري الفاسي المتوفي:٨١٨هـ، حسب رأي المنوني[١٠].

ومنها يكون العصر الوطاسي هو العصر الذي اكتنف شيوع هذا اللون من المقيدات وانتشاره، لكنه عرف تزايداً ملحوظاً إبَّانَ العصر السعدي، الذي عُرِفَ علماؤه بحب التقييد والتكنيش، أمثال: محمد القصار القيسي (١٠٧٢هـ)، وتلامذته: أبي زيد الفاسي وعلي بن القاسم، ومحمد العربي... وغيرهم[١١].

ثم بلغت الكناشات أوجها في العصر العلوي الذي يعد عصر الكناشات الذهبي، يتجلى ذلك من الثبت الذي ختم به المنوني مقاله عن الكناشات

حيث أحصى ٦٧ كناشة بالخزانات المغربية أغلبها ينتمي للعصر العلوي.(١٢)

ويعتبر الأستاذ محمد المنوني أن أقدم كناشة موجودة هي كناشة الزجالي المتوفى سنة ١٠٧٠هـ، وآخرها كناشتا محمد بن عبد القادر الرباطي المتوفى سنة ١٢٧١هـ.

ومهما يكن من أمر فإن الكناشات أسلوب للتقييد لا يخضع لنظام محدد مثل الكتب، وإنما هو جمع وتسجيل لكل ما يراه المقيد جدير بالتسجيل والحفظ، ومن هنا جاءت موضوعات الكناشات متعددة، وإن كان يغلب عليها تخصص وذوق صاحبها، ويطغى عليها ميوله المعرفي لكنها تظل دائما ذات موضوعات مشتتة ومتنائية، دون منهج أو نظام أو ترتيب، ولا يجمع بين موضوعاتها سوى الغلاف في أحيان كثيرة.ولعل هذه إحدى السمات البارزة للكناشات، والتي يمكن أن نجملها في:

تعدد الموضوعات، ففي ورقة واحدة تجد علم الفلك، والرقيا، والطب، والفقه، والشعر...

١. عدم الترتيب والنظام، فليست للكناشة أبواب أوفهارس، ولهذه السمة صلة وثيقة بسابقتها، ولعلهما يعودان إلى أن الملاحظات تقيد حسب ورودها الزمني، لاحسب اعتبارات أخرى.

٢. الخلو من عنوان، فصاحب الكناشة لا يعطيها عنواناً محدداً في الغالب، غير أنه قد يسميها كناشة في ثنايا كلامه، أو تسمى في الأوساط العلمية بتسمية معينة، كالكناشة، أو المجموع أو غير ذلك.

٣. عدم تسمية جامعها في كثير من الأحيان، وإنما يستفاد بوسائط أخرى، مثل مقارنة الخط، أو إفادات أخرى، أو استنباط ذلك من ثنايا الكناشة نفسها.

٤. تعدد جامعيها، فكثير من الكناشات تداولتها أيدي كثيرة، وتناوبها مقيدون متعددون، ويغدو الأمر غير بعيد إذا لاحظنا أن كناشات كثيرة انتقلت - لسبب أو لآخر- من حوزة أحد لغيره، فيواصل الأخير التسجيل بها من حيث انتهى الأول، فتخضع الكناشة لذوق وميول جديدين، فتزداد موضوعاتها المتباينة أصلاً تبايناً أكثر.

كما يمكن أن يكون هذا التعدد ناتج عن طلب صاحبها من غيره أن يقيد له بعض المعلومات.

٥. ندرة نسخ الكناشات، فجل الكناشات بخطوط أصحابها، ولا توجد منها نسخ أخرى باستثناء بعض الكناشات ذات الأهمية الخاصة.

٦. غلبة الخط المدمج السريع على الكناشات، ومن هنا كثيراً ما تكون الكناشات كثيرة التصحيف، وصعبة القراءة، لأنها تسويد أولي لم يول عناية كافية. هذه الخصوصيات تستوجب التعامل بحيطة وحذر شديدين مع معلومات الكناشات، وإخضاعها دائما للمساءلة والتدقيق والتمحيص.

وهنا أود الإشارة إلى أن هذه الكناشات لا غنى عنها في كتابة التاريخ وتدوين التراث، خصوصا في بيئة تتهم بعدم العناية الكافية بالتاريخ كالبيئة المغاربية.

وتأتي هذه الأهمية مما تضمنته الكناشات من معلومات نادرة عن أحداث عاشها صاحبها، أو من

تراجم لأعلام مغمورة، أو استشهادات من مؤلفات مفقودة، ولاحتوائها لمؤلفات نادرة لصاحبها أو لغيره من سابقيه أو معاصريه.

هذا بالإضافة إلى كونها في الغالب تتضمن معلومات لا تتوفر في الكتب المنشورة لأسباب سياسية أو غير سياسية، حيث أن سرية الكناشة ومحدودية تداولها تتيح لصاحبها إيداعها ملاحظات لا يمكن نشرها؛ لأن الكناشة في الأصل ليست سوى اختيارات وملاحظات شخصية لم يردها صاحبها إلا لنفسه، غير أنه قد يأتي بعده من يجد أنها جديرة بالاهتمام، كما حصل لمقيدات محمد بن قاسم القصار القيسي (١٠١٢ هـ) التي بيعت بعد موته بوزنها ذهبا.[١٣]

ومن هنا يمكن القول إن الكناشة هي ما نطلق عليه في لغتنا اليوم مصطلح المذكرات، والتي هي في الأساس وسيلة من وسائل التعلم والاستذكار، لهذا تعددت أسماؤها من جهة حيث نجد الدفتر، والتذكرات، والمقيدات والمجموع، كما تعددت أنواعها أيضا حيث نجد كناشات عامة وهي الدواوين المالية والقضائية والإدارية، وكناشات علمية هي التي كنا بصدد الحديث عنها.

وقد تمثلت كناشة محمد الطالب جل تلك السمات السابقة في مختلف تجلياتها.

أ - النسبة والعنوان:

لعله مما يجب البدء به هنا البحث في صحة نسبة الكناشة إلى جامعها، لما لهذا الأمر من أهمية في علم التحقيق.[١٤]

ولم تخرج كناشة محمد الطالب على عرف الكناشة الذي تحدثنا عنه سابقا في عدم ذكر المؤلف، غير أن هناك أدلة أخرى، قد تكون كافية للجزم بصحة هذه النسبة، ومن بينها:

١. أن الكناشة نفسها تفيد بأن جزءاً منها لأحد أبناء حمدون بن الحاج.

٢. أن الخط بعد مقارنته أثبت أن ابن حمدون هذا هو محمد الطالب.

٣. أنها منسوبة إليه على صفحتها الأولى، وفي فهارس الخزانة الحسنية، وفي مقال المنوني «الكناشات المغربية».

٤. أن مترجمي محمد الطالب قد نسبوها له.

٥. أن كثيراً من نصوص الكناشة وردت في مؤلفات أخرى للمؤلف، الأمر الذي يعني أنها كانت بحوزته.

هذه الأمور مجتمعة تفيد إفادة قد تكون قاطعة صحة نسبة هذه الكناشة لمحمد الطالب.

أما العنوان فيمكن الإبقاء على: «الكناشة» بناء على مجموعة من الاعتبارات، نعد أنها لا تخلو من وجاهة مثل:

- أنه هو العنوان الذي عنونها به جامعها ضمنيا، فبرغم أنه لم يضع لها اسماً كما هو الشأن في الكناشات- فإنه يرد في ثناياها: «هذه الكناشة».
- أنه هو الاسم الذي سماها به أحدهم على صفحتها الأولى.
- وأنه هو الاسم الذي اختاره المفهرسون لها، كما اختاره مترجمو المؤلف.

كناشة محمد الطالب وأهميتها للتاريخ الثقافي المغربي

- وأن الكناشة تمثلت كافة عناصر وسمات الكناشات، بحيث لا يمكن تسميتها بغير هذا الاسم.

ب - موضوع الكناشة:

يبدو لمتصفح الكناشة منذ الوهلة الأولى أن صاحبها كان يريدها أن تكون كتاباً لما تتسم به من تساوي أوراقها كيفاً وحجماً، خلافاً لكثير من الكناشات التي كتبت في أوراق غير متجانسة في الغالب.

ولعل محمد الطالب أعدها مشروعا لمدونة شعرية، أرادها أن تكون خاصة بالشعر المغربي، لا يخالطه من شعر آخر إلا ما له علاقة به، كتلك القصائد التي عارضها شعراء مغاربة، أو ضمنوا بعض أبياتها... لكن هذا المشروع توقف سريعاً في الورقة: ٢٣، وبدأ يأخذ من هنا وهناك لتتحول المدونة إلى كناشة صرفة.

و يمكن تقسيم موضوعات الكناشة مبدئيا إلى:

١ - نثر:

وقد تضمنت نحواً من ٩٠ نصاً نثرياً، واحتل قرابة: ٦٠ صفحة من أصل ١٨٢، وتوزعت على الموضوعات الآتية:

الموضوع	التكرار	النسبة
الطب	٠٧	٨،٢٣
التصوفيات	٢٣	٢٧،٠٥
الأدعية	١٧	٢٠،٠٠
الحكم	٠٢	٠٢،٣٥
المواعظ	٠٣	٠٣،٥٢
المراسلة	٠٩	٠٢،٣٥
الرقية	٠٢	١٠،٥٨
الطرف	٠٩	١٠،٥٨
متفرقات	١٣	١٥،٢٩

ومن تباين هذه الموضوعات وطبيعتها يمكننا أن نلاحظ أنماط الثقافة الشائعة حينها، والتي تنحو منحاً موسوعيًّا يتجلى في كثرة هذه الموضوعات وتباين مجالاتها، فنجد الطب إزاء الرقيا، والطرف إزاء المواعظ، وعلم الفلك إزاء الأسطورة، وهكذا تتباعد مجالات المعارف إلى حد التناقض أحياناً.

٢ - شعر:

والكناشة يمكن اعتبارها كناشة شعرية، حيث احتوت ٢٧٥ قطعة شعرية، واحتل الشعر من صفحاتها: ١٢٢ صفحة من أصل ١٨٢.

وقد توزعت أشعارها على كافة الجهات العربية، غير أنها اقتصرت على العصور المتأخرة غالباً.

ولم تأت مبوبة أو خاضعة لمعايير محددة في التصنيف باستثناء بعض الحالات، كالتغزل بالإمام والمؤذن، وأشعار تتعلق بالغناء والمغنيين، وأخرى عن الثقلاء وأمثلة كثيرة لبعض الألوان البديعية، كالتوجيه والقسم، والاكتفاء.

وقد تضمنت: ٧٢ نصاً لشعراء مغاربة هم على التوالي:

- الناودي بن سودة (١١٠٩ هـ)، وقد أوردت له بيتين فقط.

- أحمد بن عبد الحي، الحلبي الأصل، الفاسي الموطن (١١١٢ هـ). وقد أوردت له قصيدة واحدة في المديح النبوي، وهي قصيدة طويلة، ولم ترد في ديوانه عرائس الأفكار المخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

- محمد بن عبد السلام بناني (١١٦٣ هـ)، وقد أوردت له قصيدة واحدة في ختم شيخه المسناوي لصحيح البخاري.

- أبو حفص عمر بن عبد الله الفاسي الفهري (١١٨٨ هـ)، وقد أوردت له: ٢٢ نصاً وتظهر تلك النصوص الموهبة الكبيرة التي يتمتع بها.

ولا يخفى أن أبا حفص كان شاعراً معدوداً من خيرة شعراء عصره، ومن أغزرهم إنتاجاً، لهذا نجد محمد الطالب يورد له كل هذا الشعر، على الرغم الفارق الزمني بينهما.

- حمدون بن الحاج، والد صاحب الكناشة (١٢٣٢ هـ)، وبرغم أنه جمع شعره في ديوانين، فقد أورد له في الكناشة ١٢ نصاً لكن أغلبها ورد في ديوانه.

- محمد بن أبي بكر اليازغي (١٢٣٨ هـ).

ويبدو أنه كانت تربطه بمحمد الطالب علاقة متميزة، تبدو من خلال المساجلات بينهما، الأمر الذي مكنه من جمع ١٢ نصاً له، واليازغي من أدباء عصره المعدودين.

- محمد بن العربي قصارة (١٢٥٧ هـ).

صديق المؤلف وشيخه القريب منه جدا، حيث ما فتئ يمدحه ويكيل له الثناء، وكانت له معه مساجلات كثيرة عبر عنها بالقول: «وكم بيني وبين شيخنا هذا من مراجعات نفسية»،[١٥] وقد أورد له ستة نصوص.

- محمد الطالب بن الحاج: (١٢٧٣ هـ)، جامع الكناشة نفسه، ووردت له ستة نصوص، لعلها كانت هي محاولاته الشعرية الأولى.

وعلى العموم فتتميز أشعار الجزء المغربي بالقصر النسبي، ويغلب عليها غرض الغزل، ثم المديح، لكن بقية الأغراض التقليدية كان لها حضورها الملحوظ.

ج - مصادر الكناشة:

يمكن تقسيم مصادر المؤلف التي أعتمدها على:

- مصادر للشعر المغربي، وقد اعتمد فيه على النقل المباشر عن نفسه وعن معاصريه.
- ثم على كناشات أو مقيدات قديمة، حيث نجده يكرر القول: «نقلته من محل غير مهذب»[١٦] في إشارة إلى أن مصادره أوراق قديمة، أما الشعر الأندلسي فلعله اعتمد فيه على مصادر ثلاثة هي:
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد المقري.
- وأزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد المقري أيضا.
- والكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب.

لكننا لم نستطع إثبات أن جامع الكناشة قد اعتمد مصادر محددة فيما يخص الشعر المشرقي.

كناشة محمد الطالب وأهميتها للتاريخ الثقافي المغربي

ولا تصرح الكناشة بمصادرها إلا نادراً، وفي النثر خاصة، فتصرح أحياناً بأنها تنقل من رحلة العياشي مثلا.

د - قيمة الكناشة:

إن قيمة كناشة محمد الطالب تكمن في احتفاظها بهذا الكم الهائل من الشعر المغربي خصوصاً والعربي عموماً، لشعراء يندر إيجاد شعر لهم في مصادر أخرى، ثم ما تضمنته من إشارات تاريخية معتبرة.

كما تكمن في تأريخها للحركة الثقافية، ومدى الرواج الأدبي في عاصمة الثقافة في الغرب الإسلامي خلال القرن ١٣ هـ، وتكشف عن مدى تعاطي الآداب في جو ثقافي عرف عنه العزوف عن الأدب.

هـ - تاريخ التأليف:

لا تحدد الكناشة تاريخ تأليفها، ولعلها جمعت طوال سنوات عديدة، قد تكون بداياتها حوالي سنة ١٢٣٤، حيث يحدد تاريخ أحد النصوص في وسط الكناشة بهذا التاريخ، ونجد نصاً آخر مؤرخ ب: ١٢٣٩.

لكن نهاية التقييد بها لم نستطع تحديدها.

ثالثا - وصف المخطوطة

بعد بحث لا يخلو من مشقة لم نستطع التوصل إلى نسخ أخرى للكناشة، غير النسخة الوحيدة الموجودة بالخزانة الحسنية.

رقمها: ١٢٣٢٤

عدد أوراقها: ٩١



أولها:

الحمد لله، فائدة جليلة لمن ركب البحر أخذناها عن سيدنا وشيخنا الشيخ البركة أبي [...] سيدي أحمد بن عبد الفتاح عجان الحديد الرفاعي، أفاض الله علينا من بركاته، آمين، وهي هذه: وإنك إذا عزمت على ركوب البحر تأخذ معك حصيات وتأخذ منهم سبعة .....

وهناك على الغلاف كتبت نسبة عبد السلام بن مشيش، غير أنها تآكلت بفعل الأرضة.



آخرها:

ولأبي محمد غانم:

صير فؤادك للمحبوب منزلة

سم الخياط مجال للمحبينا

ولا تسامح بغيضا في معاشرة

فقلما تسع الدنيا بغيضينا

اسم الناسخ: لقد أسلفنا أن الكناشة تعاقبت عليها أقلام عدة غير أن أغلبها بخط محمد الطالب استناداً إلى الأدلة آلتي تقدمت، كما يغلب عليها الخط المغربي المسند، الرقيق، خلواً من الزخرفة والتلوين.

المسطرة: غير منضبطة.

المقاس: ١٧×١٢ سم.

حالة المخطوطة: ليست سيئة، غير أن بعض أوراقها كانت عرضة لبعض التآكل، وهو ما خلف بها بعض الخروم القليلة.

ملاحظة: النصوص أغلبها مكتوب في وضعه الطبيعي، غير أن بعضها كتب بالهامش وهو أمر شائع في الكنانيش، وهي خالية من التمليك وتاريخ النسخ.

الهوامش

١. رياض الورد فيما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد: ١١/١ لمحمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي (ت ١٢٧٣م)، تحقيق الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي، الجزء الأول، مطبعة الكتاب العربي، دمشق،١٩٩٣م.

٢. رياض الورد: ٧٢/٢، لمحمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي (ت ١٢٧٣م)، تحقيق الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي الجزء الثاني، تطوان،١٩٩٩م.

٣. مقدمة الإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف: ١/٥-٦، لمحمد الطالب بن الحاج (١٢٧٣هـ)، تحقيق جعفر بن الحاج، مطبعة الخليج العربي تطوان، ٢٠٠٤م.

٤. المصدر السابق:١/٧-٨.

٥. رياض الورد : ١/ ١٤ مصدر سابق.

٦. المصدر السابق : ١/ ١٤

٧. ينظر في ترجمته:

- الدرر البهية: ٢/ ٣٢٠.
- سلوة الأنفاس: ١/ ١٥٧-١٥٨.
- معجم المطبوعات العربية والمعربة: ١/ ٧٠.
- الفكر السامي:٢/ ٣٠٠.
- شجرة النور: ١/ ٤٠٤.
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام : ٢/ ٢٠٢-٢٠٦.
- دليل مؤرخ المغرب الأقصى:١/ ٧٥.
- تاريخ الشعر والشعراء بفاس ٩٠.
- الموسوعة المغربية: ١/ ٦٧-٦٨.
- معجم المطبوعات المغربية: ٩٩-١٠٠.
- أعلام الزركلي: ٦/ ١٧١.
- معجم المؤلفين: ٥/ ٢٩-٣٠.
- مؤرخوا الشرفاء ٢٤٦-٢٤٧.
- مقدمة رياض الورد في انتمى إليه هذا الجوهر الفرد.
- مقدمة التعريف بالتداوي بن سودة.
- مقدمة الإشراف على بعض من فاس من مشاهير الأشراف.
- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية بفاس العدد٦/ ١٩٩٠- (قاضي مراكش محمد الطالب/ جانب من اهتماماته الفكرية).

٨. تاج العروس:٤/ ٢٤٧، لمرتضى الزبيدي، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د.ت).

٩. الكناشات المغربية مصادر للتاريخ المغربي: ١٩٦، مقال لمحمد المنوني بمجلة المناهل، ع.٢، السنة: ١٩٧٥.

١٠. الكناشات المغربية: ١٢٧.

١١. انظر المصدر السابق: ١٩٩-٢٠٠.

١٢. المصدر السابق: ٢١١-٢٢١.

١٢. المصدر السابق: ١٩٩.

١٤. انظر تحقيق النصوص ونشرها: ٤٢، تحقيق النصوص و نشرها، لعبد السلام هارون، مكتبة السنة ط.١، ١٤١٠هـ.

١٥. كناشة محمد الطالب بن حمدون بن الحاج: ٢١، مخطوطة الخزانة العامة، برقم: ٦٢ ك.

١٦. انظر الورقة: ٧ من هذه الكناشة.

المصادر والمراجع

- **رياض الورد فيما انتمى إليه هذا الجوهر**، لمحمد الطالب بن حمدون بن الحاج السلمي (ت ١٢٧٢م)، تح. الأستاذ جعفر ابن الحاج السلمي، الجزء الأول، مطبعة الكتاب العربي، دمشق:١٩٩٢م.
- **مقدمة الإشراف، على بعض من تقاس من مشاهير الأشراف**، لمحمد الطالب بن الحاج (١٢٧٢هـ). تحقيق جعفر بن الحاج، مطبعة الخليج العربي تطوان، ٢٠٠٤م.
- **تاج العروس**، لمرتضى الزبيدي، مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د.ت).
- **الكناشات المغربية مصادر للتاريخ المغربي**، مقال لمحمد المنوني بمجلة المناهل، ع:٢، السنة: ١٩٧٥.
- **تحقيق النصوص ونشرها**، لعبد السلام هارون، مكتبة السنة ط.١، ١٤١٠هـ.

الوضوح والغموض في الأدب العربيّ بين التراث والحداثة

الأستاذ الدكتور وليد إبراهيم قصاب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض - المملكة العربية السعودية

الوضوح والغموض في الأدب العربيّ بين التراث والحداثة

تمهيد

لعل أول إلماعة إلى الغموض، أو عدم وضوح الكلام - في تراثنا النقدي - نجدها في العصر الجاهلي عندما أنشد النابغة الذبياني النعمان بن المنذر قوله في مديحه:

تـــراك الأرضـــ إمـــا مـــتَّ خِفـــاً
وتـحـيـا إن حـيـيـت بـهـا ثـقـيـلا

فقال له: هذا بيت إن لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب. ويروى أن النابغة أعانه ابن لزهير، هو كعب بن زهير بن أبي سلمى على أن يقول:

وذاك بـــأن حـلـلـت الـعـز مـنـهـا
فـتـمـنـع جـانـبـيـهـا أن يـزولا

فطابت نفس النعمان[1].

ثم برزت قضية الوضوح والغموض بشكل عميق في العصر العباسي مع ظهور المحدثين ومذهبهم في الصنعة والبديع، وأشير إلى أبي تمام على وجه الخصوص بأنه شاعر يؤثر الغموض؛ إذ يعقّد المعنى، ويبالغ، ويحيل، ويبعد في الصور، ويستعمل الغريب من الألفاظ.

ونقل التاريخ النقدي الحوار الطريف الذي دار بينه وبين ناقديْه أبي سعيد الضرير وأبي العميثل عندما استمعا إلى شعره فقالا له: « لم لا تقول ما يُفهم؟» فكانت إجابته التي استُظرفت: « لم لا تفهمان ما يقال؟[2]».

ثم اتُّهم شعراء آخرون بعد ذلك بالغموض كأبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهما.

وعلى وجود نقاد أشاروا إلى الغموض في الشعر، وعدوه ميزة، إلا أن هذا الغموض- كما سنوضّح- كان له مفهوم خاص يختلف عن مفهومه في الشعر الحديث، كما أن الغموض ظل - بشكل عام - عيبا يؤاخذ به الكاتب: شاعرا كان أم ناثراً.

ظل النقد العربي، بل الثقافة العربية الإسلامية عامة، تميل إلى الوضوح، وتحث عليه، وتعيب الغموض والتعقيد بأشكالهما كافة، وتستهجن كل ما يمكن أن يكون سببا فيهما:كوحشي الألفاظ، وغرابة المفردات، والمعاظلة في التركيب، والتقديم والتأخير من غير سبب بلاغي، والبعد في الاستعارة، وعدم المقاربة في التشبيه وإدخال الفلسفة والمنطق، وما شاكل ذلك.

مصطلحات البلاغة والنقد تدلّ على الوضوح:

ظل الوضوح هو السمة الأصيلة المميزة للأدب العربي، بل سمة واضحة من سمات الثقافة العربية، واللسان العربي. وإن الملاحظ أن جميع المصطلحات الأدبية التي تحدثت - في تراثنا - عن جماليات الكلام وخصائص القول الإيجابية، هي مصطلحات تحمل معنى الوضوح والظهور.

إن فن القول يسمى «بلاغة «والبلاغة من البلوغ والوصول، فالقول الفني الجميل هو قول يبلغ المتلقي، ويؤثر فيه، ولو كان غامضاً مبهماً ما بلغه ولا وصل إليه، ولا أثر فيه.

وإن الفصاحة - وهي من صفات الألفاظ، وأحد عناصر البلاغة- تعني كذلك الإبانة؛ تقول العرب:أفصح الصبح، إذا أضاء.وأفصح اللبن، إذا انجلت رغوته فظهر. وأفصح الأعجميّ، إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين.

وإن من أسماء البلاغة- وهي فن القول كما ذكرنا- البيان، وهو الظهور والوضوح والانكشاف.

وإن من خصائص العربية« الإعراب» وهو يعني كذلك الإبانة والإفصاح. وأعرب فلان عما في نفسه: أبان وأظهر. والإعراب- في مصطلح النحو- يوضح المعاني، ويكشف عن وظائف الألفاظ والتراكيب.

إن هذه الأمثلة وكثيرا غيرها لتقفنا- بشكل جليّ- على أن الوضوح خصيصة كبرى من خصائص الفكر العربيّ والثقافة الإسلامية. وقد مضت كثير من قواعد النقد والبلاغة عند العرب ترسّخ مفهوم الوضوح والجلاء، فنفّرت من وحشيّ الألفاظ وغرابتها، وهي تلك التي لا يظهر معناها، فيُحتاج أن ينقّر عنها في كتب اللغة. كما نفّرت البلاغة من التعقيد بنوعيه: اللفظيّ العائد إلى اختلال نظم الكلام، فلا يدري المتلقي كيف يتوصل إلى معناه. والمعنويّ، وهو الذي يرجع إلى المعنى، فيكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني غير الظاهر ودعي في التشبيه إلى المقاربة، وفي الاستعارة إلى مناسبة المستعار منه للمستعار له، واستقُبح ما بعُد من التشبيهات، وما اعتاص من الاستعارات كما كان حال بعض استعارات أبي تمام[٢].

ولو مضينا نستقصي ما في تراثنا الفكري من أقوال تشير إلى الوضوح، وتنفّر من الغموض والتعقيد لطال بنا الاستقصاء، وأخرجنا عن القصد. ولكن حسبنا على رأس ما ذكرناه جميعا ما وصف الله تعالى به كتابه العظيم، وهو القمة السامقة المعجزة للقول الفني الجميل، وأرفع نموذج أدبي عرفته أو يمكن أن تعرفه البشرية؛؛لقد وصف الله تعالى القرآن الكريم في أكثر من موضع بالوضوح والبيان قال تعالى: «آلر تلك آيات الكتاب المبين»(يوسف:١) وقال عزّ اسمه:» تلك آيات الكتاب المبين « (الشعراء:٢).

واقترن وصف القرآن الكريم بالعربية والإبانة

في قوله تعالى: «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» (النحل:١٠٣) ووصفت آياته بأنها مبينات «ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات» (النور: ٣٤) وسميت الآيات والبراهين والأدلة بينات قال تعالى:«وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس» (البقرة: ٨٧).

ووصف الله - عزّ وجلّ - القرآن بأنه ميسر للفهم والحفظ والاتعاظ، فقال: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِرٍ) (القمر:١٧)

وعد بعض العلماء من وجوه إعجاز القرآن الكريم يسر تناوله، وسهولة حفظه وفهمه[٤]، وأنه قادر على مخاطبة جميع فئات الناس على مختلف ثقافاتهم وعصورهم؛ إذ إن معانيه مصوغة «بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافاتهم، وعلى تباعد أزمنتهم وبلداتهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم... [٥]».

ذم الغموض والتعقيد:

إن أقوال النقاد والبلاغيين العرب في ذم الغموض والتعقيد، والتنفير من الصعب الغريب أكثر من أن تحصى.بل إنّ مفهوم البلاغة نفسه ارتبط عند العرب- كما سبق أن ذكرنا- بالوضوح والإبانة.

قال عليّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: «البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلقة، وإبانة عن مشكل.»

ومثله قول الحسن بن عليّ- رضي الله عنهما-: «البلاغة إيضاح الملتبسات، وكشف عوار الجهالات، بأسهل ما يكون من العبارات»، وقوله: «البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل عبارة».

ومن ذلك قول محمد بن عليّ- رضي الله عنهما-: «البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ»[٦].

وأشار أبو هلال العسكري إلى مفهوم الوضوح الذي ارتبطت به البلاغة العربية، فقال: «قال العربيّ: البلاغة التقرّب من المعنى، والتباعد من حشو الكلام، وقرب المأخذ.. ومثله قول الآخر: «البلاغة تقريب ما بعُد من الحكمة بأيسر الخطاب» والتقرّب من المعنى البعيد هو أن يعمد إلى المعنى اللطيف فيكشفه، وينفي الشواغل عنه، فيفهمه السامع من غير فكر فيه وتدبّر له.. [٧]».

قال بشر بن المعتمر: «إن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك، على أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف على الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام»[٨].

وتحدث بشرٌ عن ثلاثة منازل للمعاني، وجعل «أولى ذلك أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إما عند الخاصّة إن كنت للخاصّة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامّة أردت..» [٩]. وسئل بعض العلماء: ما الشعر عندك؟ قال: السهل الممتنع[١٠].

وقال أبو هلال العسكري: «من أراد الإبانة في مديح أو غزل أو صفة شيء، فأتى بإغلاق؛دل ذلك على عجزه عن الإبانة»[١١].

وقال الآمدي في التعقيب عن بيت أبي تمام:

جهمية الأوصاف إلا أنهم
قد لقبوها جوهر الأشياء

مازلت أسمع الشيوخ يقولون: هذا البيت من تخليطه ووساوسه، لأن الشعر إنما يُستحسن إذا فُهم، وهذه الأشياء التي يأتي بها منغلقة ، ليست على مذهب الأولين والمتأخرين..»[١٢].

ذكر الثعالبي من عيوب المتنبي استعماله لألفاظ المتصوّفة، واستعمال كلماتهم المعقّدة، ومعانيهم المغلقة، من مثل قوله في وصف فرس:

وتسعدُني في غمرة بعد غمرة

سبوحٌ لها منها عليها شواهدُ

كما عدّ من عيوبه- بسبب تعقيده - «الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة»[١٣].

ودعا النقاد الشعراء أن يجتنبوا من القول كلّ ما يُعتذر عن عدم وضوحه. قال أبو بكر الشنتريني: «الأولى بالشاعر أن يجتنب كلّ ما اعتذر منه؛ فقد قيل: شرُّ الشعر ما سئل عن معناه، وأحسنه ما كان لفظه إلى سمعك أقرب من معناه إلى قلبك..»[١٤].

وتحدّثت طائفة من العلماء عن الصور الفنية التي يأتي بها الشعراء، فربطوا جمالها بالوضوح، وقدرتها على كشف الغامض؛ قال الرماني: «التشبيه الحسن هو الذي يخرج الأغمض إلى الأوضح. والقبيح خلافه. وأحسن التشبيه ما قارب الحقيقة وكان أبلغ منها..»[١٥].

وقال أبو بكر الشنتريني: «كلما بعُدت الاستعارة عن الحقيقة قبُحت، كقول بعضهم:

اسفري لي يا ضرّة الشمس

كأنه توهم أن الضرّة لا تكون إلا حسنة. وهذا وهم شديد، وتوهم غير سديد.. ومن قبيح الاستعارة قولُ بشار:

وجدّتْ رقابَ الوصل أسيافُ هجرها

وقدّت لرجل البين نعلين من رجلي

فجعل للوصل رقابا، وللبين رجلا. وهذا بعيدٌ جدا..»[١٦].

وعرف الشعراء أنفسهم أن رواج شعرهم عند المتلقي مقرون بوصوله إليهم، وعدم انغلاقه دونهم؛ قال ابن أبي المنذر: «إنما نفق شعر أبي نواس على الناس لسهولته، وحسن ألفاظه. وهو مع ذلك كثير البدائع. والذي يُراد من الشعر هذان»[١٧].

وقال إسحاق بن ثابت العطار: «كنا كثيرا ما نقول للسيد: مالك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تُسأل عنه كما يفعل الشعراء؟ قال: لأنّ أقول شعراً قريباً من القلوب، يلذه من سمعه، خيرٌ من أن أقول شيئاً معقداً تضل فيه الأوهام»[١٨].

وقال البحتري يمدح قصائده بالابتعاد عن الغموض والتعقيد:

حُزن مستعمل الكلام اختياراً

وتجنّبْن ظلمة التعقيد

وركبْن اللفظ القريب فأدر

كْن به غاية المراد البعيد

مفهوم الوضوح:

ما مفهوم الوضوح الذي هو سمة عامة من سمات الفكر العربي الإسلامي ؟وما صلته بمصطلحات كثيرة قد تلتبس به؟

إن الوضوح لا يعني السطحية والابتذال كما قد يظن بعضهم، وهو لا يتنافى مع الإيحاء والإشارة واستخدام الرمز والأسطورة ولغة المجاز والتصوير، بل إن الأصل في لغة الأدب عامة،

والشعر خاصة، أنها لغة تصويرية مجازية، تعتمد التخييل، وتقوم على التجسيد والتشخيص.

قال الجاحظ « إنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير»[19].

وقال ابن سينا:الشعر كلام مخيّل، مؤلف من أقوال موزونة متساوية. وعند العرب مقفاة»[20].

وكان النقاد يدركون خصوصية لغة الشعر، وتميز لغة الشعراء من لغة الكلام العادي. إنّ الشعراء- كما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي-: «أمراء الكلام، يصرّفونه أنى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم: من إطلاق اللفظ وتقييده، ومدّ المقصور، وقصر الممدود، والجمع بين لغاته، والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلّت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيقرّبون البعيد، ويبعّدون القريب، ويُحتجّ بهم، ولا يُحتجّ عليهم..»[21].

وقال ابن فارس عن لغة الشعراء: « الشعراء قد يومئون إيماء، ويأتون بالكلام الذي لو أراد مريد نقله لاعتاص، وما أمكن إلا بمبسوط من القول، وكثير من اللفظ. ولو أراد أن يعبّر عن قول امرىء القيس:

فدع عنك نهبا صيح في حجراته

بالعربية- فضلا عن غيرها- لطال عليه..»[22].

ويقيّد ابن فارس أمارة الشعراء للغة بقوله: «فأما لحن في إعراب، أو إزالة كلمة من نهج صواب؛ فليس لهم ذلك، ولا معنى لقول من يقول: إنّ للشاعر - عند الضرورة- أن يأتي في شعره بما لا يجوز..»[23].

وقال ابن رشد: «والأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيّلة..»[24].

وقد أجمع النقاد والبلاغيون العرب على أن التعبير المجازي أبلغ من التعبير الحقيقي، وأن الكناية - ومن ضروبها الرمز - أبلغ من التصريح.

فالوضوح الذي نصف به الفكر العربي لا يعني السطحية، والتعبير المباشر، وأداء المعنى بشكل مبتذل رخيص، أو تقريره في الذهن تقريرا ساذجاً كما تقرر الأقوال العادية في لغة الخطاب اليومي؛إن الوضوح الذي هو من صفات البيان العربي ليس شيئاً من ذلك، ولكنه يعني في مفهومه العام بلوغ النص المتلقي، ووصوله إليه؛ لأن من غايات اللغة - سواء أكانت عادية أم أدبية- الاتصال والإفهام.

ولكن من طبيعة القول الأدبي أنه لا يصل بسهولة، ولا يسلم قيادة من أول سانحة؛ لأن لغته - في أصلها - شفافة كثيفة، إذ هي تستعمل فيه بشكل طريف جديد، وهي تكتسي بكثير من الظلال والإيحاءات، مما يجعل التعامل مع النص الأدبي - والشعري خاصة - تعاملاً غير ميسور للجميع، وهو يحتاج إلى غوص وتأمل، وإعمال فكر، وإيقاظ خاطر، مرفوداً ذلك كله باستعداد ثقافي، وذوق نقدي، وملكة مدربة مصقولة

إن لغة الأدب تتسم بالعمق والشفافية والصعوبة إذا قيست باللغة العادية، وإذا افتقدت هذه الشفافية، فصارت تقريرية مبتذلة، أو مطروحة سهلة؛ لم تعدّ نماذجها من الأدب الجيد المعتبر.

الغموض عند العرب:

وعلى أنه قد أثرت عن بعض النقاد العرب أقوال أشادت بالغموض في الشعر، وعدته علامة من علامات الشعر الفاخر، كقول أبي إسحاق الصابئ: «إن طريق الإحسان في منثور الكلام

يخالف طريق الإحسان في منظومه؛ لأن أفخر الترسل ما وضح معناه، وأعطاك غرضه في أول وهلة سماعه. وأفخر الشعر ما غمُض، فلم يعطه إلا بعد مماطلة منه، وغوص منه عليه»[٢٥].

ويلاحظ أن المقصود بالغموض عندما يرد في كلام النقاد العرب – وقليلاً ما يرد – ينصرف إلى أمر إيجابي، لأنه يعني عمقا في الفكر، أو غنى في لغة الشعر، وخروجها على المألوف بالمجاز والتخييل، حيث يكون المتلقي مطالبا بإدامة النظر كي يصل إلى مراده بعد طلب، مما يجعل ذلك مثيراً ممتعاً. وهذا ما عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: « إن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له، والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد. ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، والاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه؛ كان نيله أحلى، وبالميزة أولى..»[٢٦].

ومما يدل على أن الغموض عندما يُستعمل في كلام العرب إنما يراد به العمق والتأمل، وإدامة النظر؛ ما جاء في لسان العرب من قوله: « أغمض النظر: إذا أحسن النظر، أو جاء برأي جيد. وأغمض في الرأي: أصاب. ومسألةٌ غامضة: فيها رأيٌ ودقة»[٢٧].

فالغموض عندما يردُ في كلام بعض النقّاد العرب على أنه ميزةٌ للشعر – وهو قليل الورود على أية حال – لا يعني انغلاق الكلام على القارئ، أو عدم وصوله، أو تعميته وإلغازه، ولكنه يعني شيئاً من طبيعة الشعر؛ وهو عمق المعاني وإيجازها، واستعمال لغة التخييل والمجاز، والابتعاد عن التسطيح والمباشرة، مما يُحوجُ إلى إلطاف نظرٍ حتى يُفهم، ولكنه يُفهم ولا يعمى، ولا ينبهم، أو لا يعطيك ما لا قيمة له كما يقول عبد القاهر الجرجاني.

وهذا ما وضّحه ابن أبي الحديد وهو يبيّن المقصود بعبارة الصابئ: «أفخر الشعر ما غمُض» إذ قال: «إن مفهوم الغموض الذي تردد فيه ابن الأثير يعني أن طبيعة الشعر قائمة على الإيجاز، ولكثرة المعاني احتيج بالضرورة إلى أن يكون الشعر يتضمن ضروبا من الإشارة، وأنواعا من الإيماءات والتشبيهات، فكان فيه غموض..»[٢٨].

إنه إذن غموض- إذا شئنا استعمال هذا المصطلح- يفضي إلى الإفهام والوصول بعد شيء من التأمل والطلب، ولكنه يكون مستهجنا مذموما إذا لم يُفْضِ التأمل في الكلام إلى شيء ذي بال، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في تعليقه على بعض شعر أبي تمّام: «إن صنيع أبي تمام في أبياته هذه سوف يستفرغ جُهد الناقد، ويُحوجه إلى إدامة النظر، وإطالة الفكر فيها، والاحتيال في سبيل تصويبه، ولكنه لا يعطيك مقابل ذلك..»[٢٩].

وانتقد ابن الأثير قبول «أفخر الشعر أغمضه» من غير أن يقيّد هذا الغموض بوجود قرائن في الكلام توضّحه، فقال: «وقران الشيء بما يزيل الغموض أو الإشكال الواقع فيه يكون بأن يُتبع الشيءُ بما يكون شرحا له أو تفسيرا من جهة ما يكون في معناه. ويجب أيضا على الشاعر فيما يمكنه أن يبين عنه حقّ الإبانة أن يقرن ذلك دلالته في معنى دلالته أو من جهة ما يناسبه ويشابهه، ويكون بأشياء خارجة عن معنى الشيء، إلا أن فيها دلالات على إبانة ما انبهم في الأشياء المقترنة

بهذا المعنى بما يناسب ويقرب منه من المعاني الجلية، ليكون في ذلك دليل على ما انبهم من ذلك المعنى؛ إذ قد يستدلّ على المعنى بما يجاوره من المعاني، وينبّه بعضها على بعض.»[٢٠].

وفي جميع الأحوال فإن ظاهرة الغموض بقيت -بشكل عام- أقرب إلى معنى التعقيد، واقترنت به، وظلت من الظواهر السلبية في الكلام، وهي غير شائعة في كلام الأدباء والشعراء، وهي عرضية قليلة حتى في شعر من وجدت عندهم، كأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء، وتمثلتها - بشكل أوسع- بعض الطوائف، كالصوفية والباطنية، لأغراض مذهبية وسياسية أكثر مما كان ذلك لأغراض فنية.

ومن ثمّ، إذا أردنا - ونحن نتحدّث عن الشعر- أن نبقى في إطار هذا المصطلح؛ فإنه ينبغي أن نميّز في الغموض بين نوعين:غموض طبيعي، و هو من طبيعة لغة الشعر القائمة على المجاز والتخييل، والخروج على اللغة العادية، بما فيها من عدول أو انزياح أسلوبي، إنها لغة تقوم على التكثيف والإيجاز، وعلى الرمز والإيحاء، ولذلك فهي -بطبيعتها - أغمض وأصعب من اللغة العادية.

ولكن الغموض هاهنا يتبدد بالتأمل في النص، وتدقيق النظر فيه، فيؤول ما فيه إلى انكشاف ووضوح، وإلى تواصل وافهام، وهذا اللون من الغموض هو ما أشار إليه بعض نقادنا القدماء، وهو عندئذ - بهذه الإيجابية - لا يعني الانقطاع، ولا يتنافى مع الوضوح الفني.

وهذا اللون من الغموض - إذا ما شئنا ألا ننازع في استعمال هذا الوصف - كان دائما موجوداً في الشعر العربي، وكان هذا الشعر مع ذلك واصلاً بالغاً إلا في استثناءات قليلة عند بعض الشعراء ووقف منها النقاد موقف انتقاص واستهجان.

وأما الغموض الآخر فهو الغموض السلبي، الذي لا تبدده القراءة، ولا يوصلك إلى دلالته إعادة النظر فيه؛لأنه قائم في الأصل على عدم وضوح العلاقات بين عناصر الصور الفنية، أو على المبالغة في تفتيت المجاز وطمس علاقاته البيانية، أو على سوء استعمال اللغة، أو على عدم الدقة في استعمالها، أو على عدم وضوح الفكرة، ونضج التجربة. إنه ناتج عن الغلو في الانزياحات الأسلوبية غلواً يقطع الصلة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى المجازي الجديد الذي تستعمل فيه، حتى تفقد لغة النص قدرتها على الإيصال، وتبدو عالما مغلقاً لا يفهمه الشاعر نفسه.

وقد يكون أولى بمثل هذا الضرب من الغموض السلبي أن يسمى « إبهاماً»، إذ الإبهام في لغة العرب، هو الإغلاق وعدم الانكشاف.

جاء في لسان العرب «طريق مبهم إذا كان خفيا لا يستبين، واستبهم عليهم الأمر: لم يدروا كيف يأتون به، واستبهم عليهم الأمر: أي استغلق وأمر مبهم. لا مأتى له. وكلام مبهم لا يُعرف له وجه يؤتى منه، وإبهام الأمر: أن يشتبه فلا يعرف وجهه»[٢١].

الغموض في شعر الحداثة:

إنّ الذي لا يخفى على أحد هو أن الغموض سمة كبرى من سمات الشعر الحداثيّ اليوم، ولكن أغلب ضروب الغموض السائدة في هذا الشعر هي من النوع السلبي الذي أشرنا إليه، إنه من غموض الإبهام، ولذلك انقطعت الصلة بين كثير من نماذج الشعر العربي الحديث وبين المتلقي، وأصبحت «إشكالية التوصيل » ومن أبرز الإشكاليات التي

يعاني منها هذا الشعر، فانحسرت قاعدة قرّائه، وأصبح هذا الفن العربي الأصيل يعيش في عزلة تامة أو شبه تامة عن الجمهور، وراح يشتكي من غموضه أهل الصنعة أنفسهم، لا الجمهور العادي وحده.

يقول نزار قباني معبراً عن أزمة التواصل في الشعر الحديث:

«أزمة الشعر العربي الحديث أنه أضاع عنوان الجمهور، فهو يقف في قارة والناس في قارة ثانية، وبينهم بحار من التعالي والصلافة، وعقد العظمة، وبدلا من أن تكون ثقافة الشاعر وسيلة للتفاهم والاقتراب، أصبحت قلعة من الغرور لا يدخلها أحد.. لماذا يعيد موزع البريد قصائد أكثر شعرائنا إليهم؟ لأنهم نسوا عنوان الشعب أو تناسوه»[32]

ويشبه نزار بعض قصائد الشعر الحداثي بالكيمياء، ويقول:

نرفض الشعر كيمياءً وسحرا

قتلتنا القصيدة الكيمياءُ

نرفض الشعر عتمة ورموزا

كيف تستطيع أن ترى الظلماءُ

والغموض شعارٌ رفعه شعراء الحداثة، وجعلوه معلما بارزا من معالم شعرهم، فشعر الوضوح عندهم تافه لا قيمة له. يقول أدونيس:

حَيْثُ الغُمُوضُ أَنْ تَحْيَا

حَيْثُ الوُضُوحُ أَنْ تَمُوتْ[33]

ويقول محمود درويش:

لَنْ تَفْهَمُونِي دُونَ مُعْجِزَةٍ

لأَنَّ لُغَاتِكُمْ مَفْهُومَةٌ

إِنَّ الوُضُوحَ جَرِيمَةٌ[34]

ويقول كذلك:

طُوبَى لِشَيْءٍ غَامِضٍ

طُوبَى لِشَيْءٍ لَمْ يَصِلْ[35]

ولعل درويشاً قد تخلى عن مبادئه القديمة بعد أن ركب موجة الحداثة إذ كان يقول:

قصائدنا بلا لون

بلا طعم بلا صوت

إذا لم تحمل المصباح

من بيت إلى بيت

إذا لم يفهم البسطا معانيها

فأولى أن نذريها

ونخلد نحن للصمت

وإذ كان يقول:

أجمل الأشعار ما يحفظه عن ظهر قلبْ

كل قارئْ

فإذا لم يشرب الناسُ أناشيدك شُرْبْ

قل: أنا وحدي خاطئْ

وإذ كان يقول:

لو كانت هذي الأشعارْ

إزميلا في قبضة كادحْ

قنبلة في كف مكافحْ

لو كانت هذي الأشعارْ

لو كانت هذي الكلمات

محراثاً بين يدي فلاح

وقميصاً أو باباً أو مفتاح

لو كانت هذي الكلماتْ[36]

أسباب الغموض:

إن هذا الغموض الذي يُرفع اليوم شعاره في أدبنا العربيّ الحديث هو ثقافة غير أصيلة كما عرفت؛ إنه مستورد غربيّ، وقد نبتت نابتته في الثقافة الغربية.

يتحدّث ألبير ليونار عن أزمة الشعر الحديث في فرنسا، وهي أزمة كان الغموض أحد أسبابها، إذ انقطعت صلته بالمتلقي، وفقد الشعراء قراءهم؛ لأن هؤلاء الشعراء لم يعودوا معبّرين عنهم كما كانوا. يقول: «لقد ظلّ الشعر إجمالا في متناول جمهور واسع -إلى حدّ كاف- حتى عام ١٩١٤، غير أننا سرعان ما شهدنا هوة تتسع بين هذا الجمهور وبينه، وأخذ اجتيازها يزداد صعوبة. ولقد أخذ الشعراء يكثرون في الوقت الذي فقد فيه الشعر قراءه الذين رفضوا أن يلعبوا لعبة التفسير؛ لأنهم كانوا معتادين على رؤية الشعراء وهم يعبّرون عن مشاعر نبيلة وشاملة، وفي متناول الجميع، وبأجمل ما يكون الوضوح... وهذا معناه أن حاجز اللغة، وما يستجرّه معه بالضرورة: كالبيان، والنزعة الباطنية، والتعمية، والنزعة الباروكية، وتفكيك اللغة، هي عوائق كبرى أمام انتشار الأعمال وفهمها..»[٣٧].

ولقد كان وراء هذا الغموض الذي عمّ الأدب عوامل سياسية واجتماعية ونفسية كثيرة:منها انهيار الثوابت، وانعدام اليقين، وإحساس الغربي بعبثية الحياة، ولا غائية الكون، والتشكيك في كل شيء.

إنّ أدباء غربيين عرفوا بالغموض من أمثال: صاموئيل بيكت، ويوجين أونيسكو وأمثالهما، إنما كانوا يبلورون موقف الإنسان المعاصر الذي فقد كلّ تفسير محتمل لغموض الكون حوله، ولم يعثر على قانون أخلاقيّ شامل يخلصه من العبث المحيط به من كلّ جانب..»[٣٨].

يقول جون فليتشر: «وجب على الإنسان الحديث أن يحيا في انعدام وجود نظام في السياسة والمجتمع والعلم... إذ إن عصر التحليل الراهن يضع المناهج المتكاملة موضع الشك. وإن رفض الوصول إلى نتيجة- كما كان سيدعو فلوبير هذا الوضع- قاد إلى اتهامات بالغموض والجفاف والمرض، بل حتى الاتهام بالخلاعة.. ولا بدّ أن يبدو غامضا حينما لا يكون العصر مسوّغا للنظام والوضوح..»[٣٩].

ولقد وصل الشك إلى اللغة نفسها، وإلى العلاقة بين الدال والمدلول فيها، كما نجد عند التفكيكيين، حتى بدا - كما يقول تيري ايغلتون: «وكأن التاريخ قد أضاع الاتجاه، وارتد إلى الفوضى والتشوش»[٤٠].

وقد قادت مذاهب غربية كثيرة موجة الغموض كالرمزية، والدادية، والسوريالية ومدارس العبث واللامعقول وغيرها. ومثلت السوريالية خاصة في الأدب الحديث مشكلة الغموض في أجلى صورة؛ فهي أدب يهدف إلى الهرب من الواقع، ونسج عالم يعوض - في زعمهم - عن نقص العالم الواقعي. وشعر هؤلاء القوم هو شعر الهواجس، وأضغاث الأحلام، والهلوسات الصادرة عن اختلال الحواس بسبب الانكفاء على العقل الباطن. وهي هلوسة لا يضبطها ضابط، ولا تخضع لمنطق؛ لأن المنطق والعقل والضبط أعداء السوريالية، وهي ما قامت إلا لتحطيمها. إن الكلمات عند هؤلاء القوم تفقد معانيها ومضامينها المألوفة؛ إذ تنفصل عن العالم

الذي نشأت فيه، وتسبح في عالم زئبقي رجراج لا يُمسك منه بشيء.

وقد تبنى حداثيون عربٌ هذه المفاهيم الغربية، وراحوا يسوغون الغموض الذي غرق فيه شعرهم بهذه المسوغات الغربية نفسها: عبثية الحياة، وسيادة الفوضى، وانعدام المنطق والوضوح وأحكام العقل، وأن العصر عصر شك، لا ثوابت فيه، ولا حقائق مطلقة، كل شيء أصبح في دائرة الاتهام والمراجعة والارتياب.

يقول أدونيس مسوغاً الغموض: كان الشاعر العربي القديم يعيش في عالم واضح منظم، كل شيء فيه مفسر محدد، بدءاً من كيفية غسل اليدين والقدمين، وانتهاء بما سيحدث للإنسان في الآخرة. وكان هذا العالم يقوم على حقائق مطلقة نهائية، وعلى إيمان راسخ بها.. هكذا كان عالم الشاعر العربي القديم منظماً ويقينياً، وكان نتاجه صورة للنظام واليقين. لكن التطورات التي حدثت - منذ ذلك الوقت حتى اليوم - زلزلت في وعي الشاعر العربي الحديث صورة عالمه القديم، وزلزلت أفكاره وطرق تعبيره. لم تعد هنالك حقائق مطلقة، ولا أشكال ثابتة.

إن ما يقوله أدونيس و أمثاله من الحداثيين العرب هو تعبير عن أزمة مجتمع غربي لا مجتمع عربي مسلم، فلمجتمعنا ثوابته وقيمه اليقينية الراسخة، وهو لا يعرف حالة الشك والعبث واللامعقول، بل يصطنعها في أدبه اصطناعاً أولئك المتغربون من أدبائه، المقلدون لأدب الآخر وثقافته.

وإذا ما افترضنا - جدلاً - أن الحياة المعاصرة قد تعقدت، وانبهمت فيها القضايا والأمور؛ فإن وظيفة الكاتب الأصيل أن يضيء شمعة في هذا النفق المظلم، لا أن يزيده ظلاماً وعمى، وأن يعين المتلقي على فهم هذه الحياة، وتعرف أسرارها بوعي وبصيرة، لكي يستطيع أن يحيا على سطحها بطمأنينة أكثر.

إن أدب اليوم الذي أسرف على نفسه في الهروب إلى الرموز والأساطير، قد عمّى على بصيرة المتلقي، وملأ عقله بالغموض والطلاسم، وطمس أمامه أي بصيص ضوء يلوح هنا أو هناك، بحجة تعقد الحياة ولا معقوليتها.

إن كل أدب هو انتقاء، هو إعادة صياغة للأشياء صياغة جديدة خاصة، وإن الأديب الأصيل الجدير بحمل رسالة القلم، ليحرص في هذا الانتقاء على ما فيه الخير والصلاح، على ما يحمل الطمأنينة للإنسان، وهو إذ يتفيا هذه الرسالة النبيلة لابد أن يكون قادرا على بلوغ المتلقي، بأسلوب فني مؤثر، تستعمل فيه أرقى تقانات التعبير الأدبي، من غير أن ينحجب عنه، أو تكون بينهما أستار من العتمة، أن تصل إليه ثمرة ما يقرؤه، وإن كلّفه ذلك جهداً، أو غاص وراءه كما يغوص السبّاح وراء درة نفيسة كما يقول عبد القاهر الجرجاني.

إشكالية التواصل واحتقار المتلقي:

بسبب الغموض السلبي الذي فشت فاشيته في كثير من نماذج الشعر العربيّ الحديث؛ بدا ثمة جدار صفيق ينشأ بينه وبين الجمهور العربيّ، وانحسرت قاعدة قرائه حتى بين الخاصّة أنفسهم. أصبح هذا الجنس الأدبي الرفيع - ديوانُ العرب- يعيش في عزلة تامّة أو شبه تامة. وعمت الشكوى منه وطمّت، ولكن أصحاب الحداثة مضوا يحملون القارئ العربي مسؤولية العجز عن فهم إنتاجهم؛

فالجماهير العربية عند أدونيس لا تفهم هذا الشعر الحديث لأنها أمية، وغير ثورية[41]؛ وهو يفتخر بأن من سمات هذا الحديث ذلك التنافر بين الشاعر والقارئ[42].

ولكي تسوغ الحداثة عجزها عن الوصول إلى المتلقي العربي، أو لإيمانها الفعلي بغباء هذا المتلقي وعدم ثوريته؛ مضت تستهين به، وتحتقر ذوقه الفني، حتى بلغ الأمر أن قال قائل منهم: « لسنا طالبي حداثة، وإنما نحن حديثيون.لهذا لا يمكننا التراجع، أو التساهل، أو المساومة. الغموض؟ فليكن، وليكن الهذيان والجنون[43]».

وراح الشاعر الحديث -بتعبير أحد الدارسين- يتعالى على المتلقي، وينفيه «من معادلة العمل الفني، ليصير النتاج الشعري نتاجاً في ذاته ولذاته. لا وجود للآخر. الأنا وحدها هي الموجودة، هي العالم..»[44].

وبدا هذا التعالي وهذا النفي مقصودين، معموداً إليهما عمداً؛ إذ راح بعض الحداثيين «يتطيرون من أي تواصل، حدث أو يحدث، بين الشعر والقراء والقضية، ويريدون لهذا التواصل -شبه المقطوع- أن لا يعود أبداً، حفاظاً على نقاء الشعر ونظافته، أي عدم تلوثه بما يجري على الأرض. فلكي نظل في الشعر - كما يقول أحدهم- لا مفرّ للشاعر، ولشعره تحديداً، أن يظلّ خارج العلاقات الاجتماعية، خارج الصراع، وبدون موقف..»[45].

وهو كلام يجرّد الشعر من أية وظيفة اجتماعية أو إنسانية ، ويقطع صلته بالجمهور .وعلى أن انعدام التواصل بين الشعر الحديث والمتلقي العربي، الذي يحتج أصحاب الحداثة- في غمرة الدفاع عن قضية خاسرة- بقزامته وجهله، لم تقتصر على المتلقي العادي، بل عمّت المتلقين المتخصصين، من نقاد وأدباء.

يقول عبد القادر القط وهو- رحمه الله، أستاذ جامعي، وناقد كبير-:« أعتقد أن التيار الجديد الذي يطلقون عليه مصطلح « الحداثة» سينحسر؛ ذلك أن الشعراء سيدركون أن صلتهم بالمتلقي توشك أن تنقطع تماما..»[46].

وتمتد هذه الشكوى إلى بعض من رموز الحداثة أنفسهم، ممن أوتوا شجاعة الاعتراف. يقول بلند الحيدري متحدّثا عن أدونيس:« أنا لا أفهم أدونيس، وهو أقرب أصدقائي، وأصدق أصدقائي. أعرف كل دخائل حياة أدونيس، لكن ما عدت أفهم قصيدته. يجب أن نجد العلاقة التي تؤكد عدم الانفصال ما بين المتلقي وبين المبدع..» ثمّ يقول عن أدونيس: «يعتزّ بأن الآخر لا يفهمها- أي قصيدته- ويلذّ بأن هذا الآخر ربما جاهل، أو قاصر عن استيعاب تجربته..»[47].

ويقول بلند الحيدري عن أدونيس في موضع آخر: « مهّد أدونيس لهذا الاغتراب، فصار المرء لا يعرف ماذا يريد الشاعر أن يقول؟»[48].

وهكذا قطع الغموض المقيت - الذي دعت إليه الحداثة، وأسرفت فيه- الأدب عن أداء رسالته؛ إذ تحوّل إلى طلاسم، بل آل - على حدّ تعبير أحد الحداثيين أنفسهم- « إلى هلوسات لا تعرف لها رأسا من ذيل، ولا ذيلا من رأس؛ لأنها بكلّ بساطة لا ذيل لها ولا رأس..»[49].

وانقطع التواصل بينه وبين المتلقي العربي، عاشق الشعر الأول، إذا راح الشاعر الحديث يكتب - في أغلب الأحيان- لنفسه، لا لأداء رسالة، أو التعبير عن قضية، إذ «لا وظيفة للإبداع إلا

الإبداع»[٥٠] كما يقول أدونيس، والقصيدة «ليس لها هاجس سوى وجودها الذاتي»[٥١]، كما يقول جابر عصفور، والأدب «عملية إبداع جمالي من منشئه، وهو عملية تذوق جمالي من المتلقي، وهدفه ليس نفعياً بل جمالياً»[٥٢] كما يقول عبد الله الغذامي.

ونفي المتلقي من الحسبان، ونسب إلى العجز والجهل والأمية، مهما كان موقعه الثقافي: ناقداً، أو أستاذاً جامعياً، أو أديباً، أو شاعراً؛ فهؤلاء جميعاً جهلة أقزام ما عجزوا عن الولوج إلى عالم الشاعر الحديث..

إن الغموض السلبي هو مثلبة في الأدب، وهو علامة ضعف وانحطاط، ومبدعو مثل هذا الأدب هم قوم عاجزون، لا يمتلكون ناصية الأدوات الفنية التي تجعل تجربتهم الفنية تصل إلى الآخرين.

مسؤولية الشاعر:

١. إن الملاحظ أن الشاعر العربي الحداثي الغارق في تقليد فكر غربي، والناسج على منوال نظرة وجودية تبدو رؤيته للعالم غير واضحة، رؤية يشوبها الشك وعدم اليقين؛ لأنها لم تعد تحتكم إلى بعض الثوابت واليقينيات التي تنطلق من عقيدتنا وقيمنا، ومن ثم يقدم لنا رؤية ضبابية غامضة لا وضوح فيها ولا استقرار.

وهذا ما عبر عنه أحد الباحثين بقوله في مواطن الموازنة بين الشاعر الحداثي ومن سماه الشاعر التقليدي «الكلاسيكي» الذي يرجع إلى الموقف الفكري الفلسفي لكل منهما من الكون والإنسان والعالم والوجود. يقول:

«الشاعر الأول - أي التقليدي - يمتلك عقيدة واضحة محددة كاملة وناجزة، في وسعها أن تقدم الإجابات الجاهزة عن كل ما يخطر في بال الشاعر من أسئلة، وتقدم له الحلول الحاسمة لكل ما يعترض حياته من مشاكل وقضايا، أما شاعر الحداثة فإنه يفتقد إلى هذا الموقف الثابت، ولا يفتأ ينظر إلى العالم على أنه موضوع مثير للدهشة الدائمة وللأسئلة المتواصلة، لذلك فهو يصدر دوماً في أعماله عن القلق الوجودي الذي يقابل اليقين العقائدي عند الشاعر التقليدي. ولا بد هنا من التأكيد على أن توصيفنا هذا للشاعر التقليدي لا يقتصر أبداً على من يتمسكون بالدين، أو بالعادات والتقاليد الراسخة والموروثة فحسب، بل يشمل أيضاً كل أصحاب اليقين العقائدي من حملة الأيديولوجيات الحديثة...»[٥٣].

وينبني على ذلك أن الشاعر الحداثي - بحكم اغترافه من رؤية الشك والضياع وعدم الإيمان - يقدم تجربة منسجمة مع هذه الرؤية، أي تجربة غارقة في الغموض والضبابية والسراب.

وحتى لا نحمل الشعر والشعراء وحدهم مسؤولية ما وصلت إليه حالة التواصل بينهم وبين المتلقي من تقلص أو ضعف، نشير إلى مجموعة من العوامل التي يتحمل مسؤوليتها المتلقي من ناحية، والوضع الثقافي من ناحية أخرى. ويمكن في شيء من البسيط - الإشارة إلى أبرزها من خلال النقاط التالية:

مسؤولية المتلقي:

أ. عدم أهلية المتلقي أحيانا للتعامل مع الشعر الذي هو بطبيعته ذو لغة غير عادية، لغة تقوم على التخييل والمجاز، والانزياح عن الاستعمالات العادية. الشعر ذو لغة كثيفة موجزة، وهو- من ثم- أكثر غموضاً من لغة الكلام العادي، أو

الكلام الأدبي النثري بأجناسه المختلفة. وإذا لم يكن لدى المتلقي ثقافية عالية قصر عن التواصل مع الشعر وفهمه.

ب. عدم أهلية المتلقي للتعامل مع الشعر الحديث بشكل خاص، هذا الشعر الذي يستعمل تقانات وأشكالاً فنية جديدة لا عهد لمتلق تربى ذوقه على الشعر القديم بها، ومن هنا تقع الجفوة بين الشاعر والمتلقي ويكون مثل هذا الشعر الحديث بها مواكبة التطورات التي حصلت للشعر.

ج- تردي الذائقة الشعرية العامة، بسبب تردي المستوى الثقافي والتعليمي، بحيث أصبحت أغلب الجامعات العربية تخرج- حتى في كليات آدابها، وأقسام اللغة العربية فيها- أنصاف متعلمين، لا يكاد كثير منهم يحسن قراءة الشعر، بله فهمه وتذوقه والتعامل معه.

مسؤولية وضع ثقافي قائم:

١. الانبهار بالآخر الغربي: في ظل وضع عربي متردد: سياسياً واقتصادياً، وثقافياً، ومن ثم تقليد هذا الآخر في بدعه وشذوذه، وفي إغرابه وغرامه بمخالفة الأعراف، وفي اصطناع مشكلاته وقضاياه، مما غرب الكثير من نماذج الشعر العربي الحداثي، وأبعده عن ذوق المتلقي العربي وفهمه والإحساس به.

٢. تقليد كثير من الشعراء الحداثيين العرب الشعر الغربي في أشكاله الفنية، وفي رموزه وأساطيره، وفي معانيه وأفكاره، مما هو بعيد كل البعد عن ذائقة هذه الأمة وقيمها، لذلك فإن أغلب الجمهور العربي لم يعد يجد نفسه في هذا الشعر، لم يجد همه أو شجنه، أصبح يحس أن هنالك هوة عميقة تفصل بينه وبين الشعر.

٣. غلبة العجمة والعامية على ألسنة الناس في هذا العصر، بسبب طغيان العاميات واللغات الأجنبية، وتراجع اللغة الفصيحة حتى في كثير من الأجهزة الثقافية والإعلامية، مما جعل فهم الشعر - الذي هو أعقد شكل من أشكال الاستعمال اللغوي - صعب الفهم عند طائفة كثيرة من الناس، بله الحداثي منه بشكل خاص.

وقد يكون من جملة المؤشرات على إحساس الجمهور بصعوبة الشعر الفصيح- في ظلّ هذا الوضع الثقافيّ الذي نتحدّث عنه- ما نجده من احتفاء هذا الجمهور بالشعر العامي الذي يجده أقدر على الإيصال، وأبعد عن الغموض والتعقيد.

والواقع أن انغلاق الشعر على المتلقي- بسبب ضعف ذائقته اللغوية- شيء قديم؛ فهذا حازم القرطاجني- على سبيل المثال- يعيد زهد الناس في الشعر في زمانه إلى هذا العامل. يقول: «وإنما هان الشعر على الناس هذا الهوان لعجمة ألسنتهم، واختلال طباعهم، فغابت عنهم أسرار الكلام، وبدائعه المحرّكة جملة..»[٥١].

الحواشي

١. انظر الموشح للمرزباني: ص٨٤
٢. الموازنة: ١/ ٢١
٣. انظر كتابنا: قضية عمود الشعر في النقد العربي: الصفحات: ١٥٤، ١٧٩، ٢١٠
٤. انظر الإتقان في علو القرآن للسيوطي: ١٠١٤
٥. انظر «من روائع القرآن» لمحمد سعيد رمضان البوطي: ١١٤

٦. الصناعتين، لأبي هلال العسكري: ص٥٨
٧. الصناعتين: ص٥٢
٨. العمدة:١/ ٢٤
٩. البيان والتبيين: ١/١٢٦ – ١٢٨
١٠. طبقات الشعراء، ابن المعتز: ص٣٧٦
١١. الصناعتين، لأبي هلال العسكري:٢٩
١٢. النظام: ١/ ٢٤٤
١٣. يتيمة الدهر : ١/ ١٧١-١٧٢
١٤. جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب: ٢٧٠
١٥. انظر«جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب» لأبي بكر الشنتريني: ٢٩٦
١٦. السابق: ٢٨٣
١٧. طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتزّ: ٢٩
١٨. الأغاني: ٧/ ٢٤٨
١٩. الحيوان: ٣/ ١٢١
٢٠. فن الشعر «من كتاب الشفاء» ١٦١
٢١. منهاج البلغاء، لحازم القرطاجني: ص١٤٢
٢٢. الصاحبي:١٨
٢٣. الصاحبي: ٤٦٨
٢٤. تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر: ٥٧
٢٥. المثل السائر:٢/ ٤١٤
٢٦. دلائل الإعجاز: ١١٨
٢٧. اللسان «غمض»
٢٨. الفلك الدائر: ٢٨١
٢٩. أسرار البلاغة: ١٤٢ – ١٤٣
٣٠. المثل السائر: ١٨٣
٣١. اللسان «بهم»
٣٢. ما الشعر؟ لنزار قباني: ٤٦ – ٤٨
٣٣. ديوانه.
٣٤. ديوانه، محاولة رقم٧، ص٤٨١
٣٥. السابق: ٥٠٦
٣٦. ديوانه «أعماله الكاملة» ٥٦
٣٧. أزمة مفهوم الشعر في فرنسا في القرن العشرين، ترجمة زياد عودة ،دمشق: ٢٠٠١، ص١١٤
٣٨. انظر «معالم الأدب العالمي المعاصر» لنبيل راغب ،مكتبة مصر: ١٩٩٠، ص٩
٣٩. اتجاهات جديدة في الأدب، جون فليتشر، ترجمة نجيب المانع ،العراق: ١٩٧٤، ص٢٠٢
٤٠. نظرية الأدب، لتيري إيغلتون: ٢٥٢
٤١. انظر الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، لعبد الحميد جيدة: ٣٢
٤٢. انظر كتاب «قضايا وشهادات: الحداثة ٢» بحث محمد دكروب:
٤٣. مجلة أدب اللبنانية، العدد الأول، المجلد الثاني ،١٩٦٣، ص٦
٤٤. قضايا وشهادات: الحداثة ٢، ٢٠٨-٢٠٩
٤٥. السابق: ٢٠٩
٤٦. مجلة الناقد، العدد السادس عشر ،تشرين الأول: ١٩٨٩، ص٨٢
٤٧. لقاء معه في مجلة المنتدى الإماراتية ،العدد:١١١، أكتوبر:١٩٩٢، ص٦
٤٨. لقاء له مع جريدة الخليج الإماراتية ،العدد:٥٠١٥: ١٩٩٣،
٤٩. مجلة الناقد، العدد الرابع عشر، آب: ١٩٨٩، ص٨٢
٥٠. مجلة فصول القاهرية ،المجلد الرابع، العدد الرابع: ١٩٨٤، ص٢٠
٥١. السابق: ٤٣
٥٢. السابق: ٩٧
٥٣. انظر صحيفة الأسبوع الأدبي السورية، العدد: ١٠٥٠، مقال لنزار بريك هنيدي.
٥٤. منهاج البلغاء: ١٢٤

ثبت المصادر والمراجع

١. اتجاهات جديدة في الأدب:جون فليشر، ترجمة نجيب المانع، العراق ١٩٧٤م.

٢. الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر: عبد الحميد جيدة، مؤسسة نوفل، بيروت ١٩٨٠

٣. الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، تحقيق مصطفى البغا، دمشق ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م

٤. أزمة الشعر في فرنسا في القرن العشرين: ألبير ليونار، ترجمة زياد عودة، دمشق ٢٠٠١م

٥. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ط المراغي، مصر.

٦. الأغاني، أبو الفرج الاصبهاني، ط دار الكتب المصرية.

٧. البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

٨. تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر: ابن رشد، تحقيق محمد سالم، مصر

٩. جواهر الأدب وذخائر الشعراء والكتاب: أبو بكر الشنتريني الأندلسي، تحقيق محمد زفزاف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

١٠. الحيوان: الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٣٨م

١١. دلائل الأعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العربية، بيروت ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م

١٢. ديوان محمود درويش «الأعمال الكاملة» دار العودة بيروت ١٩٧٩

١٣. الصاحبي: ابن فارس، تحقيق السيّد صقر، القاهرة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م

١٤. الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧١

١٥. طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق عبد الستار فراج، دار المعارف، مصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م

١٦. العمدة: ابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت ١٩٧٢م

١٧. الفلك الدائر على المثل السائر: ابن أبي الحديد، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٤م

١٨. فن الشعر من كتاب الشفا «ضمن كتاب فنّ الشعر لأرسطو طاليس» تحقيق عبد الرحمن بدوي، بيروت

١٩. قضايا وشهادات «الحداثة ٢» دار عيبال، قبرص ١٩٩٠م

٢٠. قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم: وليد قصّاب، دار العلوم، الرياض ١٩٨٠م

٢١. ما الشعر؟: نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت ١٩٨٢م

٢٢. المثل السائر: ابن الأثير، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة.

٢٣. معالم الأدب العالمي: نبيل راغب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٠م

٢٤. الموازنة بين الطائيين: الآمدي، تحقيق السيد صقر، دار المعارف، مصر ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م

٢٥. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: حازم القرطاجني، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس ١٩٩٦م

٢٦. الموشح: المرزباني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر ١٩٦٥م

٢٧. نظرية الأدب: تيري إيغلتون، ترجمة ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٥م

٢٨. يتيمة الدهر: الثعالبي، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م

الصحف والمجلات:

أ. مجلة أدب: لبنان

ب. صحيفة الخليج: الإمارات العربية المتحدة

ت. مجلة فصول، مجلة النقد الأدبي: مصر

ث. مجلة المنتدى: الإمارات العربية المتحدة

ج. مجلة الناقد: لندن

(النور) في شعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه

الدكتورة قديرة سليم
الجامعة الإسلامية العالمية - كلية اللغة العربية
إسلام آباد - باكستان

مقدمة:

كلمة «النور» تستخدم رمزاً للقرآن والإسلام والهدى والثقافة وغير ذلك. أما حسّان بن ثابت فهو شاعر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وشاعر الإسلام والمسلمين، وشاعر العصرين؛ العصر الإسلامي والجاهلي، أما كلمة (النور) فإنه استخدمها في شعره مراراً، استوحاها من الآيات القرآنية التي تحمل معاني الهدى والإسلام.

إن المتمعّن لشعره، يجد فيه التنوع والتفنن من الناحية البلاغية والأدبية، التي هي جديرة بالبحث والتحقيق. ولكن قبل أن نقوم بدراسة ظاهرة (النور) في شعره رضي الله عنه، لا بد

أن نلقي الضوء على حياته بشكل مبسط ومختصر.

حياته: هو حسّان بن ثابت بن منذر بن حرام، ويكنى أبا الوليد، وأبا عبد الرحمن. كان يتردد على بلاط الغساسنة قبل الإسلام، ويمدحهم ويحصل على النوال والعطايا والجوائز منهم. أما نَسَبُهُ، فهو من بني النجار أخوال الرسول صلى الله عليه وسلم، من قبيلة الخزرج، ولمّا كانت بين الأوس والخزرج سلسلة من الحروب، كان نصيب حسّان من هذه الحروب والأحداث نصيب الشاعر العبقري المتفنن الموهوب الذي أذاب الشعر والشعر يذيبه[1]، ويدعو القول والقول يستجيب له، بحيث أنه كان لسان قومه في الحروب. ويقال: إنه عرض شعره على النابغة بسوق عكاظ، وقدّم عليه الأعشى، فأثار موجدته، وقال بل أنا أفضل منك ومنه[2].

دخل حسّان في الإسلام عندما هاجر النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة، حتى إذا أخذ شعراء قريش في هجاء الرسول

مقالات

صلى الله عليه وسلم وأصحابه انبرى لهم بلاذع هجائه[٣]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحثه على ذلك ويدعوا له بمثل: « **اللهم أيده بروح القدس**» واستمع عليه الصلاة والسلام إلى بعض هجائه لهم، فقال: « **لهذا أشد عليهم من وقع النبل**». وكان حسّان يعيّر الكفار بالمثالب ويهجوهم بالأيام التي هزموا فيها؛ وهذا طبيعي لأنهم كانوا مشركين، فلو هجاهم بالكفر والشرك ما بلغ منهم مبلغا[٤]. ويقال إنه كان ينشد الرسول صلى الله عليه وسلم شعره في المسجد، وكان يحظى عنده بمنزلة رفيعة، حتى الخلفاء الراشدون يجلونهُ ويفرضون له في العطاء. وبحق سمّيَ حسّان شاعر الإسلام وشاعر الرسول الكريم، فقد عاش يناضل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أعداءه من قريش واليهود ومشركي العرب[٥]. **وبالمجمل نقول:** إنه من المحقق أنه كان شاعراً بارعاً، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه أشعر أهل المدر في عصره، وأشعر أهل اليمن قاطبة[٦]. وقد خلّف ديواناً ضخماً غير أن كثيراً من الشعر المصنوع دخله، يقول الأصمعي: «تنسب إليه أشياء لا تصح عنه». ويقول ابن سلام: «قد حمل عليه ما لم يحمل على أحده». على الرغم من ذلك، فقد أثنى عليه كثير من النقاد، قال أبو عبيدة: «فُضّلَ حسّان على الشعراء بثلاث، كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبيّ في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام»[٧]، وقال: اجتمعت العرب على أن حسّان أشعر أهل المدر». بينما عند الأصمعي: «حسّان بن ثابت أحد فحول الشعراء، ومال عمرو بن العلاء إلى كون حسّان أشعر أهل الحضر، وقال أبو الفرج الأصفهاني: حسّان فحل من فحول الشعراء. كان حسّان يجول في جميع الأغراض الشعرية، وتصرف في سائر فنون الشعر ولم يقصّر، أما من ناحية الديباجة فديباجته ديباجة أهل عصره وأسلوبه أسلوب فحول شعراء الجاهلية والمخضرمين، بل يتفوق على أكثر معاصريه في جزالة اللفظ وفخامته ونقاء الديباجة وصفائها وكان يرتجل الشعر ارتجالا ويجود[٨].

ليس موضوعنا مكانة شعره بل الموضوع هو معالجة كلمة «النور» في شعره. فلذلك نأتي إلى الموضوع ونعالج معنى كلمة «النور».

معنى النور: استخدمت كلمة «النور» في معان مختلفة:

- **الهدى**: يقول ابن الأثير: هو من أسماء الله سبحانه وتعالى، هو الذي يبصر بنوره ويرشد بهداه ذوو الغواية.

قال الله تعالى في سورة «النور»: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ... ﴾ الآية. (النور: ٣٥). قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه هادي أهل السماوات والأرض، مثل نوره: مثل هداه في قلب المؤمن، كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار، أزداد ضوءاً، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل الهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا أتاه العلم، ازداد هدى على هدى، ونوراً على نور، وما يعلم تأويله إلا الله.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠) قال الزّجّاج معناه: من لم يهده الله للإسلام لم يهتد[٩].

- **الظهور**: قيل: النور: هو الظاهر الذي به كل

(النور) في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

الظهور، الظاهر في نفسه، المظهر لغيره يسمى نورا. نوّر الصبح: أي ظهر نوره، ويقولون: نور الصبح والليل عاتم، أي: ظهر الصبح وغاب الليل، ومنه التنوير: أي وقت إسفار الصبح، يقال: قد نوّر الصبح تنويراً، التنوير: الإسفار.

- **الضياء**: النور ضياء ضد الظلمة، وفي المحكم: النور الضوء أياً كان، قيل: هو شعاعه وسطوعه.
- **الحق**: قال الله عز وجل: (وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) (الأعراف: ١٥٧) أي: اتبعوا الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور في العيون، قال: النور هو الذي يبيّن الأشياء ويُرِي الأبصار حقيقتها. فمثل ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وسلم في القلوب في بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور [١].
- **الحسن والجمال**، يقال: الحسن المشرق اللون أنور، وهو أفعل من النور، والنور حسن النبات وطوله، نوّرت الشجرة وأنارت، أخرجت نورها، وأنار النبت وأنور، ظهر وحسن، والأنور الظاهر الحسن، قد قيل: أنورت الشجرة أي حسنت خضرتها.
- **الحدود**: هي المنار، وهو العَلَمُ ما يوضع بين الشيئين من الحدود، والعَلَمُ هي العلامة تجعل بين الحدين، والمنار: حجة الطريق، وقوله عز وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة:١٥). قيل: النور هو القرآن [١١]، أي: قد جاءكم من الله كتاب يحدد الحدود الواضحة بين الحق والباطل، هذا الكتاب هو النور؛ لأنّ هذا الكتاب هو الذي يسبب إضاءة الطريق المظلم كي يفرق الفارق بين الهدى والضلال، النور في الحقيقة يُلقى في قلب المؤمن كمصباح اجتمعت فيه أسباب الإضاءة [١٢].

«النور» في شعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

قد نرى بأن النور قد استُعمل في معنى الظهور، والهدى والضوء، والحق والحدود والحسن والجمال.. وغير ذلك في المعاجم المختلفة [١٣]، وهكذا نرى كيف أن شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم هذه الكلمة في أبياته التي كان يقرضّها مدافعا عن الإسلام والمسلمين. فهو يقول:

فأمسى سِراجاً مُسْتَنِيْرًا وهادِياً
يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيْلُ المُهنَّدُ [١٤]

قوله: فأمسى سراجاً مستنيراً: إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٦)، يعني: جعلناه صلى الله عليه وسلم في الهدى الذي يهتدى به في ظلمات الكفر والجهل مثل السراج أو الشمس الذي يستضاء به [١٥]. **مستنير**: اسم فاعل، من باب (**استفعال**) يفيد معنى الطلب، والوجدان والحسبان والتحول والاتخاذ والمبالغة.. وغير ذلك، يعني: فهو كالسراج أو الشمس الذي يستمد النور والضوء من المصدر الآخر، أي: ليس بنفسه منوراً، وهذا يعني أن النبيّ صلى الله عليه وسلم يستمد العلم والهدى والنور من الله سبحانه وتعالى، حيث أشار إليه قوله جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى﴾ (النجم:٣-٤).

إنّ الشمس مصدر الضوء، والنور التي تستفيد منه جميع الأشجار والأزهار والنبات هي الوسيلة الوحيدة للحياة في الكون، ومن دون الشمس لا ينبت النبات ولا ينمو ولا تتفتح الأزهار ولا تنضج الأثمار، هكذا من دون النبوة والرسالة تكون الحياة

الروحية والمعنوية خالية من العلم والهدى والثقافة والحضارة.

ومن جهة أخرى: إنَّ خبر كلمة أمسى واسمها ضمير راجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، والخبر يأتي للأغراض المختلفة، مثلا: الخبر الابتدائي، والطلبي والإنكاري، كما أنه يأتي للتأسف والحسرة، أو الفخر والتنبيه والنصح والإرشاد، وغير ذلك.

نرى الخبر هنا قد جاء للفخر والتباهي، بمعنى أن الشاعر يتفاخر بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويفتخر بالنبوة والرسالة التي مثلها كمثل النور في عصر الجهل والظلمة، أي: كأن الناس يتيهون في الغيّ والظلم حتى ظهر النور، ووجدوا الطريق القويم. أما التحول، فهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:آية١).

أما المبالغة، فخروج الناس من الظلمات إلى النور، بأن تستنير قلوبهم وأفكارهم وعقولهم وهذا مبالغة في التقوى، حتى كأنهم نظروا إلى العواقب بالقلوب لا بالعيون، كما ورد في الحديث الشريف: «اتقوا بصيرة المؤمن فإنه ينظروا بنور الله»[16]. قال حسّان:

وافٍ وماضٍ شهابٌ يستضاءُ به
بدرٌ أنارَ على كلِّ الأماجيد

الأماجيد : الأماجد، أي: الأشراف.

هذا البيت من قصيدة يمدح فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر[17].

استعملت كلمة «النور» في صيغة الماضي «أنار»، من باب إفعال، الذي يفيد المعاني الآتية: الابتداء- ويأتي بمعنى مختلف عن المجرد- والسلب، والصيرورة، والمبالغة، والبلوغ، والموافقة، والتمكين، وغير ذلك...

يُشَبِّهُ الشاعر في هذا البيت النبيّ صلى الله عليه وسلم بالبدر، الذي لما جاء بالنبوة والرسالة غمر بنوره الناس كافة، فسلب كبر المتكبرين والجبابرة، وصاروا مهطعين، حتى بالغوا في الطاعة، وبلغوا إلى درجة المتقين، ووافقت طباعهم ورغباتهم ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم موافقة كاملة، حتى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾. فتمكنوا في الأرض من دينهم استعدادا للآخرة، ولقوا الله سبحانه وتعالى متشوقين إليه، وفقا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴾ (الفجر:٢٧-٢٨). عن ذلك قال حسّان:

ترحّلَ عن قومٍ فضلّتْ عقولُهُمْ
وحلَّ على قومٍ بنورٍ مُجدَّدِ

في هذا البيت يمدح حسّان بن ثابت النبيّ صلى الله عليه وسلم حين ذكر هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة[18].

جاءت كلمة «نور» هنا مصدرةً بـ «الباء المصاحبة» التي تفيد معنى التعدية، أما معنى ذلك فيكون أن النبيّ صلى الله عليه وسلم غادر مكة المكرمة وحل في المدينة المنورة، وكان معه ذلك النور، وكلمة «النور» هنا استعارة للقرآن الكريم والنبوة والرسالة[19]، والحلول في مكان هو محل صدور أي فعل، إشارة هنا إلى «يثرب» التي صارت مهبط الوحي ومنزله، ومصدر العلوم ومنهلها، بعد ما أشرقت بأنوار الإسلام والقرآن

(النور) في شعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه

مقالات

بقدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى قيل عنها: المدينة المنورة، وطيبة، وطابة...

وجاءت كلمة « **نور** » نكرة تأتي بمعنى الشمول، يعني لم تُنَوِّرْ القلوب والأفكار والأذهان فقط؛ بل نوّرت تلك الأرض المقدسة التي وردت في رفعة شأنها كثير من الأحاديث النبوية الشريفة، وكفى شرفاً وفضلاً للمدينة المنورة بأن جعلها الله تعالى لنبيه وحبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حرماً آمناً[٢٠]، وجعلها الله تعالى مدخل صدق، وجعل فيها البركة أضعاف ما جعل في مكة. هي سيدة البلدان ودار الهجرة، ودار الإيمان، ومأرزه، يئس الشيطان أن يعبد فيها، حرسها الله تعالى بالملائكة الكرام، وحفظها من الزلازل والطاعون والدجال، ولجدرانها من الطيب ما لا يوجد في غيرها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «غبار المدينة شفاء من الجذام»[٢١]؛ كل ذلك بسبب النور الذي جاء به النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وقال رضي الله تعالى عنه يرثي النبيّ صلى الله عليه وسلم:

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ

طيبة: هي المدينة المنورة[٢٢]، أي: مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم، **والمعهد**: المنزل الذي لا يزال القوم إذا نأوا عنه رجعوا إليه، وقوله: « المنير » اسم الفاعل من نور من باب إفعال، وهذا الباب يفيد معنى: التعدية، والابتداء والوجدان، والسلب، والصيرورة، والمبالغة وغير ذلك...

أما **التعدية**، فهو -كما نرى- لما وصل «النور» إلى المدينة المنورة خرج عن معناه الأصلي وظهر في معان أخرى، مثلا: الأخوة والمودة والحكومة والسياسة والعدالة والتعليم والتعلم وغير ذلك.

والمبالغة: دلالة على أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بالغوا في الزهد والتقوى والورع.

والسلب: كما تزيل الشمس ظلمة الليل، هكذا زالت ظلمة الظلم بفضل هذا النور.

والوجدان: وجد الكفار والمشركون- الذين كانوا يستهزؤون بالمسلمين ويسخَرون منهم - بأن هذه الجماعة القليلة قد أنارت العالم كله بالإيمان والتقوى والحكمة.

والصيرورة: صارت يثرب بعد دخول النبيّ صلى الله عليه وسلم وبنزول الوحي من الله سبحانه وتعالى وبنور الله عز وجل المدينة المنورة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية: «المنير» اسم فاعل معرفة يشير إلى معنى الاختصاص، يعني رفعة شأن هذه البلدة وعلو قدرها، هذا فقط بسبب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفي ذكر «**المعهد المنير**» كناية عن الحضارة الإسلامية التي بدأت ملامحها وآثارها بعد خروج المسلمين من شبه الجزيرة العربية فاتحين البلدان المجاورة ومبشرين بالدين الجديد.

وقوله في رثائه صلى الله عليه وسلم[٢٣]:

بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا
مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَ يُوقَدُ

في هذا البيت يتحدث الشاعر عن رفعة شأن حجرات النبيّ صلى الله عليه وسلم، الحجرات التي كان ينزل فيها نور الله سبحانه وتعالى، النور الذي

كان المؤمنون يستنيرون به، ويضيء به أهل التقوى قلوبهم، أما الكفار والمنافقون فكانوا يستشيطون غيظاً وحسداً، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ .... ﴾ «الآية» (الفتح:٢٩).

كلمة «**نور**» هنا استعارة للقرآن الكريم والوحي المنزل من الله سبحانه وتعالى ونوره مصدر يفيد معنى تسلسل الوحي، وأيضا نكرة تفيد معنى الشمول والجماعة، يعنى هذه الشريعة الغراء ليست محددة لطائفة خاصة أو لا تعالج جانباً واحداً من القضايا الإنسانية؛ بل تتناول جميع جوانب الحياة الدنيا والآخرة؛ لأن «**النور**» مُرَكَّب من سبعة ألوان:

اللون الأخضر: هو رمز لشهادة الكلمة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة قد مثلت في القرآن الكريم بالشجرة الطيبة، الشجرة الطيبة تكون مخضرة، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤).

اللون الأزرق: هذا اللون رمز للصلاة الركن الثاني لهذا الدين الحنيف، وهي معراج المؤمنين، والمؤمن حين صلاته يتجاوز هذه السماء ويحاور الله سبحانه وتعالى حتى كأنه يراه، وهذه درجة الإحسان.

اللون البرتقالي: هذا اللون رمز للنمو المالي والتوفير الاقتصادي، وإشارة إلى الزكاة التي هي الركن الثالث لدين الإسلام، تؤدي الصدقة والزكاة إلى النمو والكثرة في الدنيا والآخرة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ... ﴾ الآية» (البقرة:٢٦١).

اللون الأصفر: هذا اللون يجمع بين القلة والكثرة، والشدة والرخاء، يتذوق فيه الصائم مرارة الشدة من الجوع والعطش، يتبعها حلاوة الإيمان والتقوى والعرفان والمعرفة. كما في الحديث القدسي الشريف: «الصوم لي وأنا أجزي به»[21].

اللون الأبيض: هو يقر العين ويبهج القلب، وهو قدر من اليأس والشدة، فالناظر إليه يلاحظ فيه علامات التآخي والتآلف، وهو رمز للحج الجامع لجميع العبادات.

اللون الأحمر: هذا اللون هو لون الأزهار والورود يعنى علامة الحب الشديد، هنا رمز لدم الشهداء الذين يظهرون الحب الشديد لله ولرسوله عند استشهادهم لإعلاء كلمة الله.

اللون البنفسجي: هذا اللون يجتذب أنظار الناظرين إليه، ويسر الناظرين حتى يتسرب إلى القلوب ويُنَقّي الأذهان، وهو رمز للمعاملات والسلوك والأخلاقيات. هكذا تكتمل المعاني التي يخرج إليها «النور» والتي تؤدي المعنى المطلوب.

وأيضا يقول حسّان:

تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الوَحْيِ عَنْهُمْ
وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَ يُنْجِدُ

غار، يغور، ويغير: يبلغ الغور، وهو المنخفض من الأرض، وينجد: يبلغ النجد وهو المرتفع من الأرض، والمراد يعم جميع الأمكنة، ومثله قول الأعشى:

(النور) في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

نبيٌ يرى ما لا ترونَ وذكرُهُ

أغارَ لعمري في البلادِ وأنجَدَا

يتحسر الشاعر على وصال النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعلى حرمان أهل البلد من النعمة العظيمة، وهي الوحي الذي كان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم متتابعا.

ويُشَبِّهُ الشاعر الوحي بالنور[٢٥] الذي ينوّر الأغوار والأنجاد، يعني كان من الاتساع ما يشمل نجداً واليمن وصولاً إلى العراق وخراسان. يستخدم الشاعر كلمة «النور» نكرة مقترنة بـ «ذا» أحد الأسماء الستة ، وهذا يعني ليس الوحي شيئاً حسياً أو مرئيا، بل هو يُسْتَشْعَرُ ويلقى في القلب. ووصول «النور» إلى الأغوار والأنجاد هو رمز للأخوة والمساواة، والاتحاد بين الأمة الإسلامية، ونفيٌ للفرق بين العرب والعجم، والأسود والأحمر إلا بالتقوى. كما هو إشارة إلى تحلّي المؤمن بحلية الأخلاق الحسنة وتنوير قلبه بالإيمان والتقوى والمعرفة والعرفان.

وقوله أيضا يرثي النبيّ صلى الله عليه وسلم:

فَبَيْنَاهُمُ في ذَلِكَ النُّورِ إذْ غَدَا

إلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصَدُ

قوله: **مُقْصَدُ**: أي مصيب، مِنْ: «أقصَدَ السهمُ: أي أصاب فقتل مكانه، قال الأخطل:

فإن كنت قد أقصدتني إذ رميتني

بسهميك فالرامي يصيد ولا يدرى

في هذا البيت يصور حسّان بن ثابت رضي الله عنه أمامنا صورتين:

الصورة الأولى: تلك البقعة المباركة المعطرة بنزول الوحي والملائكة المقربين، التي كان أصحاب الرسول صلى لله عليه وسلم يتنفسون ويتذوقون فيها حلاوة الإيمان، وتلك السكينة التي كانت تنزل عليهم عند التلاوة والعبادة، وتلك البهجة والسرور التي كانوا يجدونها عند الرسول صلى الله عليه وسلم.

والصورة الثانية: شدة ألم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وكيفية اضطرارهم حين وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم، باستخدام «إذ» الفجائية كما يضطرب ويصيح طفل صغير عند انقطاع الكهربا في فصل الصيف متخوفا من الظلمة، ومتألما من شدة الحر. كرر شاعرنا «النور» مرتين، مرة بلام التعريف ومرة معرفة بالإضافة إلى أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وكلاهما خبران، فالخبر الأول إظهار التفاخر والتنافس، بينما الخبر الثاني للتأسف والتحسر.

وقال أيضا يرثي النبي صلى الله عليه وسلم:

نُوراً أضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا

مَنْ يُهْدَ لِلنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِي

لهذا البيت علاقة بالبيت السابق:

يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ بِكْرُهَا

وَلَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

يعنى ولدت أمه آمنة المحصنة نوراً. ففي هذا البيت يشبه الشاعر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالنور الذي أضاء على البرية كلها، كما روى ابن سعد أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: «لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور

الشام»[٢٦]، وروى أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك.

يعني سبب وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم المبارك إزالة الجهل والظلم والعدوان، ووجوده السعيد مثل السراج المنير، فمن اهتدى بنوره فقد فاز ونال ما يتمناه.

«**النور**» الأول نكرة يفيد معنى الشمولية العموم، وهذا يعني أن شخصية النبيّ صلى الله عليه وسلم كالمصباح الذي يستضاء به، وأيضا «**نوراً**» كلمة منصوبة تفيد معنى الثبات والاستقرار والارتفاع، يعني كأن النبي صلى الله عليه وسلم مصباح على رأس جبل، يُنْظَرُ ويُلاحَظُ، يصادف الرياح العاصفة من جميع الجوانب ولكن على الرغم من ذلك يثبت ويستقر، إشارة إلى عزمه وهمته العالية أمام المشاكل والإيذاء من جانب الكفار والمشركين والمنافقين.

قال حسّان بن ثابت يرثي النبيّ صلى الله عليه وسلم:

كـانَ الـضِّـيَـاءَ وَ كـانَ الـنُّـوْرَ نَـتْـبَـعُـهُ

بَعْدَ الإلـه وكـانَ الـسَّـمْـعَ وَالْـبَـصَـرا

النور هنا خبرٌ كان منصوب، والنصب هو رمز الثبات والدوام، يعني نوره لم يكن مقتصراً في حال حياته صلى الله عليه وسلم، بل هو باق بعد وفاته صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة، كما قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: «قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله»[٢٧].

والنصب أيضاً رمز للفرق بين شيئين أو بين موجودين، يعني هذا النور يفرّق بين الحق والباطل ويهدي صاحبه إلى الصراط المستقيم، و به يكف عن المعاصي والمحرمات، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا وإنّ لكل ملك حمى، ألا وإنّ حمى الله محارمه»[٢٨].

ومعرّف باللام يفيد معنى الاختصاص، بمعنى أن هذا النور هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن لأحد غيره عليه الصلاة والسلام.

ووردت هذه الكلمة عقب كلمة «**الضياء**»، مبينا الفرق بين النور والضوء، أما الضوء هو الأشعة التي تصدر من ذات الجسم المضيء، كالشمس والمصباح، بينما النور هو الأشعة المنعكسة عن الشيء أو الجسم كالقمر وغير ذلك، ومع ذلك يكون الضوء متوهجاً متقداً ومتماوجاً بينما النور يكون لطيفا ورقيقا[٢٩]. وهذا يعني أن وجوده صلى الله عليه وسلم من حيث العطاء هو ضياء يعطي العلم للآخرين كالشمس عندما تمنح الكون الضياء.

ولكونها (خبر كان) فإنها تمثل الأغراض الآتية:

أولاً: التحسُّر على وفاته صلى الله عليه وسلم، وعلى حرمان أصحابه من تلك النعمة الغالية التي لن ينالها إلا الكرام.

ثانياً: التفاخر بعلاقته بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبمصاحبته والاقتداء بالنور الذي جاء به.

ثالثا: مدح النبي صلى الله عليه وسلم والتغني بمكانته التي هي أرفع من المنال وأعلى من الفهم والإدراك، التي تطمئن إليها القلوب وينال بها المطلوب وتضاء بها البصائر.

وقال حسّان رضي الله عنه عندما فقد بصره:

إنْ يـأخُـذِ اللهُ مـن عَـيْـنَـيَّ نُـوْرَهُـمَـا

فَـفِـي لِـسَـانِـي وَ قَـلْـبِـي مِـنْـهُـمَـا نُـور

(النور) في شعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه

قلبٌ ذَكِيٌّ وَعَقلٌ غيرُ ذي دَخَلٍ

وَفي فَمي صارِمٌ كَالسَيفِ مَأثورُ

في هذين البيتين يذكر حسّان فقدان بصره وحرمانه من هذه النعمة العظيمة، ولكنه على الرغم من سلب بصره لم يكن يأساً، بل نراه مسروراً؛ لأن لسانه منور بمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم، وقلبه منور بحبه وإيمانه به.

في الجزء الأول جاء «**النور**» مفعولاً به منصوب يفيد معنى الرؤيا البصرية للأشياء الظاهرية المادية، بينما في الجزء الثاني إشارة إلى الرؤيا القلبية من الرموز والأسرار الباطنية، التي يقال عنها: «البصيرة أو الفراسة»، والتي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(٢).

وقال يُعَرِّضُ بالزِّبعرى:

بِها نَختَلي مُهَجَ الدارِعيـ

ـنَ إِذا نَوَّرَ الصُبحُ لِلناظِرِ

نختلي: أي: ننزع، والسيف يختلي، أي: يقطع، والدارعين، أي: لابسي الدروع.

قد وقع «**النور**» هنا في معنيين: المعنى الحقيقي والمجازي.

المعنى الحقيقي: يدفعنا إلى ميدان الحروب والقتال والجهاد المستمر، ويصور أمامنا صورة شدة وقع السيوف وضرب الأعناق، بأن العرب كانت تتعود شن الغارات على العدو عند طلوع الفجر.

والمعنى المجازي: يغطينا بالسكينة والاطمئنان ويملأ قلوبنا بالإيمان والإيقان، ويضيء أمامنا مصباح الهدى يهدينا إلى الصراط الحميد، مشيراً إلى الآية القرآنية: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾، (إبراهيم :آية١) يعني قبل الإسلام كان الناس في الضلال كأنهم في ظلام ليلٍ يتيهون في الغي، فطلق الإسلام هذا الظلام وظهر الحق كالصبح المنور؛ لذلك فرق الناس بين الحق والباطل.

ولمّا جاء «النور» في صيغة الماضي «نوّر» من باب التفعيل، يفيد معنى الاتساع والشمول والمبالغة، ويعنى بهذا النور نور القرآن الذي يسلط الضوء على الأحوال الماضية بالأساليب المتنوعة، ويضرب الأمثال ويحكى القصص، ويستخدم أسلوب الاستفهام، ويكتشف الأسرار والخفايا مستخدماً أسلوب النداء والخطاب، ولم يترك جانباً من الجوانب العلمية والفكرية صغيراً كان أو كبيراً.

قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه لِعُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر حين أغار على سرح المدينة:

أَميرٌ عَلَينا رَسولُ المَليـ

ـكِ أَحبِب بِذاكَ إِلَينا أَميرا

رَسولٌ نُصَدِّقُ ما جاءَهُ

مِنَ الوَحيِ كانَ سِراجاً مُنيرا

جاءت كلمة: «**منير**» اسم فاعل من باب إفعال، صفة للنبي صلى الله عليه وسلم، يشبه الشاعر النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالسراج المنير، السراج هو الشمس، والشمس هي منبع الحياة لكل حي في الكون، ووسيلة النمو، ومصدر نفع لكل من الإنس والشجر والنبات، كما أن القوة بأنواعها قد تستمد من الشمس. وهذا يعني أن النبيّ صلى

الله عليه وسلم قد أعطى المؤمن حياة حقيقية، فالشريعة الإسلامية هي مصدر الحياة الروحية والقوة الإيمانية، التي من خلالها يُعْتَصَمُ بحبل الله وتُتْبَعُ سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكلمة «**منيراً**» خبر كان منصوب يفيد معنى الدوام والاستمرار؛ لأن الحياة في الحقيقة ليست مقتصرة على هذه الدنيا فقط، بل ممتدة إلى ما بعد الموت، وتنتقل إلى لون آخر ومن كيفية إلى أخرى، وتخرج من قيد الجسد، إلى قيد الحياة الحقيقية، إما أن تسعد وتتمتع بجنة عرضها السماوات والأرض، أو تذوق أنواع العذاب في نار جهنم أعاذنا الله منها.

وقال حسّان يذكر غزوة بني قريظة:

أَصَابَهُمْ بَلاءٌ كَانَ فِيهِمْ
سِوَى مَا قَدْ أَصَابَ بَنِي النَّضِيرِ
غَدَاةَ أَتَاهُمُ يَهْوِي إِلَيْهِمْ
رَسُولُ اللهِ كَالْقَمَرِ الْمُنِيرِ

غزوة يهود بني قريظة وقعت في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، دام حصارهم خمساً وعشرين ليلة، وانتهت بضرب أعناق الرجال وأسر النساء والصبيان، نكالاً بما غدروا وخانوا ونقضوا المواثيق.

شبّه الشاعر النبيّ صلى الله عليه وسلم **بالقمر المنير** لسببين:

السبب الأول: بصيرته وفراسته - صلى الله عليه وسلم - التي قضى بها على بني قريظة واستأصل خبثهم من تلك البلدة المباركة.

والسبب الثاني: الرعب الذي قُذِفَ في قلوبهم.

و(منير) اسم فاعل من باب إفعال يفيد معنى المبالغة، وهي شدة حب المؤمنين لله ولرسوله وغاية شجاعتهم وبسالتهم، حيث توجهوا إلى بني قريظة عقب رجوعهم من غزوة الأحزاب والعرق كان يتصبب منهم، والدم ينزف من جروحهم. ولكونه مجروراً يحمل معنى الانقياد والتسليم؛ لأن قبائل اليهود انقادوا بعد ذلك واستسلموا.

ويقول حسّان في مكانة جبريل عليه السلام:

يَنْتَابُنَا جِبْرِيلُ فِي أَبْيَاتِنَا
بِفَرَائِضِ الإِسْلامِ وَالأَحْكَامِ
يَتْلُو عَلَيْنَا النُّورَ فِيهَا مُحْكَماً
قَسَماً لَعَمْرُكَ لَيْسَ كَالأَقْسَامِ

«**النور**» هنا استعارة من القرآن الكريم، إشارة إلى الوحي الذي يأتي به سيدنا جبريل عليه السلام.

و«**النور**» هنا أيضاً مصدر معرف باللام يحقق معنى الثبات والاختصاص، ويعني بأنه ينور قلوب الذين يؤمنون به ويلازمون تلاوته ويتدبرون في آياته ويتفكرون في الرموز والأسرار الكامنة في طياته.

فملخص الكلام أن «**النور**» في شعر سيدنا حسّان بن ثابت رضي الله عنه لم يرتكز على زاوية محدودة في التعبير فقط، بل أحاط بجميع النواحي البيانية والإنسانية.

الحواشي

١. الدكتور شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي، (القاهرة: دار المعارف) ط١٢ ص ٧٧.

٢. الذهبي، العلامة الحافظ، المؤرخ ،شمس الدين بن محمد ابن أحمد بن عثمان، تاريخ الإسلام ووفيات الأعيان.

٣. كامل سلمان الجبوري، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م،(بيروت: دار الكتب العلمية، طبعة أولى، ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٢) ج٢، ص٣٧.

٤. أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي،(القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٤ عام ٢٠٠٢) ص١٤٢.

٥. العلامة عز الدين أبو الحسن على بن أبي بكر الشيباني، المعروف بابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت : دار إحياء التراث الإسلامي) ج٢ ص٤.

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، التحقيق والضبط والشرح لعبد الحفيظ شلبي، (مصر:مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، عام ١٢٠٠هـ-١٩٣٦م) ج٢، ص٢٢، ١٠٠، ١٣٣، للمزيد انظر: الاستيعاب، ص١٢٠، والمغنى، ص١١٤، والخزانة، ج١ ، ص ١٠٨، و الشعر والشعراء ج١، ص٢٦٤.

٧. أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي،العقد الفريد، (بيروت: دار الكتب العلمية،) ص٢٨٩.

٨. علي بن حسين ، أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني،(بيروت: دار أحياء التراث العربي،) ج٢، ص٢٥٢.

٩. الدكتور شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، (القاهرة : دار المعارف، ط٢) ص٤٠.

١٠. الدكتور شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، (القاهرة: دار المعارف) ط٢، ص٧٧.

١١. لسان الدين ابن منظور،العلامة، لسان العرب، تحقيق وتصحيح، أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبدي،(بيروت: دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة مصححة) ج١مادة ، (ن ور)،أنظر للمزيد من التفاصيل: الطبري، ج١١، ص٦٨، وصفوة التفاسير، ص٥٧٤، ج١، و القرطبي، ج١٢، ص٢٥٦.

١٢. الإمام الكبير، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المعروف بجار الله، أساس البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الكريم (بيشاور: دار الكتب العربية) ص٢٨٩

١٣. محمد بن يوسف الشهير بابي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، عام ١٤٠٢-١٩٨٢) ج٢، ص٤٤٨

١٤. الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،التحقيق والتعليق، فوّاز أحمد زمرلي، الإتقان في علوم القرآن(بيروت: دار الكتاب العربي، (١٤٢٧هـ-٢٠٠٧) ص٥٦٦.

١٥. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير(القاهرة: دار الحديث) ج٢، ص٢٢٩.

١٦. حسّان بن ثابت الأنصاري، شرح ديوان حسّان بن ثابت، وضعه وضبط الديوان وشرحه، عبد الرحمن البرقوقي، راجعه وفهرسه دكتور يوسف محمد البقاعي (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، عام١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م) ص٨٥.

١٧. الإمام الكبير، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، جار الله، أساس البلاغة، تحقيق: الأستاذ عبد الكريم (بيشاور: دار الكتب العربية) ص٢٨٩.

١٨. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي (دهلى الهند: المكتبة الرشيدية) حديث أبي سعيد الخدري، رقم الحديث(٢١٣٧)، وأيضا ورد هذا الحديث في تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج٢، ص١٩١-١٩٢، وحلية الأولياء لأبي نعيم،ج٦، ص٩٦.

١٩. حسّان بن ثابت رضي الله تعالى عنه ، ديوان حسّان بن ثابت،(بيروت: مؤسسة العلمي، للمطبوعات، ط ١، عام ١٤١٨هـ-١٩٩٨) ص٧٠

٢٠. عبد العزيز، نبوى ، الدكتور،موجز تاريخ الشعر العربي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠٠٦) ص٢٢.

٢١. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، الهاشمي الأزهري، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، (بيروت: دار أحياء التراث العربي،طبعة جديدة ومصححة) ص٩٩، ١٩٨.

٢٢. العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، (بيروت: المكتبة المصرية،عام١٤٢٣هـ-٢٠٠٢) ص١٤٩.

٢٣. الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود ابن النجار

البغدادي، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، تحقيق حسين محمد علي شكري (المدينة المنورة: دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م) ص٥١، قد ورد في الفردوس للديلمي، ص١٠١ ج٢، وفي الجامع الصغير للسيوطي، قيل لما رجع النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك، تلقاه رجال من المخلفين، فأثاروا غباراً فخمروا، فغطى بعض من كان معه أنفه، فأزال النبيّ صلى الله عليه وسلم اللثام عن وجهه وقال: «أما علمت أن عجوة المدينة شفاء من السم، وغبارها شفاء من الجذام».

٢٤. الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب، تحقيق وتخريج أيمن صالح، (مصر: دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤١٥-١٩٩٤م،) ج٤، ص٤١٩.

٢٥. حسّان بن ثابت الأنصاري، شرح ديوان حسّان بن ثابت، وضعه وضبط الديوان وشرحه، عبد الرحمن البرقوقي، راجعه وفهرسه، دكتور يوسف محمد البقاعي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، عام١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م) ص٨٥.

٢٦. محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري(ديوبند الهند: المكتبة الرحيمية) باب فضل الصوم، رقم الحديث١٩٢٩.

٢٧. الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح المفتي محمد عبده، والشيخ محمد محمود الشركزي (مصر: مكتبة القاهرة، عام١٣٨١هـ-١٩٦١)ص١٢٢-١٣٣.

٢٨. صفي الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم (بيروت لبنان: المكتبة العصرية، ط ٢٠٠٢-١٤٣٣هـ) ص٤٢٢.

٢٩. نفس المصدر.

٣٠. الحافظ ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، (القاهرة: دار الحديث، سنة ٢٠٠٤-١٤٢٤هـ) ص ٤٨، (حديث صحيح أخرجه بخاري (٥٢) ومسلم(١٥٩٩) وأبو داود ٣٣٢٩، وابن حبان ٧١٩).

٣١. الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، شرح الأربعين النووية، ص٢٤٨-٢٤٩.

٣٢. أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، جامع الترمذي (دهلى الهند: المكتبة الرشيدية) حديث أبي سعيد الخدري، رقم الحديث(٣١٢٧).

المصادر والمراجع

١) ابن سيدة علي بن إسماعيل، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

٢) أحمد بن الأمين الشنقيطي، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائه، بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر.

٣) أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي، السنن، تعليق أحمد سعد علي، مصر:مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

٤) ابن كثير أبو الفداء إسماعيل، تفسير ابن كثير، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م.

٥) أحمد الاسكندري، وأحمد أمين علي جارم، المفصل في تاريخ الأدب العربي، القاهرة: مكتبة الأدب.

٦) الإمام الكبير، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المعروف بجار الله،أساس البلاغة، تحقيق الأستاذ عبد الكريم، بيشاور: دار الكتب العربية.

٧) ابن هشام، السيرة النبوية، التحقيق والضبط والشرح لعبد الحفيظ شلبي، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٥٠هـ-١٩٣٦ م.

٨) أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، الهاشمي الأزهري، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، بيروت: دار أحياء التراث العربي، طبعة جديدة ومصححة.

٩) البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، الجامع الصحيح، مصر: مصطفى البابي الحلبي،ط،١٣٧٢هـ-١٩٥٢م.

١٠) حسّان بن ثابت الأنصاري، شرح ديوان حسّان بن ثابت، وضعه وضبط الديوان وشرحه، عبد الرحمن البرقوقي، راجعه وفهرسه، دكتور يوسف محمد البقاعي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١١) الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، القاهرة: دار المعارف.

١٢) الدكتور شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، القاهرة : دار المعارف.

١٣) عبد العزيز، نبوي، الدكتور، موجز تاريخ الشعر العربي،

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢٠٠٦م.

١٤) علي بن حسين، أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، بيروت: دار أحياء التراث العربي.

١٥) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر الشيباني، المعروف بابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة،بيروت : دار إحياء التراث الإسلامي.

١٦) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني،تصحيح المفتي محمد عبده ، والشيخ محمد محمود التركزي مصر: مكتبة القاهرة، ط.١٣٨١هـ-١٩٦١م.

١٧) عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لبنان: دار أحياء التراث العربي.

١٨) الطبري، أبو جعفر محمد بن إسماعيل، جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ط.١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

١٩) لسان الدين ابن منظور،العلامة، لسان العرب، تحقيق وتصحيح، أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبدي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة مصححة.

٢٠) اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مصر: مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط.١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.

شعرُ
أحمد بن المُعَذَّل (ت نحو ٢٤٠هـ)
(جمع وتحقيق ودراسة)

الدكتور/ عبّاس هاني الچرّاخ
جامعة بابل - العراق

حياته:

هو: أبو الفضل أحمد بن المُعَذَّل [١] **بن غيلان بن الحكم بن أعين العبديّ، من عبد القيس من عمرو** [٢].

كان والدهُ المعذّل[٣] من أهل الكوفة، قَدِمَ البَصرةَ مَعَ عيسى بن جعفر بن المنصور وأقَامَ بَهَا وولده، وخلّفَ أحد عشر ابناً، أشهرهُم عبد الصّمد وأحمد.

وقد سكتتِ المصادرُ عنْ تِبيان ما يُلقِي بعضَ الضوءِ عَلى نشأتِهِ الأُولَى سوى شذراتٍ متفرّقة، عرفنا منها أنّ والدَهُ المعذّل عهِدَ لأحَدِ أعلامِ اللغةِ والنحو بتدريس أولادِهِ - ومنهُم: أحمد، وهو الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت ٢١٥هـ[٤])، ونُقِل عن أحمد قولهُ: لمّا جاءنا الأخفشُ ليؤدّبنا قال: «جنّبوني ثلاثة أشياء: أنْ تقولوا «بس»[٥]، وأن تقولوا: «هَمْ»[٦] كذا، وليس لفلان «بخت»[٧] » [٨].

لكنّه لم يكتفِ بالتدريس (النظري) على يد أُستاذِهِ، بل ذهبَ إلى البادية، يكتبُ عن الأعراب، ليقوّي لغته.

وفي شعره أنه سافرَ الى طَرسوس، وهي مدينةٌ بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.

ونشأ كأبيهِ - وأخوته العَشَرَة - أديبًا شاعرًا، ينظم الشعرَ في أوقاتِهِ.

ووصفَهُ الجاحظُ (ت ٢٥٥هـ) بقوله: «كان ذا بيان وتبحُّر في المعاني، وتصَرُّفٍ في الألفاظ»[٩].

وقد اشتهر بالفقه، وروى عن مالك[١٠]، حتّى قال في ذلك أحدُ تَلامذته، وهو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق الأزديّ البصريّ (ت ٢٨٨هـ[١١]): «أفخرُ على الناس برجلين بالبصرة: أحمد بن المعذّل يعلمني الفقهَ، وعليّ بن المديني يُعلمني الحديث»[١٢].

وكان أهل البصرة يسمونَهُ (الراهب)، لتعبّدِهِ ودِينه[١٣].

وشغلتْ قضيةُ خلقِ القرآن اختلافًا بين الفقهاء

في عصره، وكان المأمون قد امتحن الناسَ بها قبل وفاته بأشهر سنة ٢١٨هـ[١٤]، وكتب بذلك كتابًا[١٥]، وتابعه ولده المعتصم (ت٢٢٧هـ)، ثُمَّ الواثق الذي سَارَ على نَهَجِ أبيهِ في ذلكَ، ثُمَّ رَجَع في آخِرِ أمرِهِ، واشتَهَرَ المُتَوكِّل بأنه هو الذي رفعَ تلك المحنة.

وكان لأحمد رأيٌ فيها، إذْ كان يقف في خلق القرآن[١٦]، وهذا يفسّر سكوت المصادر عن ذِكرِ لقائه بالخلفاء الثلاثة، ويفسِّرُ - في الوقتِ نفسهِ- إشارتها إلى لقائه بالمتوكّل أكثر من مرّة.

كما كان ينهَى عن طلبِ الحديث[١٧]؛ زهادةً مِنهُ.

من أقوالهِ وأخبارِه:

قال[١٨]: دياركم أمامكم وحياتكم بعد موتكم، وأنشد في أثره للسموأل:

ميتًا خُلِقْتُ ولَمْ أكُنْ مِنْ قَبلِها
شيئًا تموت فَمُتُّ حِينَ حَيِيتُ

واحتمى لعلةٍ به فبرأ فقال: الحمية صالحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض، ولأهل الآخرة صالحة تبرئهم من النار[١٩].

وذَكَرَ يوماً العافيةَ فقال: أيّ غِطاءٍ وأيّ وِطاءٍ[٢٠].

ومَرَّ عليه النسَّاكُ الخَثْعَمِيّ وقد خَضبَ لِحيتَهُ وتَرَكَ فيها شعراتٍ بِيضًا يوهم أنَّ الشَّيْبَ أوّل ما وَخَطَهُ، فَقَالَ لَهُ: ما هذا؟ فقالَ: غِشُّ الغِشِّ[٢١].

وكان أحمد - وهو صبيٌّ له ذُؤابةٌ - في مجلس أبي عاصم[٢٢] الضحاك بن مخلد بن الضحاك ابن مسلم الشيباني البصري، فمزح أبو عاصم، فقال له أحمد: يا أبا عاصم، إن الله خلقك جدًّا، فلا تهزلن، فإنَّ المُستهزئَ جاهلٌ. قالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[٢٣]، فَخَجِلَ أبو عاصِم، ثُمَّ كان يُقْعِدُ أحمدَ بْنَ المُعَذَّلِ إلى جنبه[٢٤].

ودعا[٢٥] المتوكِّلُ محمدَ بنَ عبد الملك بن أبي الشوارب، وأحمَدَ بن المُعَذَّل، وإبراهيمَ التميميَّ مِنَ البصرة، وعرض على كُلِّ واحدٍ منهم قضَاءَ القضاة، فاحتَجَّ محمدُ بنُ عبد الملك بالسنِّ العالية وغير ذلك، واحتجَّ أحمدُ بنُ المعذَّل بضعفِ البَصَرِ وغير ذلك، وامتنع إبراهيمُ التميميّ، فقال: لم يبق غيرك، وجزم عليه فوليَ مَعَ أخيهِ عبد الصَّمَد.

ووَجَّهَ المتوكلُ إلى إليهِ وإلى غيره من العلماء، فَجَمَعَهُمْ فِي دَارِهِ،ثُمّ خَرَجَ عَلَيهِم، فَقَامَ النَّاسُ كُلُّهُم لَهُ غير أحمد بن المُعَذَّل، فقال المتوكلُ لعبيد الله بن خاقان: إن هذا الرجل لا يرى بيعتنا، فقال له: بلى يا أمير المؤمنين، ولكنّ في بصره سوءٌ،فقال: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوءٌ، ولكن نَزّهتُك من عذاب الله؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أحبَّ أنْ يَتَمثَّلَ الرجال له قياماً فليتبوأ مقعدَهُ من النار»،فَجَاءَ المتوكلُ فَجَلَسَ إلى جنبه[٢٦].

وكان بين الأخوين عبد الصمد وأحمد مُنافرة ومُباعدة، فأحمد يميل إلى الهدوء، والكفّ عن أذى الناس، في حين كان عبد الصَّمَد -برُغم شاعريّتِه- بذيء اللسان، هجاءً، يؤذي الناس حتى أقاربه وإخوانه وجيرانه، وكانوا يتقون لسانهُ ويجانبونه ويبغضونه، ويودون أحمد، وكان ذلك مما يزيدهُ غيظاً ويحملهُ على أنْ يَقَعَ في كُلِّ مَنْ يُصاحب أخاهُ أحمد.

وقد عَابَ عليه أخوهُ عبدُ الصَّمَد إتيانه المتوكّل وأَخْذَ الأَموال مِنهُ[٢٧]:

ولمّا أن أتتهُ دُرَيهماتٌ
مِنَ السُّلطانِ باعَ بِهِنَّ رَبَّهْ

وكانَ يَذُمُّهُم في كُلِّ يَومٍ
يَشِي بالجهلِ والهَذَيانِ خُطبَهْ

وكان أحمد قد خرج عن البصرة ليجاور الثغر، لكنّهُ زار صاحب الشرطة إسحاقَ بنَ إبراهيم، الذي تهيّأ للغزوِ، ولمّا دخل عليهِ مدحهُ بقصيدة سينيّة، فأمر له بخمس مئة دينار فقبضها، ورجع إلى البصرة، من دون أنْ يذهب إلى الغزو، وبلغ عبد الصمد خبرهُ، فقال فيه:

يُري الغزاةَ بأنَّ الله همّتُه
وإنما كانَ يَغزو كيسَ إسحاقِ

فباعَ زُهداً ثواباً لا نَفادَ له
وابتاعَ عاجلَ رِفدِ القومِ بالباقي

ولمّا زادَ أذاهُ لهُ وهجاؤهُ أكثر مرّة كَتَبَ إليهِ أحمَد:

«أما بعد، فإنَّ أعظم المكروه ما جاء من حيث يرتجي المحبوب، ولقد كنت مرجواً حتى أشمل شرّك وعمَّ أذاك، فصرت فِينَا كالابنِ العاق، إنْ عاش نغَّص وإنْ ماتَ نقص، وأعلم أنك خَشَّنْتَ صدرَ أخٍ ناصحٍ. والسلام»[28].

وقال فيهِ أيضًا: «وأنت كالإصبع الزائدة، إنْ تُركتْ شانتْ وأن قُطِعَتْ آلَمَتْ»[29].

وكان أحمد من التجنّب للعيب والتعرض لما في أيدي الناس على غاية، فلما حُمل إلى بغداد في جملة فقهاء البصرة، وقَبِلَ الصِّلَةَ، نَقِمَ عليه عبد الصّمد وهجاهُ، بعدَ أنْ وجد في ذلك خروجًا على ما كان يدعو إليه من الزُّهدِ وعدم التقرّب إلى الحُكّام.

ومِمَّا قالهُ عبد الصَّمَد فيهِ[30]:

أطاعَ الفريضةَ والسُّنَّهْ
فتاهَ على الإنسِ والجِنَّهْ

كأنَّ لنا النّارَ من دونِه
وأفرَدَهُ اللهُ بالجَنَّهْ

وينظُرُ نحوي إذا زُرتُهُ
بعينِ حَماةٍ إلى كَنَّهْ

وبلغ أحمد عن أخيه شيء غَمَّهُ وأوجعَهُ. فقال: ما عسيت أنْ أقولَ في مَنْ لُقِّحَ بين قدرٍ وتنورٍ، ورُبّيَ بين زقٍّ وطنبور. وكانتْ أمُّ عبد الصَّمَد طبّاخة.

وكان يوماً تحت أخيه مع جماعة من أخوانه على مجلسِ شرابِهم وقد علا صَوتُهُم وارتَفَع كلامُهُم بفُحشٍ وغيرِهِ على عادة الشراب فشوّشوا على أحمد حالَهُ، فتطلّعَ إليهم ورفع رأسه إلى عبد الصَّمَد وقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[31]، فاطّلعَ عبدُ الصَّمَد وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[32].[33]

تصانيفه:

قال عنه أبو إسحاق الشيرازي والذّهبيُّ إنَّ «له مصنّفات»[34]، ولم تذكر مصادر ترجمته سوى كتاب (العلّة)، الذي ينصر فيه مذهب مالك[35].

ووجدتُ له كتابين لم يذكرهُما مترجموهُ، هما:

(المبسوط)، في الفقه المالكيّ، وقد نقل منه صاحب المنتقى – شرح الموطأ.

والآخر في: فضائل القرآن[36].

رجالات عصره:

حدّث عن بشر بن عمر بن الحكم بن عقبة

الزهراني (ت ٢٠٧هـ)[٣٧].

وسليمان بن داود بن الجارود، أبو داود الطيالسيّ (ت ٢٠٣هـ)[٣٨].

وأيوب بن أبي تميمة السختياني (ت ١٣١هـ[٣٩].

وأبو قلابة الجرمي (ت نحو ١٠٥هـ)[٤٠].

وأبو أيّوب سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي البصريّ القاضي (ت ٢٢٤هـ)، وعُمر بن عبد الوهاب أبو حفص الرياحي البصري (ت ٢٢١هـ).

و: عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن الماجشون، الذي دارتْ عليه الفتيا في زمانه، وعلى أبيه قبله. توفّي نحو سنة ٢١٢هـ[٤١]، وكانت لديه مكانة كبيرة، وكان الماجشون يعزّه كثيرًا، وممّا يُؤكّد هذا قول أحمد: دخلتُ المدينة، فَتَحَمّلْتُ على عبد الملك بن الماجشون، برجل يخصني، ويعني بي، فلما فاتحني، قال: ما تحتاج أنتَ إلى شفيع، معكَ مِنَ الحذاء والسّقاء ما تأكل به لُبّ الشجر، وتشرب به صفو الماء[٤٢].

وحزن أحمدُ كثيرًا لوفاة شيخه، وقال: كلما تذكرتُ أنّ التُّرابَ يأكلُ لسانَ عبد الملك صَغُرَتِ الدُّنيا في عيني.[٤٣]

وقِيل له: أين لسانك من لسان أستاذك عبد الملك؟ فقال: كان لسان عبد الملك إذا تعايَى أحيا مِنْ لساني إذا تعايَى[٤٤].

ولـه صداقةٌ مع القاضي يَحيَى بنُ أكثم (ت٢٤٢هـ).

وعاصر عبدَ الله بن سوّار بن عبد الله بن قدامة العنبريّ القاضي (ت ٢٢٨هـ)، وابنَه سوّارًا (ت٢٤٥هـ)[٤٥]، وقد نَقَلَ عنهُ أحمدُ قِطعَةً رَائِيّةً في الغزلِ[٤٦].

تلاميذه:

أخذ عنه: إسماعيل القاضي، وأخوه حماد[٤٧]، وأبو يوسف يعقوب بن شيبة السّدوسيّ البصريّ المالكيّ (ت ٢٦٢هـ)،وهو من كبار علماء الحديث، وقد تابَعَ شيخه أحمد في القول بالوقف في القرآن، فهجرهُ الناسُ[٤٨].

وروَى عنه عبد الملك بن محمد بن عبد العزيز الرَّقَاشيّ (ت ٢٧٦هـ)[٤٩] خبرًا عن أبيه المعذّل[٥٠].

و: العباس بن الفرج بن علي بن عبد الله الرياشي البصري (ت ٢٥٧هـ)[٥١]، وهو لغوي وراوية وعارف بأيام العرب، التقى به في مكّة[٥٢].

كما روَى عنه أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ)[٥٣] عن طريقِهِ قَصِيْدَةً لأخيه عبد الصّمد[٥٤]، وكان صغيرَ السّن.

وفاته

قال الذهبيُّ في أحدِ كُتبه: «لَمْ أرَ لَهُ وَفَاةً»[٥٥]، لكنه فِي كِتَابٍ آخر وَضَعَهُ فِي وَفيات سنة مئتين وأربعين[٥٦]، وهذه السنة هي سنة وفاة أخيه عبد الصّمد، وأظنُّ أنّهُ ذكر هذا ظنًّا منه أنّه توفّيَ فيها.

وذكَرَ الصَّفَدِيُّ أنه تُوُفِّيَ قبلَ الأربعين ومئتين تقريبًا.

ولمّا ماتَ رثاهُ أبو العالية الشامي[٥٧] بقوله:

لو لمْ يكُنْ جَدُّهُم عَاثِرًا

وحَظُّهُم طَاحَ بِهِ طَائِحُ

ما مات منهم أحمَدُ المرتَضَى

وعَاشَ عَبْدُ الصَّمَدِ الفاضِحُ

شعره

إذا كان ما وصلنا من شعر عبد الصمد كثيرًا، وقد جُمع في ديوان [58]، فهو قليل عند أحمد، وأهم مَنْ ترجم لهُ وأورد بعضَ شِعره هو القاضي عياض بن موسى اليحصبيّ السبتيّ (ت ٥٤٤هـ) في كتابِهِ (ترتيبُ المدارك)، إذْ أثبتَ له ٢١ بيتًا في تسعة نصوص، وانفردَ بسبعة أبيات من نصٍّ واحد وبيتين من قطعتين مختلفتين، وإن كنَّا نرى أنَّ الكتب الذي اشتركت بإيراد باقي الأبيات إنما نقلتْ منه، وجاءتْ أهمية كتابه برغم تأخُّره أنَّ صاحبَهُ رجع إلى عدد من الكتب المفقودة، منها كتاب (نزهة الأسرار) للدلائي الذي أورد للشاعرِ بيتين، كما رجع إلى ترجمة الشاعر في القسم الساقط من كتاب (الورقة) لابن الجرّاح (ت٢٩٦هـ) [59].

ويليه أحمد بن مروان بن محمد الدينوريّ في كتابِهِ: (المجالسة وجواهر العلم)، فقد أورد له عشرة أبيات في أربعة نصوص، ثمَّ الصفديّ (ت٧٦٤هـ) في كتابِهِ (الوافي بالوفيات)، إذ أورد له ثلاثة نصوص، وانفرد بنتفةٍ منها، وأورد أبو حيان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ) في كتابِهِ (البصائر والذخائر) خمسةَ أشطارٍ مِنَ الرَّجَزِ، وفي ترجمته لأخيه عبد الصمد أورد له أبو الفرج الأصبهاني (ت نحو ٣٥٦هـ) في (الأغاني) لأحمد نتفةً جديدة من ثلاثة أبيات سينية، أما المرزبانيّ (ت ٣٨٤هـ) فأفادنا في (الموشّح) بمقطّعة يائيّة من خمسة أبيات؛ الأخير منها بيتٌ مُضمّن لجرير، وانفرد السري الرفّاء (ت ٣٦٠هـ) بمقطّعة داليّة من ثلاثة أبيات، كما انفرد الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في كتابه (تقييد العلم) بنتفة من بيتين، كما أثبتَ له ابن النجار (ت ٦٤٣هـ) في كتابه (ذيل تاريخ بغداد) بيتين بائيين لم يردا عند سواهُ... وغيرها.

ومن الغريب أنْ يقولَ ابنُ شاكر الكُتبيّ في كتابِهِ: (فوات الوفيات) في ترجمة عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل: «وله ذكر في ترجمة أخيه أحمد» [60]، في حين أنَّهُ لم يُترجم لأحمد على الإطلاق.

أما موضوعاتُ شِعرِهِ فهي انعكاسٌ لِشَخصيتِهِ، إذْ تدور في فَلَك الزُّهد وذمّ الدنيا ووصف ظواهر الكون، والرضا والحِكمة والقناعة وذمّ السّؤال ورؤيته للأمور، والمدحِ والعتاب، وبعضهُ في الوصف.

وإذا انتقلنا إلى الموسيقى الخارجية رأينا اهتمام الشّاعِر بها، ويتجلى ذلك في اعتماده على الأبحر الطوال، وهي الطويل وتبعه الوافر فالكامل، وذلك بسبب موسيقاها الهادئة الرزينة التي تسمح بامتداد النغم وتطويله وتفخيمه، واستيعابها الأفكار المباشرة أو الخطابية، وليدلّ على قدرته على الأداء الفني وبراعتهِ في التجويد، فضلاً عن بحور أُخر أكّدتْ تمكّنه من عناصر الفن الشعري في نظمه عليها.

ويتّسمُ شعره بالجزالة بفضلِ ترسّمه نَهْجَ الشُّعَراء الذينَ سَبَقُوهُ وثقافته الخاصّة.

على أنَّ الذي بين أيدينا ليس شعره كلّه، بل ما وصل إلينا من المصادر التي ترجمَتْ لَهُ وَأَوردَتْ شيئاً منهُ، وهذا واضحٌ في أنَّ أكثرَهُ مقطّعات ونُتَف، وذكر القاضي عياض في كتابِهِ (ترتيب المدارك): أنَّ لأحمد بن المعذّل «قصيدة مشهورة في صفة النخلة»، لكن لَمْ تَصِلْ منها سوى ثلاثة أبيات في وصف الرطب.

ويُلاحظ أنَّ البيت:

أقــومُ إلــيــهِ إذا بَــدَا لــي
واكــرمُــهُ وأمــنــحُــهُ الــسَّــلامـا

مكسور الوزن على الوافر، وقد انتبه لهذا الحَميديُّ، ورأى أنَّ الصدر يستقيم إذا قال: «أقوم إليه إعظامًا وشوقًا»، ثم قال: «وابن المعذل لا يجوز عليه مثل هذا»، وأثبت هذا الخطيبُ البغداديُّ(٦١).

وذكر المرزبانيُّ أنَّ أحمد بن يحيَى ثعلب أخذ على الشّاعر تضمينه بيت جرير على غيرِ المعنى المراد، وذلك في معاتبة صديقه أبي حفص:

وإنــي لأسـتـحـيـي أخـي أنْ أرى لـهُ
عـلـيَّ مِـنَ الـحَـقِّ الـذي لا يَـرَى لِـيَـا

وقال: «وهذا البيت تأوَّلهُ أحمد بن المعذّل على غير وجهه، والبيت لجرير، تأوّلَ أنَّهُ يستحيي أن يرى لصديقه حقاً، ولا يراهُ ذلك له. وهذا كان له تأول، فأما معنى البيت والذي أراده جرير عند الحذّاق فهو: وإني لأستحيي أن أرى لصديقي عندي حقاً وأيادي لا أكافئه عليها، ولا أرى لي عنده مثلها، فهذا الذي يستحيي منه»(٦٢).

أمّا قولهُ:

فـلا تـعـجَـبْ لإسـراعـي إلـيـهِ
فَـــإنَّ لِـمِـثْـلِـهِ ذُخِـرَ الـقِـيَـامَـا

فَإنَّ حقَّ القافيةِ أنْ تكونَ بالرَّفعِ (القيامُ) على انها اسم فاعل.

وبعضُ ما أورده مترجموه من الشعر سُبِقَ بعبارة: « أنشد »، ونظنّ أنّما أنشدها إعجابًا بها، ومِنْ ثَمَّ فهي ليسَتْ لهُ(٦٣)، وقد تأكّد لنا ذلك بعد بحثٍ وتنقيرٍ شديدين.

ومن المناسب أنْ أُبيِّن أنَّ البيتين:

تُكَلِّفُنِي إذلالَ نَفسِي لِعِزِّهَا
وهانَ عَلَيْهَا أنْ أُهَانَ لِتُكْرَمَا
تقولُ: سَلِ المَعروفَ يَحيَى بن أكثَمٍ
فَقُلْتُ: سَلِيهِ رَبَّ يَحيَى بن أكْثَما

أوردهما د. زهير غازي زاهد في ديوان عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل ص ١٦٩ فقط، مِنْ دون التنبيه على تنازعهما مع أخيه أحمد ‹، ونحنُ نميلُ ميلاً شديدًا إلى انهما لأحمد لأنهما أشبه به وبنفسيّتِهِ، فضلاً عن ورودهما في ثلاثة كتبٍ هي: (المجالسة وجواهر العلم) لأحمد بن مروان الدينوريّ (ت٣٣٢هـ) ص ٢٨٩، (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) ١٢/٤، وجاء الثاني فقط في: (أخبار القضاة) للقاضي وكيع (ت ٣٠٦هـ) ١٦٦/٢، وعلى الرّغم من ذلكَ فقد أثبتناهُ في قِسْمِ (المنسوب) على وَفْقِ المَنْهَجِ العِلْمِيِّ.

منهج الجمع والتحقيق

بلغَ مجموع أبيات هذا العمل الذي قمنا به (٥٤) بيتًا، في خمسةَ عشر نصًّا، ما بينَ مُقطَّعة ونتفة، فضلاً عن (١٦) بيتًا في ستِّ نتفٍ من المنسوب له ولغيرِهِ، ليكون المجموع النهائيّ(٦٤) بيتًا في ثلاثةٍ وعشرين نصًّا.

ويتمثّل منهجنا في جمعِهِ وتحقيقِهِ في النحو الآتي:

١- ترتيب القطع على وفق رويها ترتيباً أبتثيًّا (ألفبائيًّا)، بدءاً من الساكن فالمفتوح ثم المضموم ثم المكسور.

وقد اعتمدنا في إثبات النصوص على المصادر التي أوردت النُّصوص كاملة، ثُمَّ المصادر

الأخرى التي أوردتها بدرجة أقلّ، من دُون النظر إلى قدمها، وقد أشرنا إلى أرقام الأبيات بصورةٍ دقيقة أمام كلّ مصدر.

٢- جعلت لكل نصّ - قصيدة كانت أو قطعة - رقماً خاصاً، للإشارة إليه عند الدراسة والتخريج.

٣- تقويم النصّ عروضيّا، وإثبات اسم البحر.

٤- ضبط النّصّ ضَبطاً يُعينُ على فَهْمِ المعنَى.

٥- تخريج النّصوص من المظان المختلفة - بعد استقصائِها - وإثبات عدد الأبيات التي وردت في كلّ مصدرٍ.

٦- ذِكْر الاختلاف الحاصل في الروايات وترجيح الرواية الصحيحة التي تطمئن إليها النفس وإثباتها في المتن.

٧- ترجمة الأعلام الذين وردوا في النّصوص، ولَمْ تُترجم لَهُم فِي الدِّرَاسَةِ.

٨- الإشارة إلى الأخطاء الواردة في المصادر التي رجعتُ إليها.

٩- إثبات قسم للمنسوب له ولغيره.

وبعدُه:

فهذا الجهد لَمْ يسبقني إليه أحدٌ، رأيتُ أنْ يُضافَ إلى المكتبة العربيّة، وأهديه إلى أخي الدكتور عبد الرازق حويزي الذي اقترحَ عليَّ جَمْع شعر ابن المعذل.

ما تبقّى من شعره:

قافية الهمزة

[١]

مات ابنٌ أحمد بن المُعَذَّل بالبصرة فاسترجَعَ ثُمّ أنشأ يقولُ: (الوافر)

تُؤَمِّلُ جَنَّةً لا مَوتَ فِيهَا
وَدُنيا لا يُكدِّرُها البَلاءُ

التخريج: المجالسة ٧٨، ترتيب المدارك ١٢/٤.

قافية الباء

[٢]

قال: (الطويل)

لَئِنْ كانَتِ الأيَّامُ أَحسَنَتْ لَهُ يَدًا
يَطُولُ بِهَا فِي ظُلْمِهِ وَيُجَابُ
فَمَا مِنْ يَدٍ إلاَّ يَدُ اللهِ فَوقَهَا
ولا غَالِبٌ إلاَّ لَهُ اللهُ غَالِبُ

التخريج: ذيل تاريخ بغداد ١٧٨/٢.

[٣]

قال: (السريع)

التَمِسِ الأرزاقَ مِنْ عِنْدِ الذي
مَا دُونَهُ أنْ سِيلَ مِنْ حَاجِبِ
مَنْ يَغمُرُ التَّارِكَ تَسْآلَهُ
جُوداً، ومَنْ يَرضَى عَنِ الطَّالِبِ
ومَنْ إذا قالَ جَرَى قَوْلُهُ
بِغَيْرِ تَوقِيعٍ ولا كَاتِبِ

التخريج: الجامع لأحكام القرآن ١٦٥/٥، ترتيب المدارك ٩/٤، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١١٠/٤.

الروايات:

التمهيد: التارك عن سُؤْلِهِ.

٤- الجامع لأحكام القرآن، التمهيد: إلى كاتبٍ.

[٤]

قال: (الطويل)

عَداوةُ ذي القربى تميق ذوي النهى

وتؤلمُ ذا التَّقوى وتُؤذي وتُتعِبُ

إذا ما أتاكَ الدَّاءُ مِنْ قِبَلِ الدَّوا

أتاكَ بِأمْرٍ صَدعُهُ ليسَ يُرأبُ

التخريج: الوافي بالوفيات ٨/ ١٨٥.

قافية الدّال

[٥]

قال أحمد بن المُعَذَّل: (الطويل)

ألا ما لوجهِ الصُّبحِ داجٍ قناعهُ

وما بالُ أرواقِ الدُّجى لا تقدَّدُ

هل الغورُ مسدودٌ؟ أم النجمُ غائرٌ؟

أم الصبحُ مكبولٌ؟ أم الليلُ سرمدُ؟

أطالَ عليَّ الليلَ حتى كأنهُ

حسيرٌ بهيرٌ أو أسيرٌ مقيَّدُ

التخريج: المحب والمحبوب ٢/ ٢٤١.

قافية الرَّاء

[٦]

قال يهجو زُفَرَ بن الهذيل وهو من أقدم أصحاب أبي حنيفة، وقد كان شديد القياس: (الكامل)

إن كنتِ كاذبةً بما حدثتني

فعليكِ إثم أبي حنيفة أو زُفَرْ

المائلينِ إلى القياسِ تَعَمُّدًا

والراغبينَ عن التمسكِ بالخَبَرْ

التخريج: تاريخ بغداد ١٢/ ٤١١، الكنى والألقاب ١/ ٥٤.

بلا عزو في: الصراط المستقيم ٣/ ٢١٠.

الروايات:

١- الصراط المستقيم: إنْ كنتَ كاذب في الذي حدثتني

٢- الصراط المستقيم: العادلينَ عن الشَّريعةِ والأثر.

قافية السِّين

[٧]

قال يمدح صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم: (البسيط)

أفسدتَ نُعمى على قومٍ رَعَيْتَ لهمْ

حقًّا قديماً من الودِّ الذي دَرَسا

وحرمةَ القصدِ بالآمالِ إنَّهمُ

أتَوا سواكَ فما لاقَوا به أنَسا

لأنتَ أكرمُ منهُ عندَ رفعتهِ

قولاً وفعلاً وأخلاقاً ومُغترسا

التخريج: الأغاني ١٢/ ٢٢٨.

قافية الصَّاد

[٨]

قال الرياشيُّ: رأيتُ أحمد بعرفات مُضحيًا للشمسِ لا يستظِلُّ، فقُلْتُ: ما هذا يا أبا الفضل؟ فقال: (الطويل)

١- ضَحيْتُ لهُ كي استظلَّ بظلهِ

إذا الظلُّ أضحى في القيامة قالصا

٢- فيا أسفا إنْ كان أجرُكَ حابطًا

ويا حزنًا إنْ كان حجّكَ ناقصًا

٣-وغارَتْ نفوسُ النّاسِ عندَ حلوقِهِمْ

يريقون زيفًا غائرَ الماءِ شاخِصًا

٤- هنالك قالَ المرءُ: يا لَيتَ أنّني

أرَدُّ، وأُضحِي قبلُ قد كُنتُ قامِصًا

٥-وما كُنتَ ترجو أنْ ينالك حَرّها

وقد كنتَ في حَرِّ الظُّهيْرَةِ خائِضًا

٦-لعمري لقد ضاعتْ أُمورٌ لأَهْلِهَا

ليغتبطنْ بالصِّدقِ مَنْ كانَ خَالِصًا

التخريج: المجالسة ٩٢-٩٤، عدا الثاني.

- البيتان ١، ٢ في: ترتيب المدارك ٨/٤، تاريخ مدينة دمشق ١٨/٤٢، الذخيرة في الفقه المالكيّ ٢٠٥/٢، المغني ٢٨٤/٢، حياة الحيوان الكبرى ٢١٨/٢، المُفهِم لِما أُشكل من صحيح مسلم ١٢٢/١٠، الشرح الكبير على متن المقنع ٢٧٠/٢.

- الأبيات ١، ٢، ٤، ٥ في: ترتيب المدارك ٩/٤.

الروايات:

١- تاريخ دمشق:

يا حسرتا إن كان سعيك خائبا

حياة الحيوان:

فيا أسفا إنْ كان سعيُكَ باطلاً

ويا حسرتا إن كانَ حَجُّك ناقصا

٢- ترتيب المدارك: وعادت ريقًا.

٤- ترتيب المدارك: حائِضًا.

قافية الفاء

[٩]

قالَ في وَصْفِ الرّطبِ: (مَجزوء الكامل)

انشقَّ جيبُ قميصِهَا

فالدمعُ عنها واكِفُ

يُنْفى بقاعِ إنائها

حيثُ استقرّتْ قاطِفُ

ومن الغرائبِ أنها

بِكْرٌ عَوانٌ ناصِفُ

التخريج: ترتيب المدارك ١٢/٤-١٣.

قافية اللام

[١٠]

قال: (الرجز)

أيّتها النفسُ اسمعي وقيلي

أنتِ مِنَ الحَياةِ في أصيلِ

وأنتِ صبّ الأملِ الطويلِ

فَلا يَغرّنْكِ مَدَى التّأميلِ

وقد دَنَتْ شَمْسُكِ مِنْ أفولِ

التخريج: البصائر والذخائر ٥١/٨.

[١١]

قال: (البسيط)

١- ما ناصَحَتْكَ خَبَايَا الودُّ مِنْ رَجُلٍ

ما لَمْ ينلكَ بمَكْرُوهٍ مِنَ العذلِ

٢- مودَّتي لكَ تأبَى أنْ تُسامِحَني

بِأنْ أرَاكَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّلَلِ

التخريج: ذيل تاريخ بغداد ٨٦/٤، تاريخ مدينة دمشق ٧٤/٣١.

قافية الميم

[١٢]

دخل عليه محمد بن سليمان بن عليّ الهاشميّ(٦٥)، فقام إليه ابن المُعَذَّل، فقال له الهاشميُّ: على مكانك يا أبا الفضل، فأنشأ ابن المُعَذَّل يقولُ: (الوافر)

أقـومُ إليـه إذا بَـدَا لي
وأكـرمُـهُ وأمنـحـهُ السَّلاما
فلا تعجَبْ لإسـرَاعي إليهِ
فَـإنَّ لِمثلِهِ ذُخِـرَ القِيَامَا

التخريج: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣٤٦/١، تاريخ مدينة دمشق ١٣٢/٥٢.

والبيت الأول مكسور الوزن كما ترى.

قافية النون

[١٣]

قال إذا حَزَّبه أمرٌ: (الكامل)

أشكو إليكَ حَـوَادِثًا أقلَقَتني
فَـتَركْتني مُـتَوَاصِلَ الأحْزَانِ
لولا رجاؤك والذي عَوَّدتَني
مِنْ حُسْنِ صُنعكَ لاستطارَ جناني

التخريج: ترتيبُ المدارك ٩/٤، المجالسة ٦٥٢-٦٥٣.

[١٤]

أهدى أحمد بن المعذل إلى أبي يحيى عيسى ابن أبي حرب الصفَّار(٦٦) دفترًا فيه دعاءٌ، وكَتَبَ إليه (البسيط):

١-فيه دعاءٌ إذا ما الأمرُ أعضَلَني
واستَحكَمَ الهَمُّ فِي قَلْبِي فَأَرَّقَنِي
٢-ناديتُ مُعتمدي في كُلِّ نَائِبَةٍ
فَلَمْ أُتَمْمْهُ حَتَّى هو يُخلصني

التخريج: تقييد العلم ١٣٤.

[١٥]

خرجَ أحمد بن المُعَذَّل من البصرة إلى طرسوس فأطال بها المكث، وكتبَ إلى ابنه: (الطويل)

١- أ تأمنُ بالنفس النفيسة ربَّها
وليسَ لها في الناسِ كلهم ثمنْ؟
٢- بها أملك الدنيا فإنْ أنا بعتُها
بشيءٍ مِنَ الدُّنيا فذلكم الغبنْ
٣- إذا ذهبتْ نفسي بدنيا تَنَالها
فقد ذهبتْ نفسي وقد ذَهَبَ الثمنْ
٤- فَبِعهَا بها مِمَّنْ إليه مصيرها
فإنَّكَ فيها للمنيةِ مُرتَهَنْ
٥-و دَعْ لَذَّةَ الدنيا لتنعم خالدًا
لدى جنةٍ لا خوف فيها ولا حَزَنْ
٦- فتبذل شيئًا لستَ تملكُ نَفعَهُ
فَيَجزيك بالإحسانِ ذو الفَضْلِ والمِنَنْ

التخريج: ترتيب المدارك ١٠/٤.

- الثاني والثالث في:الزهرة ١٩٠/٢ بلا عزو.

الروايات:

٢- الزَّهرة: لدنيا أصبتها.

قافية الياء

[١٦]

اعتلَّ أحمد بن المعذّل فلم يعدهُ صديقهُ أبو حفص الرياحيّ[٦٧]، ولزمه في علّته سليمان بن حرب[٦٨]، وبسر بن داود المهلبي، فكتب إليه أحمد: (الطويل)

سَلامٌ أبَـا حَفصٍ عَلَيْكَ ورَحمَةٌ
وإنْ كُنتَ عنَّا نَائياً مُتجَافِيَا

كَفَاكَ سُلَيمَانُ بنُ حَربٍ عِيَادَتي
ومَا زَالَ بسرٌ بِالزِّيَارَةِ وَافِيَا

وَمَا منهما إلاّ تَرَاخَيتَ دُونَهَا
ومَا كنتَ عن كِلتَيهِمَا مُتراخِيَا

وقَد قَالَ بَعضُ المُنصِفِينَ مَقالَةً
مَضَتْ مَثَلاً بَينَ الأخِلاَّءِ جَارِيَا:

(وإنِّي لأستَحيي أخِي أنْ أرَى لَهُ
عَلَيَّ مِنَ الحَقِّ الذي لا يَرَى لِيَا)

التخريج: الموشّح ٤٢٧.

الثاني فقط في: تَصحيفاتُ المحدِّثين ٥٨١.

والبيت الأخير مضمَّن، وهو لجرير في ديوانه ٦٠٥، باختلافِ الرواية.

الروايات:

٢- تصحيفاتُ المحدِّثين: « سليمان أخوك ».

المنسوبُ

[١]

مَرَّ أحمدُ بنُ المُعَذَّل بأخيه عبد الصَّمَد وهو يخطر فأنشأ يقول: (مجزوء الخفيف)

إنَّ هــذا يَــرَى أرَى
أنَّــهُ ابــنُ الـمُـهَـلَّـبِ

أنــتَ واللهِ مُـعْـجَـبٌ
ولَـنـا غَـيـرُ مُـعْـجَـبِ

التخريج: الأغاني ٦٦/١٢.

- لعبد الصَّمَد بن المُعَذَّل في: ديوانه ٨٣.

[٢]

قالَ أحمد بن المعذّل يهجو النَّرجسَ: (الكامل)

١- إنْ كنتَ تنكرُ ما ذكرنا بعدمَا
قامَتْ عليهِ دَلائِلٌ وشَواهِدُ

٢- فانظُرْ إلى المُصفرِّ لونًا منهُمَا
وافطِنْ، فَمَا يَصفرُّ إلاّ الحَاسِدُ

التخريج: سكردان السلطان ٢١٠.

- لأحمد بن يونس الكاتب في: اللآلي في شرح أمالي القالي ٥٤٩/١، زهر الآداب ٢٣٥/١.

- لأحمد بن يوسف الكاتب في: المرقصات والمطربات ١٦٨، وأخلَّ بهِ شعره المجموع في مصر.

[٣]

قال: (الرمل)

قَالَ لِي: أنتَ أخُو الكَلبِ، وفِي
ظَنِّهِ أنْ قَد هَجَانِي واجتَهَدْ

أحـمـدُ الله تـعـالـى أنَّـهُ

مـا درَى أنّـي أخـو عـبْـد الصَّـمَـدْ

التخريج: الوافي بالوفيات ٨/١٨٥، التذكرة الصلاحيّة ج ٢٦ غير مرقّم.

وهما لعبد المحسن الصوريّ في: يتيمة الدهر ١/٣٢١، تاريخ دمشق ٣٦/٢٥٥، ونقلهما محققا ديوانه في تكملة الديوان ٢/١٢٩-١٣٠، عن المصدر الأول فقط، ولم يُشيرا إلى نسبته لابن المُعَذَّل.

[٤]

قال: (الوافر)

أخـو دَنَـفٍ رَمـتْـهُ فـأقـصـدَتْـهُ

سِـهـامٌ مِـنْ جُـفُـونِـكِ لا تَـطِـيشُ

قـواتـل لا قِـداحَ سِـوَى أحـوِرارٍ

بـهـنَّ،ولا سِـوَى الـلـحـظـاتِ رِيـشُ

أصـبـنَ سَـوادَ مُـهْـجَـتِـهِ فـأضـحَـى

سَـقِـيـمًـا لا يَـمُـوتُ ولا يَـعِـيـشُ

كـئـيـبٌ إنْ تَـرَحَّـلَ عَـنْـهُ جَـيْـشٌ

مِـنَ الـبَـلْـوَى ألَـمَّ بِـهِ جُـيُـوشُ

التخريج: ترتيب المدارك ٤/٩- ١٠.

الأوّلُ في: زهر الآداب ٢/٦٥١.

المقطّعة لأبي هفّان في: ديوانه ٤٩، ولمْ يذكر جامعه نسبته إلى أحمد ولا الروايات المختلفة.

١- ديوان أبي هفّان: « لا نِصـالَ..... الأهـداب ريشُ».

٢- ديوان أبي هفّان: «فؤادَ مهجتِهِ».

٣- ديوان أبي هفّان: « كئيبًا ».

[٥]

قال يخاطب عبد الله بن سوّار القاضي[٦٩]: (الوافر)

ألا أبـلـغْ أبَـا سَـوَّار عَـنّـي

رِسَـالَـةَ كَـاتِـبٍ أهـدَى سـلامـا

أ فِـي حَـقِّ الأخُـوَّةِ أنْ أقـضِـي

ذِمَـامَـكُـمُ، ولا تـقـضُـوا ذِمَـامًـا؟

وقـد قـالَ الـحـكـيـمُ مَـقَـالَ صِـدْقٍ

رَآهُ الأوَّلُـونَ لـهُـمْ إمَـامَـا:

إذا أكْـرَمْـتُـكُـمْ وأهـنـتُـمُـونِـي

ولَـمْ أغـضَـبْ لِـذلِـكُـمْ فـذَا مَـا ؟

التخريج: ترتيب المدارك ٤/١٢.

- لهُ في: الوافي بالوفيات ٨/١٨٥، عدا الأوّل.

- لأبيه المعذّل في: الأغاني ١٢/٢٢٨، عدا الأوّل، وجاء فيه: «مرَّ المعذل بن غيلان بعبد الله بن سوار العنبري القاضي، فاستنزله عبد الله، وكان من عادة المعذل أن ينزل عنده، فأبى، وأنشده:».

الروايات:

٢- ترتيب المدارك: أنْ أُقفّي

الأغاني: أنْ نقضّي.

١- الأغاني: قال الأديبُ... رآه الآخرون.

اللغة:

٤- فذاما: ماذا تسمّي ذلكَ ؟.

[٦]

وَرَدَ القاضي يَحيَى بنُ أكثم[٢] البصرة، فقالتْ زوجةُ أحمد: لو أتيت يحيَى فَسَألتَهُ، لِضُرٍّ أصابهم، فلم يجبها ثمَّ قال: (الطويل)

تُكَلِّفُني إذلالَ نَفسي لِعِزِّهَا
وهانَ عَليها أنْ أُهانَ لِتُكرَمَا

تقولُ: سَلِ المَعروفَ يَحيَى بن أكثمٍ
فَقُلْتُ: سَلِيهِ رَبَّ يَحيَى بن أكثما

التخريج: المُجالسة ٢٨٩، ترتيب المدارك ١٢/٤.

الثاني فقط لهُ في: أخبار القضاة ١٦٦/٢.

- لعبد الصَّمَد بن المُعَذَّل في: ديوانه ١٦٩.

[٧]

قال: (الطويل)

١- غزالٌ سقيمُ اللحظِ يُخفي أنينَهُ
ويُضحي كئيبَ البالِ عندي حَزينَهُ

٢- يلومُ على أنْ ظلتُ للعلمِ طالبًا
أُجَمِّعُ مِنْ عِندِ الرُّواةِ فُنونَهُ

٣- وأكتبُ أبكارَ الكلامِ وعُونَهُ
وأحفظُ مِمَّا أستفيدُ عُيونَهُ

فيا حاسدي دَعني أُغالِ بِقيمَتي
فقيمةُ كلِّ الناسِ مَا يحسنونَهُ

التخريج: لهُ في: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢٩٠/٢ - ٢٩١.

- للقاسم بن محمد بن القاسم الشريف الحسني المعروف بابن طباطبا، في: العقد الفريد ٢١٦/٢، المحاسن والمساوىء ١٢١/٢، الازدهار ٥٢، مع بيت آخر.

- لمحمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا (ت ٣٢٢هـ)، في: معجم الأدباء ٢٣١٤/٥، مع خمسة أبيات أُخَر. وأخلَّ بها مجموع شعره.

- ليَحيَى بن محمد الشريف بن طباطبا العلوي (ت ٤٧٨هـ)، في: معجم الأدباء ٢٨٢٩/٦،٥٥٦/٢.

اللغة:

١- العون: جمع عوان، المتوسطة في السن.

٢- العجز يشير إلى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «قيمةُ كلِّ امرئ ما يحسنه» شرح نهج البلاغة ٢٣٠/١٨.

الحواشي

(١) تصحّفَ والدهُ إلى (المعدّل) بالدال المهملة في: ديوان المعاني ١/١٢١، الثقات ٨/١٦، العبر ١/٤٢٤، شُعب الإيمان ٦/٢٣٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٢/١٨، ٥٢/١٢٢، زاد المعاد ٥/٦٦١، رحلة العبدري ١٨٧، مواهب الجليل ٦/٢٦٤.

وفي: درّة الغواص ٢٤٩: أحمد بن إبراهيم المعدّل ﻟ

ويُنظر: توضيح المشتبه ٨/١٢٣، تبصير المنتبه ١٢٩٩، إذْ نبّه مؤلفاهُما على هذا الخطأ.

(٢) تَرجَمَتُهُ وأخبارهُ في: طبقات ابن المعتز ١/٢٢٦، العبر ١/٤٣٤، سير أعلام النبلاء ١٠/٧-٨، تاريخ الإسلام (٢٣١-٢٤٠) ص ٥٢، الوافي بالوفيات ٨/١٨٤-١٨٥، الثقات ٨/١٦، الديباج المذهب ٣٠، شجرة النور ٦٤، تاريخ التراث العربيّ ٢-٤/٥٨.

(٣) ترجمته في: معجم الشعراء ١/٢٧٢، الأعلام ٧/٢٦٧.

(٤) ترجمته في: معجم الأدباء ٣/١٢٧٤-١٢٧٦، نور القبس ٩٧، إنباه الرواة ٢/٣٦، وفيات الأعيان ٢/٢٨٠، الأعلام ٣/١٠١.

(٥) بس: حَسْب.

(٦) جاء في: درّة الغواص ٢٤٩: «يقولون للمخاطب: هم فعلت وهم خرجت، فيزيدون (هم) في افتتاح الكلام وهو من أشنع الأغلاط والأوهام». وقيل هي لغة في (أما) الاستفتاحيّة، وقد تُحذف ألفُهَا. يُنظر: شرح درة الغواص ٢٢٤.

(٧) البخت: الحظُّ.

(٨) البصائر والذخائر ٦/١٧٩، نزهة الألبا ٩٢، تصحيح التصحيف ٥٢٢.

(٩) البيان والتبيين ١/١٠٢.

(١٠) تهذيب الكمال ١٦/٢٠٤.

(١١) ترجمته في: معجم الأدباء ٢/٦٤٧-٦٥١، العبر ٢/٦٧، الديباج المذهب ١/٢٨٢، الوافي بالوفيات ٩/٩١، بغية الوعاة ١/٤٤٢.

(١٢) ترجمته في: طبقات الفقهاء ١٦٤، الديباج المذهب ٩٢، العبر ٢/٦٧.

(١٣) سير أعلام النبلاء ١٠/٧.

(١٤) تاريخ الخلفاء ٢٤٦.

(١٥) كتاب بغداد ٢٣٠-٢٣٩.

(١٦) سير أعلام النبلاء ١٠/٧.

(١٧) سؤالات الآجري ٢/٧٠.

(١٨) المجالسة وجواهر العلم ٢٤١.

(١٩) محاضرات الأدباء ٢/١٢٠، المستطرف ٢/٢٠٧.

(٢٠) لمح المُلح ١٨٤. ونُسب القول إلى أخيه عبد الصّمَد في: لطائف اللطف ١٢٤.

(٢١) لطائف اللطف ١٢٥، وقد ورد فيه: «النساك الجهني» خطأ.

(٢٢) شيخ المحدثين الأثبات، كان فيه مزاح، توفّي سنة ٢٢٤هـ. ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٩/٤٨٠-٤٨٥، التاريخ الكبير ٤/٢٢٦، تهذيب التهذيب ٢/٩٨، العبر ١/٣٦٢، ميزان الاعتدال ٢/٢٢٥، تهذيب التهذيب ٤/٤٥٠، شذرات الذهب ٢/٢٨.

(٢٣) سورة البقرة ٦٧.

(٢٤) الجليس الصالح الكافي ١/٢٦٣ - ٢٦٤، تاريخ دمشق ٢٤/٣٦٦، سير أعلام النبلاء ١٠/٨.

(٢٥) تاريخ بغداد ٥/٤٨، البصائر والذخائر ٨/١٥٩، التذكرة الحمدونية ٩/٢٦٥.

(٢٦) المجالسة وجواهر العلم ٧٩، فتح المغيث ٢/٣٢٩، البداية والنهاية ١٠/٢٨٦، تاريخ الخلفاء ٤١٤.

(٢٧) ديوان عبد الصّمَد بن المُعَذّل ٧٨-٧٩.

(٢٨) يُنظر: أمالي القالي ١/١٠٦، البصائر والذخائر ٥/١٣، فصل المقال ٤٨٤، لحن العوام ٢٦٠، وفيه: «إنك قد خشنت بصدرٍ جيبُه لك ناصح». تصحيح التصحيف ١٠٩، وفيه: «..... بصدرٍ قلبُه...».

(٢٩) البصائر والذخائر ٥/٣٢، التذكرة الحمدونية ٥/١٢٥، تشبيهات ابن أبي عون ٢١٢، زهر الآداب ٦٥٢، وفي محاضرات الأدباء ١/٦٨٥: «قال بعضهم لابن له عاق».

(٣٠) ديوان عبد الصّمَد بن المُعَذّل ١٨٥.

(٣١) سورة الأعراف ٩٧.

(٣٢) جزءٌ من سورة الأنفال ٣٣.

(٣٣) لطائف اللطف ١٢٤، الوافي بالوفيات ٨/١٨٤.

(٣٤) طبقات الفقهاء ١٦٤، العبر ١/٤٢٤، سير أعلام النبلاء

١٠/٧.

(٣٥) سمط اللآلي ٥٤٩.

(٣٦) الفهرست ٣٩.

(٣٧) ترجمته في: التاريخ الكبير ٢/ ٨٠، الجرح والتعديل ١/ ٤٢٢.

(٣٨) من كبار حفاظ الحديث، سكن البصرة. ترجمته في: تاريخ بغداد ٩/ ٢٤، تهذيب التهذيب ٤/ ١٢٨، الأعلام ٣/ ١٢٥.

(٣٩) ترجمته في: تهذيب التهذيب ١/ ٢٩٧، الأعلام ٢/ ٢٨.

(٤٠) ترجمته في: تهذيب التهذيب ٥/ ٢٢٤.

(٤١) ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ١٦٦-١٦٧، مسالك الأبصار ٦/ ١٢٨-١٢٩، ترتيب المدارك ١/ ٢٦٠، نكت الهميان ١٩٧، الديباج المذهب ١٥٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٦٥٨-٦٥٩، العبر ١/ ٣٦٣، تهذيب التهذيب ٦/ ٤٠٧، شذرات الذهب ٢/ ٢٨، الأعلام ٤/ ١٦٠.

(٤٢) محاضرات الأدباء ٢/ ٤١٤-٤١٥.

(٤٣) طبقات الفقهاء ١/ ١٤٨، ترتيب المدارك ٤/ ٩، تهذيب التهذيب ٦/ ٣٦٢، نكت الهميان ١٩٧، وفيات الأعيان ٢/ ١٦٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٠، تاريخ الإسلام ١٥/ ٣٧٢، ميزان الاعتدال ٢/ ٦٥٩، رحلة العبدري ١٨٧.

وفي: وفيات الأعيان ٢/ ١٦٦، مسالك الأبصار ٦/ ١٢٩، أنّ القائل هو: يحيى بن أحمد بن المُعَذَّل.

(٤٤) وفيات الأعيان ٢/ ٢٧٧، ترتيب المدارك ٢/ ٢٦١، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٠، مسالك الأبصار ٦/ ١٢٩.

(٤٥) قاضي الرصافة ببغداد، وكان شاعرًا محسنًا فصيحًا. ترجمته في: تاريخ بغداد ٩/ ٢١٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٢، العبر ١/ ٤٤٤، تهذيب التهذيب ٤/ ٢٨٦، ٢٦٩، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٢١، شذرات الذهب ٢/ ١٠٨.

(٤٦) سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٤٤، الشعور بالعُور ١٤٢.

(٤٧) كانت له مكانة عند بني العباس في بغداد وسامراء. ترجمته في: شذرات الذهب ٢/ ١٥٢، الأعلام ٢/ ٣٧١.

(٤٨) ترجمته في: تاريخ بغداد ١٤/ ٢٨١، تذكرة الحفاظ ٢/ ١٤١، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٧، شذرات الذهب ٢/ ١٤٩، كشف الظنون ١٦٧٨، هدية العارفين ٢/ ٢٥٧، إيضاح المكنون ٢/ ٤٨٢، الأعلام ٨/ ١٩٩.

(٤٩) ترجمتهُ في: تاريخ بغداد ١٠/ ٤٢٥-٤٢٧.

(٥٠) الطيوريات ٨٨.

(٥١) ترجمتهُ في: إنباه الرواة ٢/ ٢٦٧، وفيات الأعيان ٢/ ٢٧.

(٥٢) حياة الحيوان الكبرى ٢/ ٢١٨.

(٥٣) وُلِدَ في البصرة سنة ٢٢٢هـ. ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٣، نور القبس ٢٤٢، العبر ٢/ ١٨٧، إنباه الرواة ٢/ ٩٢.

(٥٤) ديوان المعاني ١/ ١٢١.

(٥٥) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٨.

(٥٦) العبر ١/ ٤٢٤.

(٥٧) الحسن بن مالك، نزل البصرةَ ثم قَدِمَ بغداد، فأدَّبَ العباسَ بنَ المأمون، وكان أديباً شاعراً، راويةً، من أصحاب الأصمعي. ترجمتُهُ في: نور القبس ٢١٠، الوافي بالوفيات ١٢/ ٢٠٩-٢١٠، فوات الوفيات ١/ ٢٥٠-٢٥١.

(٥٨) نال به زهيرُ غازي زاهد الماجستير من جامعة بغداد، ١٩٦٧م. وطُبِعَ في النجف الأشرف، مطبعة النعمان، سلسلة: شعراء متمردون (١). ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

واستدرك عليه الدكتور نوري حمّودي القيسيّ أكثر من مئة بيت في مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢١، ج٢، ١٩٨٠م، ص ٢٠٦- ٢١٢.

ونشر الدكتور زهير مستدركاً على عمله في مجلة (كلية التربية)، جامعة البصرة، العدد ٧، ١٩٨٢م. وضمّ ١٥٢ بَيْتًا.

وعادَ الدكتور نوري القيسي فنشرَ مستدركاً ثانيًا في مجلة (المَورِد)، مج ١٨، العدد ٢، ١٩٨٩م، ص ١٦٠- ١٦١، نقلاً عن كتاب (الدر الفريد). وأعاد ذلك في كتاب: (المستدرك على صُنَّاع الدَّواوين، بغداد، ١/ ٢٦٠- ٢٦١) وضمّ ١٤ بَيْتًا (ط ٢، بيروت، ١/ ٢٨٥- ٢٨٧).

ثمّ أصدرَ د. زُهير غازي زاهد الديوان عن دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.

قلتُ: ولدينا ملاحظات ونظرات نقدية على آخر طبعة منه.

(٥٩) أعددنا تحقيق كتاب (الورقة)، وأضفنا له ٩٢ نصًا من القسم المفقود. وتقع ترجمة ابن المعذل برقم ٨. ويصدرُ الكتابُ عن دار الشؤون الثقافية العامّة في

بغداد.

(٦٠) فوات الوفيات ٢/ ٢٢٠.

(٦١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٢٤٦.

(٦٢) الموشح ٤٢٧.

(٦٣) من ذلك ما جاء في البيان والتبيين ٢/ ٢٠٦ قصيدة مطلعها:

تواعد للبين الخليط لينبتوا

وقالوا لراعي الظهر: موعدك السبتُ

والقصيدة ليست لهُ، فالبيتان الأوّل والرّابع لمحمد بن نُمير الثقفيّ في: شعراء أمويون ٣/ ١٢٢.

وورد في: شُعب الإيمان ٦/ ٣٣٣ أنه أنشد:

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائبًا

إليك، فلم تغفر لهُ فلكَ الذّنبُ

وهو لمحمد بن حازم الباهليّ (ت ٢١٨هـ) في: ديوانه ٢٢. فالبيت ليس لأحمد.

(٦٤) ترجمته في: أخبار القضاة ٢/ ١٥٥-١٥٦، الوافي بالوفيات ١٧/ ٢٠٥، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٤٨.

(٦٥) أمير البصرة، وليها في أيام المهدي، وعُزِلَ سنة ١٦٤هـ، وأعاده هارون الرشيدُ، وزوّجهُ أخته العباسة، واستمر في البصرة إلى أن تُوُفّيَ سنة ١٧٣هـ. ترجمتُهُ وأخبارهُ في: تاريخ بغداد ٥/ ٢٩١، الوافي بالوفيات ٣/ ١٢١، النجوم الزاهرة ٢/ ٤٧، البيان والتبيين ١/ ٢٩٥، ٢/ ١٢٩.

(٦٦) عيسى بن موسى بن أبي حرب البصري، قدم بغداد، وحدّث بها، توفّيَ سنة ٢٦٧هـ. تَرجَمَتُهُ وأخبارهُ في: تاريخ بغداد ١١/ ١٦٥.

(٦٧) عُمر بن عبد الوهاب أبو حفص الرياحي البصريّ (ت ٢٢١هـ). ترجمته في: التاريخ الكبير ٦/ ١٧٦، الثقات ٨/ ٤٤٥.

(٦٨) أبو أيّوب سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي البصريّ القاضي، سكن مكة وولي قضاءها سنة ٢١٤هـ، وعُزِلَ سنة ٢١٩هـ، فرجع إلى البصرة وتوفّي فيها سنة ٢٢٤هـ. ترجمته في: المعارف ٢٢٩، تاريخ بغداد ٩/ ٣٣، تهذيب التهذيب ٤: ١٧٨، الأعلام ٣/ ١٢٢.

(٦٩) ترجمته في: أخبار القضاة ٢/ ١٥٥-١٥٦، الوافي بالوفيات ١٧/ ٢٠٥، تهذيب التهذيب ٥/ ٢٤٨.

(٧٠) ولاهُ المأمون قضاء البصرة سنة ٢٠٢هـ، توفّي سنة ٢٤٢هـ. تَرجَمَتُهُ وأخبارهُ في: أخبار القضاة ٢/ ١٦١، وفيات الأعيان ٦/ ١٤٧، النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٧، ٢٠٨، العبر ١/ ٤٢٩، مرآة الجنان ٢/ ١٢٥، ميزان الاعتدال ٤/ ٢٦١، شذرات الذهب ٢/ ١٠١، الأعلام ٨/ ١٢٨.

المصادر والمراجع

- أبو هفّان شاعر عبد القيس في العصر العبّاسي حياته وديوانه: هلال ناجي، دار الزّمان، دمشق، ٢٠٠٨م.
- أخبار القضاة: أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيّ البَغْدَادِيّ المُلَقَّب بِـ «وَكِيع» (ت ٣٠٦هـ)، صحّحَهُ وعلّق عليه وخرّج أحاديثَهُ عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.
- الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق د. علي حسين البواب، المكتب الإسلامي، بيروت، دار الخاني، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمريّ (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- الأعلام: خير الدين الزركليّ (ت١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط٤، بيروت، ١٩٧٩م.
- الأغاني: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهانيّ (ت نحو ٣٥٦هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- أمالي القَالي: إسماعيل بن القاسم القَالي البغداديّ (ت٣٥٦هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل باشا الباباني البغدادي (ت١٣٣٩هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- البدايةُ والنهاية: ابن كثير الدمشقيّ (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق وتدقيق وتعليق عليّ شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- البصائرُ والذخائر: أبو حيّان التوحيدي (ت نحو ٤٠٠هـ)، تحقيق د. إحسان عباس و د. وداد القاضي، دار صادر،

بيروت، ١٩٨٨م.

- البيانُ والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨م.

- تاريخُ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبيّ (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ٢٠٠٠م.

- تاريخ بغداد: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تاريخ التراث العربي: فؤاد سزكين، نَقَلَهُ إلى العربية د. محمود فهمي حجازي و د. فهمي أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٧٨م.

- التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل البخاريّ (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق عبد الرحمن المعلميّ اليمانيّ المكّي، حيدر آباد، ١٣٦٠هـ.

- تاريخ مدينة دمشق: عليّ بن الحسن بن هبة الله الشافعيّ المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق عليّ شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، تحقيق محمد عليّ النجار، مراجعة عليّ محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت.

- التذكرة الحمدونية: ابن حمدون، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

- التذكرة الصلاحيّة: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفديّ (ت ٧٦٤هـ)، مصورة إدارة المخطوطات في وزارة الأوقاف الكويتية.

- ترتيبُ المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك: القاضي عياض بن موسى اليحصبيّ السبتيّ (ت٥٤٤هـ)، تحقيق عبد القادر الصحراوي، الشؤون الإسلامية، المغرب، ط٢، ١٩٨٢م.

- التشبيهات: ابن أبي عون (ت ٣٢٢هـ)، تصحيح محمد بن المعين خان، مطبعة كمبردج، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

- تصحيح التصحيف وتحرير التحريف: خليل بن أيبك الصّفديّ (ت ٧٦٤هـ)، حقّقه وعلّق عليه وصنع فَهارِسَهُ السيدُ الشرقاويّ، راجعهُ د. رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- تصحيفات المُحدِّثِين: أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكريّ (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق محمود ميرة، المطبعة الحديثة، القاهرة.

- التعديل والتجريح لمن خَرَّجَ لَهُ البخاري في الجامع الصحيح: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجيّ (ت ٤٧٤هـ)، تحقيق د. أبو لبابة حسين، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

- تقييد العلم: أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، ١٩٧٤م.

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمريّ (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلويّ و محمد عبد الكبير البكريّ، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.

- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، حيدر آباد، ١٣٢٥هـ-١٣٢٧هـ.

- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: الحافظ جمال الدين أبو يوسف المزّيّ (ت ٧٤٢هـ)، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم: شمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد القيسي الدمشقي، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.

- الثقات: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

- الجليس الصّالح الكافي والأنيس النّاصح الشّافي: أبو الفرج المعافَى بن زكريّا النهرواني الجريريّ (ت ٣٩٠هـ)، تحقيق د. محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت،

١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

- حياة الحيوان الكبرى: محمد بن موسى الدميري (ت٨٠٨هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٥م.
- دراسة في أدب أحمد بن يوسف الكاتب والشاعر: إعداد د. محمد يونس عبد العال، دار حرّاء بالمنيا، مصر، ١٩٨٦م.
- دُرّةُ الغوّاص في أوهام الخواص: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري (ت ٥١٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم ابن عليّ بن محمد بن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ديوان الصوري: عبد المحسن بن محمد (ت ٤١٩هـ)، تحقيق مكّي السيّد جاسم وشاكر هادي شكر، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٠-١٩٨١م.
- ديوان عبد الصَّمَد بن المُعَذَّل: حقّقَهُ وقدّمَ لَهُ د. زهير غازي زاهد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
- ديوان محمد بن حلام الباهليّ، صنعة شاكر العاشور، تموز للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١١م.
- ديوان المعاني: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (ت ٣٩٥هـ)، مكتبة القدسي، القاهرة،١٣٥٢هـ.
- الذخيرة في الفقه المالكي: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت ٦٨٤هـ)، بيروت.
- الذخيرة في مَحاسن أهل الجزيرة: عليّ بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، بيروت.
- ذيل تاريخ بغداد: ابن النجار البغدادي (ت ٦٤٢هـ)، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،بيروت.
- رحلة العبدري: محمد بن محمد بن عليّ العبدريّ (ت بعد ٧٠٠هـ)، حقّقها وقدّم لها د. إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزيّة (ت ٧٥١هـ)، ط ٢، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن عليّ بن تميم الحصريّ القيروانيّ (ت ٤٥٣هـ)، تحقيق عليّ محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٣م.
- سكردان السلطان: ابن أبي حجلة التلمساني (ت ٧٧٦هـ)، تحقيق د. علي عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- سمطُ اللآلي في شرح أمالي القالي: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م.
- سؤالاتُ أبي عبيد الآجري أبا داود سليمان بن الأشعث السجستانيّ في معرفة الرجال وجرحهم وتعديلهم، دراسة وتحقيق د. عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة دار الاستقامة، مكة المكرمة،مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن احمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الارناؤوط وزملائه، بيروت،١٩٨١-١٩٨٤م.
- شجرةُ النور الزكية في طبقات المالكيّة: محمد بن محمد مخلوف (ت ١٣٦٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- شرح دُرّة الغواص: شهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ)، مَطبعة الجوائب، استانبول، ١٢٩٩هـ.
- شرح ديوان جرير، تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.
- الشرح الكبير على متن المقنع: أبو الفرج عبد الرحمن ابن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسيّ (ت ٦٨٢هـ)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت.
- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٢م.
- شُعَبُ الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ (ت٤٥٨هـ)، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، بيروت، ١٤١٠هـ.
- شُعراء أُمويُّون: دراسة وتحقيق د. نوري حمّودي القيسيّ، المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- شعر ابن طباطبا العلوي،جمع وتحقيق جابر الخاقاني، دار الحرية للطباعة،بغداد، ١٩٧٥م.
- الشعور بالعُور: خليل بن أيبك الصَّفَديّ (ت ٧٦٤هـ)، حقّقه واستدرك عليه د. عبد الرزّاق حسين، دار عمّار، عمّان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- الصراط المستقيم: عليّ بن يونس العامليّ (ت ٨٧٧هـ)،

تحقيق تصحيح وتعليق محمد الباقر البهبودي، مطبعة الحيدري، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية.
- طبقاتُ الشعراء: عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ)، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٦م.
- طبقات الفقهاء: أبو إسحاق الشيرازيّ، هذّبَهُ: محمد بن جلال الدين المكرم ابن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧٠م.
- الطيوريّات: انتخاب السّلفيّ من أبي الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري الحنبليّ، القاهرة.
- فتحُ المغيث شرح ألفية الحديث: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- فصل المقال في شرح كتاب الأمثال: أبو عبيد البكري (ت٤٨٧هـ)، تحقيق د. إحسان عباس و د. عبد المجيد عابدين، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧١م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، المكتبة الإسلامية، تبريز ط٢، ١٢٧٨هـ.
- (كتاب) بغداد: أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور البغدادي الكاتب (ت ٢٨٠هـ)، نَشَرَهُ عن نُسخةٍ فريدةٍ وقدّمَ لهُ وجمع بعض نصوصه الضّائعة د. إحسان ذنّون الثامريّ، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- الكُنى والألقاب: الشيخ عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٧٦هـ/ ١٩٦٥م.
- اللآلي في شرح أمالي القالي: عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- لحن العوام: محمد بن حسن بن مذحج الزُّبيديّ (ت٣٧٩هـ)، تحقيق د. رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- لطائفُ اللطف: عبد الملك بن محمد النيسابوريّ الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق د. عمر الأسعد، دار المسيرة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- لمح المُلَح: سَعد بن عليّ الحظيري (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق د. عليّ عبد العظيم، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- المجالسة وجواهر العلم: أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوريّ المالكي (ت ٣٣٣هـ)، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- المحاسن والمساوىء: البيهقي، القاهرة، ١٣٢٤هـ.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: الأصبهاني (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق د. رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٤م.
- المحبُّ والمحبوب والمشموم والمشروب: السري الرفاء (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق مصباح غلاونجي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٦م.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان: عبد الله بن أسعد اليافعيّ (ت ٧٦٨هـ)، دائرة المعارف الإسلامية، حيدر أباد، الهند، ١٣٣٨هـ.
- المرقصات المطربات: ابن سعيد الأندلسيّ (ت ٦٨٥هـ)، تقديم وتحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل و د. عبد الحميد هنداويّ، دار الفضيلة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- المستطرفُ في كلّ فن مستظرف: محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي (ت ٨٥٤هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- معجمُ الأُدباء: ياقوت الحمويّ الروميّ (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩٣م.
- معجمُ الشُّعراء: المرزباني (ت ٣٨٤هـ)، تحقيق وتتمّة الدكتور عبّاس هاني الجرّاخ، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠١٠م.
- المُغني في فقهِ الإمام أحمد بن حنبل الشيبانيّ: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسيّ (ت ٦٨٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- المُفْهِم لِمَا أَشْكَلَ مِنْ تلخيصِ كتابِ مُسْلِم: أبو العبّاس أحمَدُ بنُ أبي حَفْصٍ عُمَرَ بنِ إبراهيمَ الحافظ الأنصاريُّ القرطبيُّ، القاهرة.
- مواهبُ الجليل: محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المعروف بالحطاب الرعينيّ (ت ٩٥٤هـ)، تحقيق ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- الموشح ؛ مآخذ العلماء على الشعراء: محمد بن عمران المرزبانيّ (ت ٣٨٤ه)، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ميزانُ الاعتدال في نقدِ الرجال: شمس الدين محمد بن

أحمد الذهبيّ (ت ٧٤٨هـ). تحقيق عليّ محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٣م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ). مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م.

- نزهة الألبّا في طبقات الأدباء: أبو البركات الأنباريّ (ت٥٧٧هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٧م.

- نَكْتُ الهِميان في نُكَتِ العِميان: خليل بن أيبك الصَّفَديّ (ت ٧٦٤هـ). وَقَفَ على طَبْعِهِ أحمدُ زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

- نور القبس المختصر من المقتبس: الحافظ اليغموريّ (ت٦٧٣هـ). تحقيق رودلف زلهايم، فيسبادن، ١٩٦٥م.

- هدية العارفين ؛ أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل باشا البغداديّ (ت ١٣٣٩هـ). دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصَّفَديّ (ت ٧٦٤هـ). تحقيق مجموعة من المحقِّقين المستشرقين والعرب، جمعية المستشرقين الألمانية، فرانز شتاينر، اسطنبول وبيروت.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أحمد بن محمد ابن خلّكان (ت ٦٨١هـ). تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،١٩٦٨م.

- يتيمة الدهر: عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت٤٢٩هـ). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٦م.

شعرية التناص في مرثية ابن الرومي للبصرة

الأستاذ/ محمد عبد البشير مسالتي
جامعة فرحات عباس- سطيف- الجزائر

المقدمة

وجدت القراءة العربية الحديثة في الشعر العباسي عبر مسارها الطويل ميدانا خصبا لتطبيق أدواتها الإجرائية، ورؤاها المعرفية، فالشعر العباسي نص متميّز متفرد، له من خصوصية الأصالة والتفرد القسط الوافر، وهذا ما جعله نصاً لا يرفض أي قراءة تحاول أن تستنطق جوانبه من أجل الكشف عن بعضها، أو محاولة استنطاق ما غمض منها، ومن ثم ثبت أنّ النصّ الشعري العباسي نصٌ متمنع دائما، وتلك خاصيّة النُصوص الإبداعية الراقية ذات البعد الإنساني.

والقول الحق إنّ العصر العباسي هو العصرٌ الذهبي للشعر العربي، ففيه ازدهـرت الحركة الشعرية و تبلورت، و تشعبت إلى تيارات عدّة، وانفتحت على آفاق معرفية، و حقول علمية شتّى، ولا جدال في أنّ الظروف السياسية والاجتماعية التي كان يعيشها العصر كان لها عميق الأثر في بروز أشكال وخطابات أدبية جديدة؛ فما يميز الحركة الشعرية لذلك العصر أنّ الشعر أضحى وثيقة تاريخية تنضاف إلى صفته الفنية الجمالية، إلاّ أنّ هذا التجدد لم يكن اعتباطيا بل كان طبيعيا مادام أن المجتمع العربي أطل على دنيا غير دنياه السابقة، دنيا جديدة، حملت معها فتنا، وحروبا أهلية، وقد كان للشعراء حضورهم، ودورهـم، بل كان لعدد منهم مواقف مشهودة، وموثقة تاريخياً؛ وفي طليعة هذه الخطابات الشعرية، نجد شعر رثاء المدن، بحيث أذكت نكبات، ومصائب ذلك العصر مواهب الشعراء وعمقت تجاربهم الشعرية. وفق هذا الطرح تولد انشغالنا العميق ورغبتنا الملحة في معالجة جزء من تراثنا الشعري العربي الذي صور عبر العصور جانباً هاماً من جوانب الحياة الإنسانية؛ والدراسة بذلك تسعى لمقاربة قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة مقاربة تناصية ولكن الرؤى التي تحكم هذه القراءة جديدة وطازجة ومهمة، مشغولة على تفاعل القديم(الخطاب)،

مع الحديث (المنهج) لتوليد الجديد المرتقب.. ويمكن أن نشير إلى بعض المعطيات النظرية، والملاحظات المتواضعة، التي تشكل تمهيداً لتحليل ظاهرة التناص في قصيدة ابن الرومي.

١- التناص من المفهوم إلى الإجراء:

التناص مصطلح من المصطلحات المستحدثة في الأدب، والنقد، ويعود المصطلح **لغوياً** إلى مادة (نصص)، حيث تنتمي جميع اشتقاقاتها إلى حقل دلالي واحد ففي **القاموس المحيط للفيروزآبادي**: «(تناص) القوم»، عند اجتماعهم»[١]، ويلاحظ احتواء مادة (تناص) على (المفاعلة) بين طرف، وأطراف أُخر تقابله، يتقاطع معها، ويتمايز، أو تتمايز هي في بعض الأحيان. أما عن مفهوم التناص **اصطلاحاً** فهو في رؤية الباحث **عبد الله الغذامي** مصطلح سيميولوجي (وتشريحي) أو تفكيكي؛ ويفضل تسميته (بالنصوص المتداخلة) ترجمة للمصطلح الغربي (Intertextuality)، والأهم من ذلك أنه يسوق تعريف «شولز» له، الذي يؤكد به رؤيتين؛ إحداهما منهجية تتعلق بأن التناص مصطلح سيميولوجي (كما أنه في رؤية الغذامي علاوة على ذلك تشريحي)، والأخرى أنّ التناص يتم بوعي، وبغير وعي، وفي هذا يقول **شولز**: « النصوص المتداخلة اصطلاح أخذ به السيميولوجيون مثل بارت، وجينيت وكريستيفا وريفاتير، وهو اصطلاح يحمل معان وثيقة الخصوصية، تختلف بين ناقد وآخر، والمبدأ العام فيه هو أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى، مثلما أن الإشارات (Signs) تشير إلى إشارات أخرى وليس إلى الأشياء المعنية مباشرة، والفنان يكتب ويرسم، لا من الطبيعة، وإنما من وسائل أسلافه في تحويل الطبيعة إلى نص؛ لذا فإنّ النص المتداخل هو: نص يتسرب إلى داخل نص آخر، ليجسد المدلولات، سواء وعى الكاتب بذلك أم لم يعِ[٢].

والنص حسب **محمد مفتاح**: « فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة»[٣]، وعلى العموم فالتناصّ يتعايش مع الشعر، ويمنحه ثوباً جديداً، وينمّي فاعليته التواصلية، وهذا ما أشار إليه الباحث عبد الله الغذامي بقوله: «وعلى ذلك فإن النصّ يقوم كرابطة ثقافية، ينبثق من كلّ النصوص، ويتضمّن، مالا يحصى من النصوص، والعلاقة بينه، وبين القارئ هي علاقة وجود؛ لأنّ تفسير القارئ للنصّ هو ما يمنح النصّ خاصيته الفنّيّة»[٤].

وتأسيسا على ماسبق فإنّ « فهمنا، واستيعابنا للنص الذي نواجهه يتوقف في كثير من الأحيان على قدرتنا على التعرف على النص الذي أزاحه، أو الذي حل محله. ليس فقط لأن جدلية النص "الحال"، والنص "المزاح" جزء لا يتجزأ من تكوين النص نفسه، ولكن أيضا لأن فاعلية الجدلية تعود إلى ما قبل تخلق أجنة النص الأولى، وتترك ترسباتها في شتى طبقات النص سواء، أوعى النص ذلك، أم لم يعه»[٥]. وللتناصّ عند شاعرنا في هذه القصيدة أهمية خاصة في الكشف عن البنية العميقة، وكشف العلاقات التي تربط النصّ الشعريّ الحاضر بالنصوص الغائبة، وهنا يعمد الخطاب الشعريّ، إلى توجيه قوّة ضاغطة، خفيّة تدفع المتلقيّ إلى استحضار النصّ الغائب من خلال بعض الإشارات، والتضمينات لبعض المفردات، والتراكيب، وعلى هذا الأساس سنتناول هنا تجليات التناص وأشكاله المختلفة في البنية التركيبية للقصيدة، والعوامل التي ساهمت في

تكوينه، والخلفية الثقافية التي نتج عنها، ومدى مساهمة هذه الخلفية الثقافية في إضفاء دلالات واسعة على نصنا.

٢- التجليات التناصية: وفيما يلي أهم أنماط التناص في القصيدة:

٢/أ- التناص القرآني (الاقتباس):

التناص القرآني هو اقتباس عند القدماء «وهو أنْ يُضمّن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من كتاب الله تعالى.....»[٦]؛ وقد شكل القرآن الكريم منبعاً ثرياً لقرائح الشعراء في مختلف العصور، فتأثروا به مباشرة، واستفادوا من الأحكام، والتشريعات الإسلامية المستنبطة منه، غير أنّ التأثر بالقرآن الكريم، والأحكام الإسلامية عامة يتباين بتباين العصور، ويختلف في العصر الواحد بين شاعر وشاعر، كما يتباين بتباين موضوعات الشعر، وأغراضه المختلفة وهو«لا يحيل إلى تدين الشعراء إنما يحيل إلى مصدر أساسي من مصادر ثقافتهم، وغرض قصيدتنا- رثاء المدن- من أكثر الأغراض الشعرية اتكاء على القرآن الكريم، وما تضمنه من أحكام، ومواعظ، وتشريعات، لا يضاهيه في ذلك سوى الشعر الديني الخالص، وشعر الزهد أحياناً»[٧].

إنّ وجوه الاستفادة من القرآن الكريم، وأحكام الشرع الإسلامي في قصيدتنا متعددة، وكثيرة بحيث لا تكاد تخلو وحدة من وحدات النص من نماذج عدة من تلك الاستفادة مباشرة- أي اقتباساً من القرآن الكريم-، أو بشكل غير مباشر- أي عن طريق المفاهيم الإسلامية، والأحكام، والتشريعات-، يقول **العقاد** متحدثا عن معجم ابن الرومي:« أما لفظه من حيث هو صحيح، وخطأ فلفظ عالم بالنحو، مطلع على شواهد العربية، ولا سيما القرآن...»[٨]، ومن أهم صور الاقتباس في هذه القصيدة نذكر قوله:

١٧- أيَّ هـولٍ رأوا بهم أيَّ هول
حُـق منه تشيب رأسُ الغلام

يحاول ابن الرومي في هذا البيت أنْ يرسم صورة الفزع؛ وأيّ فزع عظيم، هذا الذي دبّ في روع أهلها، فابيضت لشدته رؤوس الغلمان، وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾[٩]، ويقول أيضا مبينا هول الفتنة؛ حيث امتشق الزنوج سيوفهم علانية مما أرعب النساء، فأسقطت الحوامل منهن قبل أن يحين موعد الإنجاب:

١٥- طلعوا بالمهندات جهرًا فألقت
حملها الحاملات قبل التمام

ويحيل هذا البيت إلى قوله: تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[١٠]. وفي بيت آخر لابن الرومي يقول فيه:

٢٧- صبّحوهُمْ فكابدَ القومُ منهم
طول يومٍ كأنّه ألفُ عام

تتجلى في هذا البيت ترجمة الوضع النفسي في الصورة التي رسمها ابن الرومي للحظات القلق والاضطراب والخوف التي عاشها البصريون في يوم محنتهم على يد الزنج، والتي يلتفت فيها إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[١١].

وتتبلور الدلالة التناصّية على أشدّها في الأربع وحدات الأخيرة من قصيدتنا، نتيجة لاعتماد الشاعر على المفردات والتراكيب من ناحية، واستدعائه لسلسلة من الآيات القرآنية، ذات الأبعاد الإنسانية المتعدّدة من ناحية ثانية. وهنا تكثر الدفقة الشعرية بمجموعة تناصّات؛ يتمّ فيها حضور الخطاب القرآني حضوراً جماعياً، لشحن العبارة بكمّ هائل من القداسة والإيحاء، يقول في وصف مظاهر الحضارة بالبصرة:

٤٢- أيـن فـلـكَ فيـها وفـلـك إليـهـا

مـنـشـآتٌ فـي الـبـحـر كـالأعـلام؟

وفي القرآن الكريم: ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾[12]، وهكذا نلاحظ أنّ الشاعر قد استقى قافيته، بإيقاعها ودلالتها من سورة الرحمن من خلال دالة «الأعلام»، ويقول- أيضا- مستفهما عن التبرير، الذي يقدمه، وأهله حين يناديهم الله يوم الحساب على مرأى، ومشهد من الناس:

٦٠- أيُّ عـذرٍ لـنـا وأيُّ جـواب

حـيـن نُـدعـى عـلـى رؤوس الأنـام

وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[13].

وفي المحاكمة التي يتصورها ابن الرومي عندما يحاسب الله عباده، وعندما يسأل النبي (صلى الله عليه وسلم) أبناء ملته عما فعلوه لمنكوبي البصرة إحالة إلى المعاني الإسلامية واضحة الدلالة، والأبعاد، إنّهم مسؤولون (لأن الأديان كالأرحام):

٥٩- واحـيـائي مـنـهـم إذا مـا ألـتـقـيـنا

وهـمُ عـنـد حـاكـم الـحُـكّـام

٦٠- أيُّ عـذرٍ لـنـا وأيُّ جـواب

حـيـن نُـدعـى عـلـى رؤوس الأنـام

٦٢- أخـذلـتـم إخـوانـكـم وقَـعـدتـم

عـنـهـمُ- ويـحـكـم- قـعـودَ الـلّـئـام؟

وفكرة هذه المحاكمة سُبق إليها ابن الرومي، تقول ابنة عقيل ابن أبي طالب بعد مقتل الحسين:

مـاذا تـقـولـون إن قـال الـنـبـيّ لـكـم

مـاذا فـعـلـتـم وأنـتـم آخـر الأمـمِ ؟

بـعـتـرتـي وبـأهـلـي بـعـد مـفـتـقـدي

مـنـهـم أسـارى وقـتـلى ضُـرّجـوا بـدمِ[14]

وتأسيسا على ما تقدم نلحظ أنّ الاستدعاء التناصي القرآني (الاقتباس) في هذه القصيدة دار أغلبه في حيز التجلي لا الخفاء، بمعنى أن تناص ابن الرومي كان مع الآيات سبيلا إلى المضمون، فتمثّل الشاعر النص القرآني دالاً سيميولوجياً، وأسلوبياً مقنعاً لِمَا أراد أن يطرحه في تحولات خطابه الشعري من ديني تاريخي، إلى سياسي، اجتماعي، أخلاقي.

يقول الباحث **عبده بدوي**: «على أنه مما يلاحظ أنّه في هذا الجانب يستخدم صورا دينية كثيفة»[15]، ومن هنا تتبدى لنا أولى مظاهر وعي ابن الرومي بما يمكن أن أسميه «التجريب الإيقاعيّ»، وفق التناص القرآني الفاعل؛ اتّساقاً مع بواعث نفسيّة وإبداعيّة؛ وفق تحوُّلاتٍ من خطاب ديني يتداخل بتداعيات متباينة في حوار يسقطه الشاعر على خطاب سياسي، واجتماعي، تلعب فيه اللغة أصواتاً، وإيقاعاً دور البطولة، في منظومة التناص؛ التي تحمله هذه الخطابات المتباينة.

ونحس ونحن نقرأ هذه القصيدة أنّ ابن الرومي

كان يدرك أهمية هذه الآلة البلاغية في الإخبار، والتبليغ، والإقناع، والتأثير، لذلك جاء شعره يعبق لذة، لتوفيقه في استخدام الآيات القرآنية، وحسن استعمالها في مواضعها. ويتلقف شاعرنا ما يضمه الخطاب الديني لغةً، وإيقاعاً مسجوعاً جاء تعبيراً عن مضامين، ومشاهد أُخروية، ليسقطها- عبر خطابه البكائي الاستصراخي - على واقع أمته المنكوبة بأبنائها، مشكّلاً خطابية وفق التركيب الصوتي للقرآن الكريم؛ يقول:

٧٥- أنفروا أيها الكرامُ خفافًا
وثقالاً إلى العبيد الطُّغام

يقول عبده بدوي معلقاً على هذا البيت:«فهو قادم من المناخ الديني الذي مرّ بنا- المتعلق بالوحدة السابقة- وهو الذي حرك به المشاعر، ولهذا كان من الطبيعي أن ينظر إلى قول الله تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١٦]، والأبيات كما يلاحظ تستثير الحماس الديني لدى المسلمين»[١٧]. و من صور التشاجر القرآني في قصيدتنا؛ قوله حاضا على جهاد صاحب الزنج، وأنصاره يقول:

٧٩- لم تقرُّوا العيونَ منهم بنصرٍ
فأقرُّوا عيونهم بانتقام

إنه يرتكز على قوله تعالى: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[١٨].

ويرمي ابن الرومي في آخر بيت من القصيدة إلى أن يكون الكفاح بداية، وفاتحة الطريق، وأن تكون الثورة هي الخيار الأمثل الذي يمثل طريق العودة؛ لذا نجده يستأنس باستخدام الأسلوب القرآني في بناء القفل- البيت الأخير من القصيدة- مع التغيير في مفرداته بما يتوافق ومدلول نصه، يقول:

٨٦- فاشتروا الباقياتِ بالعَرض الأدْ
نى وبيعوا انقطاعه بالدوام

ويحيلنا هذا البيت إلى عديد الآيات القرآنية المتضمنة معنى الجهاد الديني، والإقبال على الآخرة، منها قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾[١٩]، كما تتجلّى في قصيدتنا فاعلية الامتصاص الشعريّ لبعض التراكيب، والمفردات القرآنية، وظّفها ابن الرومي بصياغة جديدة، ممّا أكسبها نوعاً من الخصوصية والتميزّ، وكأنّ التناصّ هنا لم يعتمد التضمين المباشر فقط أي «التضمين اللفظيّ»، أو الوظيفيّ»، وإنما اعتمد أيضا على نوع من التمثّل الرمزيّ، أو الخفيّ لبعض التراكيب، والمفردات القرآنية، بشكل يثير في نفس المتلقّي قدرة إيحائية خاصة، تمكّنه أن يستجلي النصّ الشعريّ، ومدى تأثره بالنصّ القرآني، ومدى استقطابه لبعض اللمحات، والومضات القرآنية، التي توسّع فضاء قصيدته، وتغني تجربته كلّها، «والذي يجب الإشارة إليه أن التناصّ بالمفردات، لا يمكن الاعتماد عليه في رصد المحاور وتداخلاتها في النصّ أحياناً، إلا إذا كانت هذه المفردات تستحضر صوراً»[٢٠]، ومن التراكيب، والمفردات التي استدعت صوراً تناصية قوله:

٢١- كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعًا
تَرِبَ الخدِّ بين صرعى كرام؟

وهذا يحيلنا إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة الحاقة: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ

شعرية التناص في مرثية ابن الرومي للبصرة

أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[21]، وفي تناص آخر على مستوى التراكيب، يقول:

٧- وتسمَّى بغير حق إماما

لا هدى الله سَعْيه من إمام

فالتركيب الأول «**بغير حق**» تكرر في القرآن الكريم في مواضع خمسة؛ ثلاثة منها في سورة آل عمران (الآيات:٢١-١٢١-١٨١)، ومرة في سورة الحج (الآية٤٠)، وأخرى في سورة النساء (الآية ١٥٥). أما التركيب الثاني «هدى الله» والذي تكرر في القرآن الكريم في عديد الآيات منها قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾[22]، ونجد هذا التركيب أيضا في الآية ١٤٣ من سورة البقرة، والآية ٣٦ من سورة النحل؛ غير أنّ المفارقة تتفجّر في التركيب الثاني «هدى الله» من خلال المخالفة التصويرية بين النصّين «القرآنيّ والشعريّ». فالشاعر استدعى التركيب القرآني بمضمونه الفكري، ووظفه في إطار بنائيّ أو إيقاعيّ مخالف تماماً للنصّ القرآنيّ، من ناحية المضمون: السلب والإيجاب، إذ وظفه بأسلوب النفي« لا هدى الله....».

ومن المفردات والتراكيب المندرجة في هذا الإطار قوله مكررا دالة «سلام» في إطار دعائه على عظام القتلى الطاهرة، بأن يمن الله عليها سلاما منقطع النظير:

٧٤- وعليها من المليك صلاةٌ

وسلامٌ مؤكَّدٌ بسلام

وفي القرآن الكريم: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[23] . ومن صور التناصّ على مستوى المفردات والتراكيب، قوله:

٧٦- أبْرَمُوا أمرهُم وأنتم نيامٌ

سوءةً سوءةً لنوم النيام

ويحيلنا هذا البيت إلى قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾[24] ومن باب تكريس النادر على حساب الشائع استعماله دالة «الخلد» مصدرا بديلا «للخلود»، يقول:

٨٥- لا تطيلوا المقامَ عن جنة الخلـ

د فأنتم في غير دار مقام

ويرى الباحث محمد الهادي الطرابلسي أنّ المصدر «**خلود**» أكثر شيوعا إذا ما قيس **بالخلد**»[25]، أما استعمال ابن الرومي لهذا المصدر فيمكن أن نعزوه إلى:

- حرص ابن الرومي على سلامة الوزن (باعتبار أن الكلمة وقعت في بيت مدور).
- احتفاظ ابن الرومي بنفس من الدين، ذلك أن هذا المصدر ورد في القرآن الكريم، من خلال قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾[26]، «ويدخل هذا الإجراء في باب تعميم الخصوص ذلك أنّ «الخلد» يقترن بالجنة كثيرا وينزع إلى الاختصاص بها»[27]، فيكون ابن الرومي بذلك -كما سبق وان أشرنا إلى ذلك- مؤثرا لهذا المصدر لاحتفاظه بنفس من الدين. من هذا المنطلق شكلت الصيغ/ التراكيب القرآنية في نصّ ابن الرومي بؤرة دلالية، استقطبت الإيقاع، والبناء في آن، لهذا كان تمثّل القرآن في هذا النصّ جلياً أمام القارئ. يستخلص مما مرّ أن نص ابن الرومي قد تأثر بالجو الإسلامي، ومناخه، وروحه في المعنى، واللفظ وطريقة التناول

معاً، فتجلت – بذلك – البنية القرآنية في القصيدة، أو لنقل إنّ النص امتصها على أنحاءٍ مختلفة.

٢/ب-**التناص الداخلي**: وهو التناص الذي يكشف لنا علاقة نصوص الكاتب التي نحن بصدد دراستها بنصوص معاصريه، وبخاصة إذا كان هؤلاء: «قد انطلقوا في إنتاج نصوصهم المتناصّة مع نصوصه، من خلفية مشتركة»[٢٨]، وعلى العموم فوحدة **التجربة الإنسانية**[٢٩]، مهما اختلفت زاوية النظر إليها تؤدي حتماً إلى وحدة بعض الأفكار، وتشابه بعض الصور، وتماثل بعض التراكيب، والتعابير التي تتناول تلك التجربة، وتتحدث عنها، وتصف آثارها[٣٠]».

وقد رأى علي بن أمية أن أيام النكبة البغدادية نقلت الأطفال إلى الشيب، والشيخوخة لشدّتها، وقسوتها، ومرارة لحظاتها:

ومنها هناتٌ تشيب الوليدَ

ويخذل فيها الصديقَ الصديقُ[٣١]

وهذا ما رآه ابن الرومي في أهوال دمار البصرة على يد الزنج، وصاحبهم:

١٧- أيّ هولٍ رأوا بهم أيّ هول

حُق منه تشيب رأسُ الغلام

وتأسيسا على هذا فتأثر شاعر بآخر، واستفادته من أفكاره، وطريقته، وصوره أمر لا يمكن إنكاره، وبالمقابل فإنّ وقوع شاعرين على معنى واحد، أو صورة مشابهة، أو تعبير مشترك أمر لا يمكن ردّه أيضاً، خصوصاً عندما **يكتوي الشاعران بنيران تنور واحد ويعالجان موضوعاً مشتركاً**[٣٢]، وفي قصيدتنا تتكرر صورة الدعاء بالسقيا، وإلى جانبها استفادة من الموروث الديني تمثلت بالصلاة على أرواح القتلى، والسلام لهم، وعليهم:

٧٣- بأبي تلكم العظامُ عظامًا

وسَقَتْها السماءُ صَوْبَ الغمام

٤٧- وعليها من المليك صلاةٌ

وسلامٌ مؤكَّدٌ بسلام

و قد ترددت صورة الدعاء بالسقيا في ثرج القصائد التي تناولت نكبة البصرة، كما في

و وقد ترددت صورة الدعاء بالسقيا في ثرج القصائد التي تناولت نكبة البصرة، كما في بائية السدوسي الذي بكى، واستبكى في نكبة مدينة البصرة:

فيا أرضَهم أخلوك فابكي عليهمُ

وجودي عليهم يا سماءُ وصوبي

إذا الدمعُ لم يُسعد كئيباً فإنني

سأبكي وأبكي الدهرَ كلَّ كئيبِ

على دِمَنٍ جرّت بها الريح بعدنا

ذيولَ البلى من شمالٍ و جنوبِ[٣٣]

ومن التناصات الداخلية أيضا الوقوف على الأطلال- وإن كنا سنفرد له حيزا آخر- يقول:

٣٩- عرّجا صاحبيَّ بالبصرة الزّهـ

ـراء تعريجَ مُدْنَفٍ ذي سقام

٤٠- فاسألاهُ ولا جوابَ لديها لديْه

لسؤالٍ ومَنْ لها بالكلام

ويقول: ونجد مثل صنيع ابن الرومي عند الشاعر يحيى بن خالد بن مروان الذي وقف في نكبة البصرة أمام صورة الصمت المعبرة عن وضع المدينة المنكوبة، يقول[٣٤]:

أين لي جواباً أيها المنزل القفر

فلا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

أين لي عن الجيران أين تحملوا؟

وهل عادت الدنيا وهل رجع السفرُ؟

وكيف تجيب الدار بعد دروسها؟

ولم يبقَ من أعلام ساكنها سطرُ

منازل أبكاني مغاني أهلها

وضاقت بي الدنيا وأسلمني الصبرُ[٣٥]

كما نلحظ أنّ تكرار صيغة «الخائن اللعين» لا تقف في إطار النص فحسب بل تتعداه إلى بيئة ابن الرومي حيث أنّ هذه النبرة كانت شائعة عند الكتاب الذين كتبوا عن صاحب الزنج؛ وزعيم الفتنة[٣٦]، يقول ابن الرومي:

٦٠- أقدم الخائنُ اللعينُ عليها

وعلى الله أيّما إقدام

٨٢- إن قعدتمْ عن اللعين فأنتم

شركاءُ اللعينِ في الآثام

وفي نفس الفتنة أيضا - أي نكبة البصرة- يمزج المهلبي تعريضه بقائد الزنج بتهديده له، ومحاججته إياه، وقد ادعى الانتساب إلى آل النبي صلى الله عليه وسلم من خلال ادعائه الانتساب للبيت العلوي يقول:

أيها الخائن الذي دمّر البصـ

ـرة أبشر من بعدها بدمارِ

إن تقل جدي النبي فما أنـ

ـت من الطيبين والأخيار[٣٧]

ويقول ابن المعتز- بعد أن عدّد أسماء المتمردين الخارجين على سلطة الخلافة وطاعتها- مبينا ما كان من المعتضد، وصاحب الزنج:

فلم يزل بالعلوي الخائنِ

المهلك المُختَرِب للمدائنِ[٣٨]

ويقول أحدهم:

أين نجومُ الكاذبِ المارق؟

ما كان بالطبِ ولا الحاذقِ[٣٩]

وفي صوت آخر يجعله ابن الرومي على لسان النبي ما يذكرنا بـ«وامعتصماه» التي قالتها امرأة شريفة في الأسر عند علج من علوج الروم في عمورية، واستخدمها من قبل استخداما ذكيا أبو تمام»[٤٠]، يقول:

٧١- صرخت: يامحمداه، فهلاً

قامَ فيها رعاةُ حقّي مَقامي.

وبذا شكلت وحدة التجربة الإنسانية رافداً من روافد بنية القصيدة. غير أنّ ابن الرومي اعتمد فيما تبقّى على ذوقه، وتفاعله مع الحدث، معولا على نفسه في استنباط الطرائق التي يصوغ فيها أبياته. وعلى العموم ففرض رثاء المدن عبر محاكاة الواقع في المدن المنكوبة نجده قد كان صاحب السبق في شيوع أسلوب التشابه بين الشعراء[٤١].

٢/ج- التناص المفتوح (التناص الخارجي): «وهو تداخل النصوص التي يمتلئ به العالم، ولا يرتبط بدراسة علاقات النص بنصوص عصر معين، أو جنس معين من النصوص، بل هو تداخل حر يتحرك فيه النص بين النصوص بحرية تامة، محاولا أن يجد لنفسه مكانا في هذا العالم»[٤٢]، ويمكن أن نستشف هذا النمط من التناص في علاقة قصيدتنا بالمعلقات، وخصوصا

فيما يتعلق بمعلقة الحارث بن حلزة اليشكري؛ فيكفي أن نقرأ البيت السادس والسبعين (٧٦) من قصيدتنا، وهو:

٧٦- أَبْرَمُوا أمرهُم وأنتم نيامٌ
سوءةٌ سوءةٌ لنوم النيام

حتى يبدأ في مخامرتنا حسّ غريب بأننا قد سمعنا هذا من قبل، يقول الحارث بن حلزة اليشكري:

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء[١٣]

والحاصل أننا إذا ما مضينا نقرأ القصيدة، ونتلقى قوافيها الواحدة بعد الأخرى، أخذ هذا الإحساس يتضاعف، يقول الباحث عبده بدوي: «ويلاحظ أنه في هذا القسم - أي الوحدة الأخيرة الممتدة من البيت (٧٦) إلى البيت الأخير من القصيدة- تهب عليه رياح من همزية الحارث بن حلزّه اليشكري؛ التي هي من البحر الخفيف كذلك»[١٤]، وهكذا يظهر لنا مدى التقارب، أو التماثل بين النصّين رغم اختلاف رويهما، الأولى: همزية، والثانية ميمية؛ إلا أنهما تلتقيان في حركة القافية، وحركة التفعيلة الأولى: «فاعلاتن».

عطفا على تواشج القصيدتين في القافية، والبحر فإنهما يصدران عن منهل شعري فائض- توازي الفكرة، وتناظر الرؤية-؛ حيث يضع ابن الرومي من معاني الحزن ما يناظر معاني الشاعر الأول- الحارث بن حلزة اليشكري- وإن اختلفت دواعيه عند الشاعرين. غير أنّ ابن الرومي في القسم الأخير من قصيدته- من البيت(٧٥) إلى البيت (٨٦)- فتق المعاني، وفرّعها، وجاء بصور شعرية جديدة.

صحيح أنّ قصيدة ابن الرومي أفادت من معلقة الحارث بن حلزة،- وهذا أمر نسلم به- ولكننا يجب أن لا نغفل عن شيء مهم جدا «وهو أنّ القصيدة المتأخرة، تعطي للسابقة مثلما تأخذ منها. وهذه هي العلاقة التشريحية التي تنبثق من المداخلة بين النصوص»[١٥]، إننا نستكشف معلقة الحارث بن حلزة من خلال قراءتنا لقصيدة ابن الرومي، فابن الرومي إذاً سبب في استحضار الحارث بن حلزة، وهذه وحدها إضافة كبيرة لها؛ لأنها تهب معلقة الحارث حياة جديدة يبعثها من النسيان، وغير ذلك هناك إضافات عملية عليها، فهي امتداد لها، وتطور لإشاراتها، وبذا تقوم بين القصيدتين علاقة تطورية متشابكة وبناءة، لعصرين مختلفين، فإحداهما تقوم كخلفية للأخرى، وهذه تقوم كأمامية لتلك، فيتداخلان في ذهن القارئ تداخلا يوحد بينهما .وعلى الجملة فإنّ في تضمين ابن الرومي لأشطار من معلقة الحارث بن حلزة نموذج من نماذج التأثر، والاستفادة من الآثار الممتازة، وتلك ظاهرة طبيعية لا يخلو منها زمان، ولا مكان.

كما يتبدى لنا هذا النمط من التناص- أي التناصّ المفتوح- في تعانق القصيدة بخاصية من خصائص المعلقات وهي الوقوف على الأطلال، حيث استدعى الشاعر في نسيج نصه الطريقة الفنية التي اتبعها بعض أصحاب المعلقات في بناء أعمالهم الشعرية، وقد عالج جلّ شعراء الجاهلية - إن لم نقل كلهم- في مستهل قصائدهم قصة الدار الدارسة، فوصفوها، وحدّدوا معالمها، وتفنّنوا في تحديد مواضعها، والإشارة إلى ملامحها التي تدلّ على وجودها في الزمن الماضي، الذي له علاقة

شعرية التناص في مرثية ابن الرومي للبصرة

حميمة بذكرياتهم؛ ولقد تجلّى أثر الصورة الطللية في **أشعار نكبة البصرة** أكثر مما تجلّى في أشعار نكبة بغداد الأولى، وهذا ناتج عن وضعية المدينتين في أثناءِ نكبتهما، وبعدهما، فالبصرة دمّرت خلال أيام مما جعل نكبتها مشهداً طللياً لاقتراب زمني البداية، والنهاية، ولأنّ الشعراء كانوا بعيدين عنها مما جعل المشهد الطللي حاضراً في أخيلتهم وهم يحاولون تصوير مشاهد الدمار فيها، بينما امتدّ زمن الخراب في بغداد أشهراً، وعاشه الشعراء لحظة بلحظة، وتابعوا أخبـاره، وسجّلوا آثاره، ومواقعه»[١٦]، أما ابن الرومي فقد جعل الطلل في متن القصيدة، وذلك بخلاف القصائد الجاهلية التي كان الطلل يأتي في مستهلها؛ وذلك راجع في رأيي إلى عظم الحدث، ومرارة الألم. فابن الرومي لم يتناسى أطلال البصرة، فالقصيدة كلها طلل؛ وإن انزاح عن طابعها الاستهلالي، فإننا نجده في أبيات لاحقة يعود بنا إلى هذه النغمة التراثية، يقول **محمد حمدان**«وقد لعب هذا الغرض الشعري دوراً في تجاوز المقدمات تارة، **وفي دمجها مع بقية المعاني تارة أخرى**. كما لعب دوراً في تكسير وحدة البيت لصالح وحدة المعنى. وهذا من الجديد النكبوي على كل حال.»[١٧]، يقول ابن الرومي:

٣٩- عرّجا صاحبيَّ بالبصرة الزُّهـ
ـــراء تعريجَ مُدْنَفٍ ذي سقام

٤٠- فاسألاهُ ولا جوابَ لديها لديْه
لسؤالٍ ومَنْ لها بالكلام

فالشاعر كما يظهر يوظف الطلل في متن النص، ويدمجه مع بقية المعاني، وقد وقف عند نماذج للتأثير على القارئ، وذلك حين لجأ إلى التأثير بالمدينة ككل، فالشاعر هنا يأمر صاحبيه بالمرور بالبصرة، مرور المريض الذي أوشك على الموت؛ وكأنّ ابن الرومي أراد أن يقول إنكما ستعانيان من المرض، والموت فور رؤيتكما للبصرة على هذه الحالة، ثم يأمرهما بسؤالها، إلا أنهما سيعدمان جوابا منها. وكيف لها أن تجيب؟ يقول **عبده بدوي**: «وقد وُفق الشاعر هنا حين بدأ هذا القسم بنغمة قديمة تراثية، تذكر بالوقوف على الأطلال؛ وفي الواقع لقد أصبحت المدينة أطلالا حزينة، ومن هنا لا مناص من استدعاء فكرة الوقوف على الأطلال في هذا القسم من القصيدة... فلا يكون مقلدا، وإنما معبرا بالأداة المناسبة، والإحساس المناسب»[١٨].

ويقول ابن الرومي:

٥٣- فاسألاهُ ولا جوابَ لديْه
أين عُبّادُه الطّوالَ القيام؟

وعلى الجملة فالوقوف على أطلال البصرة عند ابن الرومي تعبيرٌ عن حاجة نفسية، أعرب من خلالها عن خبايا نفسه التي نظرت فيما حولها، فوجدت الديار قد خربت، وما كان يزينها، ويضفي عليها شيئاً من المؤانسة، والإحساس بالجمال، وبالاطمئنان، قد غادرها هو الآخر، ولا نستبعد أنّ هذا المكان قد ربطته بالشاعر مشاعر عاطفية ما، فجاشت عواطفه، وراح يصفه، ويتأسى على الزمن الذي تحوّل إلى مجرد ذكرى، فجاءت قصيدته معبرة عن تلك المشاعر، والأحاسيس. وعمومًا يمثل الوقوف على الأطلال مظهراً إبداعياً، ووسيلة إلهامية تثري تجربة الشاعر، وتحفزه على الابتكار؛ بمعنى أنّ الطلل عند الشاعر يعد قناعاً فنياً يسقط عليه جملة أحاسيسه، ويتخذه ستاراً لتأزم نفسيته؛

إذ نلاحظ أنّ بيئة ابن الرومي أمدته بروافد طللية، فأثّرت فيه حتى أسقط عليها نفسه، ووجدانه؛ فأسرف في ذكرها، وذكر أماكنها؛ لأنها متنفس عواطفه، وأحلامه؛ بحيث لم يصبح الوقوف على الطلل عند ابن الرومي تناصاً فنيا فحسب، بل ضرورة نفسية أيضا؛ إذ لم يأت بكاء ابن الرومي هنا للبكاء، ولكنه أتى علّة لشفاء نفسه الملتاعة، حيث تبلغ هذه النفس درجة التأزم، فتارة تتلمس التماسك، والتجلد، وأخرى تلجأ إلى الدموع، والنداء، والاستفهام، وكل ذلك قصد التخفيف من تلك المعاناة النفسية؛ فالقصيدة -إذن- في مجملها محاولة لتعديل مسار اللغة الشعرية إلى البنى التراثية، ثم إسقاطها على حاضر الشاعر.

٢/د- التناص الشعبي:

هناك المعاني الشائعة الشعبية التي ليست لأحد، ولكنها لكل أحد، أي التي يأخذ منها كل إنسان، ويضيف إليها كل إنسان؛ فهي كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء، «وقد بدأ العنصر الشعبي في هذا العصر يفرض ذوقه في مجال الأدب، ويدخل في تشكيل مفاهيم الشعراء»[٤٩]، «وليس من شك في أنّ ابن الرومي كان إلى جانب اتساع محصوله في اللغة شاعرا شعبيا بكل ما يحمل هذا التعبير من معان»[٥٠]، ومن أبرز تمضهرات هذا النمط في القصيدة نذكر قوله:

٣٣- ما تذكّرتُ ما أتى الزنجُ إلاّ
أوجعتْني مرارةُ الإرغام

فقوله أوجعتني؛ « قريبة من قولنا حاجة توجع في القلب»[٥١]، ونلاحظ قوله كذلك مكررا دالة «أخ» ومشتقاتها:

٢١- كمْ أخٍ قد رأى أخاهُ صريعًا
تَرِبَ الخدِّ بين صرعى كرام؟

٢٢- أخذلتم إخوانكم وقعدتم
عنهمُ- ويحكم- قعودَ اللئام؟

فحين نسمع هذه التكرارات لدالة «أخ»، ومشتقاتها على المستوى العمودي؛ فكأننا لا نسمع إلى شاعر، بل إلى رجل حزين يتكلم. ومن صور هذا النمط من التناص أيضا قوله:

٩- لهفَ نفسي عليك يا معْدَن الخير
ات، لهفًا يُعضُّني إبْهامي

١٧- أيّ هولٍ رأوا بهم أيّ هول
حُق منه تشيب رأسُ الغلام

وقوله: ومن تلك المعاني التي يرددها العامة تشبيه حدوث مالا يصدق، أو مالا يتصور وقوعه بأحلام النائم، يقول:

٠٤- إنَّ هذا من الأمورِ لأمرٌ
كادَ أن لا يقومَ في الأوهام

ومن ذلك أيضا تلك المعاني، و الصيغ الندبيه التي قرع بها النفوس لترك البصريين يواجهون، واقعهم المر منفردين»[٥٢]، يقول:

٥٨- واندامي على التخلُّفِ عنهم
وقليلٌ عنهم غناء ندامي

٥٩- واحيائي منهم إذا ما التقينا
وهمُ عند حاكم الحُكّام

٦٧- واحيائي من النبي إذا ما
لامني فيهمُ أشدَّ الملامِ

٦٨- وانقطاعي إذا همُ خاصَموني
وتولّى النبيُّ عنهم خصامي

ومن أثر الشعبية في قصيدتنا كذلك ما يمكن تسميته بالتعابير الجاهزة المشتركة، من ذلك قوله:

١٨- إذْ رموْهمْ بنارهم من يمين
وشمالٍ وخلْفِهم وأمام

وهو تعبير دالّ على شمول، و عموم الفتنة، وعظمتها؛ وعلى الفساد الذي حلّ بأهل بالبصرة؛ يمينا وشمالا...

ومن التناصات المندرجة في هذا النمط أيضا، قوله مستعملا السهم بمعنى النصيب:

٣٠- من رآهنّ في المقاسمِ وسْط الزَّ
نْجِ يُقَسَّمن بينهم بالسِّهام

والسهام جمع سهم والمقصود النصيب. قال **ابن منظور**: «السهم واحد السهام، والسهم: النصيب، والسهم الحظ...»[٥٣].

أما عن أصل الكلمة فيقول: « السهم في الأصل واحد السهام التي يُضربُ بها الميسر، سُمي به ما يفوز به الفالج (الظافر) سهمه، ثم كثر حتى سُمي كل نصيب سهماً»[٥٤].

وعلى الجملة ف «حين يستخدم الشعر لغة الناس اليومية فإنه يعكس بالضرورة الدلالات الإشارية، والإيماءات المعنوية التي اكتسبتها هذه اللغة من خلال الاستعمال، والدوران على ألسنة الناس، وفي هذا قدرتها التعبيرية»[٥٥]، وقد ساهم هذا النمط من التناص- أي الشعبي- عامة في بروز النزعة الخطابية، «والتي ظلت متصلة على قطاع عريض من شعر العصر»[٥٦].

وهكذا كان حتما أن يبقى للغة الأدبية المتوارثة عبر القرون كثير من النفوذ في العصر العباسي، وأن يستمر كثير من تقاليدها التعبيرية في أدب ذلك العصر»[٥٧]. وبذا يقف نص ابن الرومي كفاتحة لمداخلات متعددة- اقتباسات قرآنية، تناصات داخلية، وخارجية، وشعبية...- تأتي من مداخل متباينة لتتلاقى مع نصوص كانت بعيدة عنها، فألفّ بينها جميعا نص واحد، وهو قصيدة (رثاء البصرة) التي صارت تمددا لعديد الخطابات، وهذا هو (إعادة الرؤية)؛ أي إبداع النص من مختلف النصوص، وتشكيلها برؤية جديدة تتيح مجالا لنصوص أخرى كي تنبثق من قلب هذا النص. ليبقى الأدب دائما حيا نابضا بالحياة، والتجدد، ولا يركن إلى سبات يميته. و تأسيسًا على هذا لم يكن تناول التناص في هذه القصيدة من باب الرصد، ولا لتتبع مصادر هذه التناصات؛ ذلك أنّ سؤال التناص ليس من أين أتى هذا النص، أو ذاك، وإنما كيف يحول النص الشعري هذا النص المقتبس وكيف يجادله، وهو سؤال لا يمكن الإجابة عنه دون الالتفات إلى ذلك الجدل بين سياق النص المقتبس منه، ووجوده في سياق النص الشعري الجديد بوصفه نصاً يعيد إنتاج هذا النص المقتبس.

وعلى هذا النحو **كانت ديباجة** ابن الرومي-كما بين مبحث التناص- تتغذى من رصيد ثقافي واسع مراجعه: أدبية ولغوية ودينية...والجدير بالذكر أنّ أكثر الظواهر استدعاءا وكثافة في القصيدة هي استدعاء الخطاب القرآنيّ؛ وقد نجح ابن الرومي في توظيفه، بما يتلاءم وسياق النص، فساهمت بذلك التراكيب القرآنية في تشكيل رؤية جديدة للقصيدة، وفتحت لها آفاقاً ممتدّة، حتّى غدت أشبه

بلوحة فّنية، فيها من التكامل والتمازج والتقاطع ما يجعلها تحفة شعرية رائعة...وهذا يدّل على رهافة إحساس ابن الرومي، إذ جعل النصّ القرآنيّ مرجعاً رئيسا، استمد من قيمه وروحانيته الشيء الكثير،...غيرَ أّنه أضفى عليه لوناً جديداً من مشاعره وأحاسيسه ووجدانه بما يتناسب وطبيعة الرؤية المأسوية الاستصراخية التي يمثّلها...، من ذلك تنويعه أساليب الاستحضار، بحيث لم يقتصر استحضاره على الآية، وانما تعدّى ذلك كلّه إلى استحضار الإشارة القرآنية، و الإيماءة، و اللّفظة، و التركيب، وهي جوانب ثريّة منحت القصيدة نفسا ملحميّا، دراميا.... وعلى الجملة بينّ مبحث التناص أنّ لغة ابن الرومي الشعرية كانت حيّة نابضة بثقافة واسعة، ومتمثّلة لكُلّ الأطْوَار الشعرية، ممّا جعلها تغدو حَيّة في نفس المتلقّي، فجاءت القصيدة بذلك مشحونة بفيض هائل من الدلالات التراثية.

الحواشي

1. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب: القاموس المحيط، ط٦، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨م، مادة (نصص).
2. الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٢٤،٢٢٥.
3. مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، ط٢، المركز الثقافي العربي،١٩٩٢م، ص ١٢١.
4. الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، ص ٥٧.
5. صبري، حافظ: أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، ط١، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٩٦، ص٤٩.
6. بدوي طبانة:السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية،١٩٦٩، ص١٦٢.
7. محمد، إبراهيم حمدان:أدب النكبة في التراث العربي، أدب نكبات المدن ذات الأسباب الداخلية في المشرق العربي في العصر العباسي، د/ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٤م، ص ٢٤١.
8. العقاد، عباس محمود: ابن الرومي، حياته من شعره، د/ط، دار الهلال، ١٩٦٩م، ص٢٨١.
9. سورة: المزمل، الآية:١٧.
10. سورة: الحج، الآية:٢.
11. سورة: الحج، الآية:٤٧.
12. سورة: الرحمن، الآية:٢٤.
13. سورة: المرسلات، الآية:٢٥،٢٦.
14. ابن الأثير، علي: الكامل في التاريخ، دار الفكر ببيروت، ١٩٧٨،ج٢، ص ٣٠١.
15. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، د/ط، دار قباء للنشر والتوزيع«عبده غريب»، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٩٠.
16. سورة: التوبة، الآية:٤١.
17. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، ص١٩٢.
18. سورة: مريم، الآية:٢٦.
19. سورة: غافر، الآية:٣٩.
20. عصام، شرتح: ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢١٨.
21. سورة: الحاقة، الآية:٧.
22. سورة: الأنعام، الآية:٩٠.
23. سورة: الرعد، الآية:٢٤.
24. سورة: الزخرف، الآية:٧٩.
25. الطرابلسي، محمد الهادي:خصائص الأسلوب في الشوقيات، د/ط، الجامعة التونسية، ١٩٨١، ص٤٢٠.
26. سورة: الفرقان، الآية:١٥.
27. الطرابلسي، محمد الهادي:خصائص الأسلوب في الشوقيات، ص٤٢١.
28. حسن، محمد حماد: تداخل النصوص في الرواية العربية،

الهيئة المصرية

٢٩. العامة للكتاب، مصر ،١٩٩٨، ص٤٦، ٤٥.

٣٠. يقصد بالتجربة الشعرية «الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصوّرها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينمّ عن عميق شعوره واحساسه). محمد، غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٣٨٣.

٣١. محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، ص ٢٨١.

٣٢. المرجع نفسه، ص ٢٦١.

٣٣. محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، ص ٢٨١.

٣٤. المرجع نفسه ص ٣٤٣.

٣٥. الطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك و الرسل، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ج١١/٨، حوادث سنة ٢٧٠هـ.

٣٦. الطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك و الرسل، حوادث سنة ٢٧٠هـ.

٣٧. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، ص١٨٨.

٣٨. الحصري: ذيل زهر الآداب، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ج١، د/ت ص١٥٤

٣٩. ابن المعتز، عبد الله: الديوان، تحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨، سلسلة ذخائر العرب ٥٤، ص٤٨١، وما بعدها.

٤٠. الطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك والرسل، ٨ج، ص١٤٤، حوادث ٢٧٠هـ.

٤١. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، ص١٩١.

٤٢. ينظر محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، ص٢٧٦.

٤٣. حسن، محمد حماد: تداخل النصوص في الرواية العربية، ص٤٦.

٤٤. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، ص١٩٢.

٤٥. الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلقات السبع، د/ط، تحقيق لجنة التحقيق في الدار العالمية للناشر، الناشر الدار العالمية، ١٩٩٢، ص١٤٩.

٤٦. الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، ص ٢٤٢.

٤٧. محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، ص٢٤٤.

٤٨. المرجع السابق ص ٢٢٩.

٤٩. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي ص١٩٠.

٥٠. ينظر: عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي، الرؤية والفن، دار النهضة العربية، ببيروت، ١٩٧٥، ص٣٢٢.

٥١. عبد الحميد محمد جيدة: الهجاء عند ابن الرومي، المكتب العالمي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٤، ص٣٦١.

٥٢. المرجع نفسه، ص٤٣٧.

٥٣. ينظر: محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، ص ٢٦٨.

٥٤. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، د/ط، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د/ت، مادة (سهم)، ص ٢١٣٥

٥٥. المرجع نفسه ص ن.

٥٦. عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي، الرؤية والفن، ص٤٢٨.

٥٧. المرجع السابق ص ن.

٥٨. المرجع نفسه، ص٣٣٣.

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

أولا- المصادر:

١. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس: الديوان، شرح أحمد حسن بسج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٤، ج ٣.

ثانيا- المراجع التراثية:

٢. ابن الأثير، علي: الكامل في التاريخ، دار الفكر ببيروت، ١٩٧٨، ج٣، ص ٢٠١.

٣. ابن المعتز، عبد الله: الديوان، تحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، ١٩٧٨، سلسلة ذخائر العرب ٥٤.

٤. الحصري: ذيل زهر الآداب، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ج١، د/ت.

٥. الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد: شرح المعلقات السبع، د/ط، تحقيق لجنة التحقيق في الدار العالمية للناشر، الناشر الدار العالمية

٦. الطبري، ابن جرير: تاريخ الأمم والملوك والرسل، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦ ج٨/ ١١

ثالثا- المراجع الحديثة:

٧. بدوي طبانة: السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩.

٨. حسن، محمد حماد: تداخل النصوص في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٨.

٩. صبري، حافظ: أفق الخطاب النقدي، دراسات نظرية وقراءات تطبيقية، ط١، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦.

١٠. الطرابلسي، محمد الهادي: خصائص الأسلوب في الشوقيات، د/ط، الجامعة التونسية، ١٩٨١.

١١. عبد الحميد، محمد جيدة: الهجاء عند ابن الرومي، المكتب العالمي، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٤.

١٢. عبده، بدوي: دراسات في النص الشعري العباسي، د/ط، دار قباء للنشر والتوزيع عبده غريب، القاهرة، ٢٠٠٠.

١٣. عز الدين إسماعيل: في الأدب العباسي: الرؤية والفن، دار النهضة العربية، ببيروت، ١٩٧٥.

١٤. عصام، شرتح: ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.

١٥. العقاد، عباس محمود: ابن الرومي، حياته من شعره، د/ط، دار الهلال، ١٩٦٩.

١٦. الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٧. محمد، إبراهيم حمدان: أدب النكبة في التراث العربي، أدب نكبات المدن ذات الأسباب الداخلية، في المشرق العربي في العصر العباسي، د/ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٤.

١٨. محمد، غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣.

١٩. مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري، إستراتيجية التناص، ط٣، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢.

رابعًا- المعاجم والقواميس:

٢٠. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، د/ط، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، د/ت.

٢١. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد ابن يعقوب: القاموس المحيط، ط٦، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨.

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدُّرّ الفريد

د. عبد الرازق حويزي
جامعة الطائف، كلية الآداب

يعد كتاب الدُّرّ الفريد من الموسوعات الشعرية التي ضمّت بين دفّتيها حصيلةً ضخمة من القصائد والمقطّعات والنُّتف الشّعرية للشُّعراء في مختلف العصور، يندر أن نحصل على موسوعة مثلها في المكتبة التراثيّة، وقد ضمَّ هذا الكتاب من الأشعار ما اشتملَ على نوادرِ الحكم، وفاخرِ المعاني، وحُرّ الألفاظ، وجيدِ الأساليب، ممّا جعلَ له قيمتَه بين كتب التُّراث، وخصوصًا المختارات الشّعرية، ومؤلِّفه هو « محمَّد بن أيدمر ت ٧١٠هـ »، ومصنَّفُه هذا يدُلُّ على طبيعة اختياراته، وعلى ذوقه، وعلى توجُّهه الأخلاقي، إن اشتمالَ هذا الكتاب على كثيرٍ من النُّصائح الحانية والحكم الرُّشيدة يدلُّ على منزع مؤلفه في الاختيار، وقد دلَّ عنوانُه على مضمونه، فالعنوان هو: « الدُّرّ الفريد وبيت القصيد »، لذا اختار « ابن أيدمر » من كل قصيدة أجود بيتٍ فيها مع التعليق والإضافة في هوامشه في أحيان كثيرة. (ينظر كتاب المستدرك على صناع الدواوين ١/٢٦٥ – ٢٧٢).

وقد عرَّف الباحثون المحدثون لهذا الكتاب قيمتَه، فبادر بعضهم إلى التَّعريف به، والتنويه بمكانته بين مصنَّفات مكتبة التُّراث الشّعري، وممَّن نوَّه به الدكتور «نوري حمودي القيسي» الذي كتب مقالاً في مجلة المورد العراقية ص ١٥٢ – ١٦٤، مج١٨/ ع٣/١٩٨٩ بعنوان: «المستدرك على دواوين الشعراء» عرَّف فيه به، وراح يستدرك منه على طائفةٍ من الدّواوين الشّعريّة المطبوعة،

ومنذ هذا المقال والباحثون يرجعون إلى مخطوطةِ هذا الكتاب التي أصبحت متاحةً – بعد طباعتها مصوَّرة على ما سيُذكر بعد –، يصنعون – اعتمادًا عليها – بعضَ الدّواوين المفقودة، أو يرمِّمُون الخلل الكامن في بعض ما تمَّ جمعُه ونشره من دواوين، فظهرت عدّةُ استدراكات على أساس عمل «ابن أيدمر» هذا.

وظلَّ تحقيقه حلمًا يراود بعض الباحثين

المهتمّين بشؤون التُّراث الشِّعري، إلاّ أنّه يبدو أن ضخامته، وكثرة حواشيه وقلّة نسخ مخطوطاته مثّلت حاجزًا منيعًا أمام بعضهم، إلا أن هذا لم يقف حجرَ عثرة أمام بعضهم في درب الاهتمام به سواء بالتّعريف، أو تحقيق بعض أجزائه، أو دراسة مقدمته النّقدية الرّائعة، فمن الجهود التي تستحقُّ الذّكر في هذا النّطاق خلا الجهود الاستدراكية:

١- جهد العلاّمة: « محمد فؤاد سزكين » الذي بادر إلى نشر مخطوطته مصوّرة، وجاء هذا الجهد ضمن اهتمامات هذا العالم الجليل بنشر كثير من المخطوطات المصوّرة، منها «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ت٧٤٩هـ»، و«المنثور البهائي»، و«قلائد الجُمان في فرائد شعراء هذا الزّمان لابن الشّعار المَوْصلي ت ٦٥٤هـ»، ومشروعه هذا له زاوية خاصة في دار الكتب المصرية باسم مكتبة «فؤاد سزكين»، وكان لجهده هذا أثره البالغ في ميلاد بعض البحوث حول هذه المصادر، أو حول أجزاءٍ منها، أو طرح قضايا على أساسِها، بل إن جهوده حملت بعضَ الباحثين على تحقيق المصادر السابقةِ أو غيرها ممّا نشره بعد أن أصبحت مخطوطاتُها في متناول أيدي الباحثين، فجزاه الله خيرًا على هذه الجهود المباركة في خدمة اللُّغة العربيّة وتراثها النّفيس.

٢- جهد د. « مصطفى عناية » المتمثّل في تحقيق مقدّمة الكتاب في جزأين مطبوعين في مدينة طنطا، مصر، عام ٢٠٠٠م، ودراسته في كتاب – كما نصّ في سيرته الذّاتيّة المنشورة على الشّبكة العالمية – عنوانه: « قواعد الشّعر وقوانينه عند ابن أيدَمر: دراسة مقدّمة كتاب الدُّرّ الفريد وبيت القصيد »، ونشره في مصر عام ١٩٩٧م، ومن جهده المتّصل بكتاب الدُّرّ الفريد وصاحبه أيضًا نهوضه بجمع شعر « ابن أيدمر » من كتابه هذا، وقد نشر د. « عناية » ما جمعه في حوليّة كلية اللُّغة العربيّة بالمنصورة، مصر.

٣- جهد د. « وليد محمود خالص » المتمثّل في تحقيق مقدّمة الكتاب أيضًا، ونشرها في كتاب صدر عن المجمّع الثقافيّ، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.

٤- جهد د. «أحمد سليم غانم عبد الوهاب» المتمثّل في دراسة الكتاب تحت عنوان: «الدُّرّ الفريد وبيت القصيد لابن أيدَمر: دراسة تحليليّة كوديكولوجيّة»، ونشر عمله في مجلّة عالم المخطوطات والنّوادر السّعودية ص ٤٨٦ – ٥١٦، مج١٠، ع٢، ٢٠٠٥م.

وفي عام ٢٠٠٥م التقيتُ في مدينة الزّقازيق بمصر الأستاذ الفاضل «كامل سلمان الجبوري» صاحب اليد الطُّولى على المكتبة التُّراثيّة بما أتحفها من موسوعاتٍ ضخمة، صدرت بتحقيقه كان لها الأثر الواضحُ في الدِّراسات الأدبيّة، يأتي في مقدّمة ما قدّمه للمكتبة التُّراثيّة «مجلّته الموسومةُ بـ«الذّخائر» التي صدر منها حتّى الآن (٢٨) عددًا، وأثناء اللقاء دار بيننا حديثٌ حول المشاريع البحثيّة فأخبرني أنه انتهى من تحقيق كتاب «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان»، وأنه ماضٍ في تحقيق كتاب «مسالك الأبصار»، وكتاب الدُّرّ الفريد لابن أيدمر، وبعدها صدر بتحقيقه عن دار الكتب العلميّة كتاب «قلائد الجُمان»، وكتاب «مسالك الأبصار» وشاركه فيه بعضهم، أما كتاب الدُّرّ الفريد فقد بلغني أنه ماضٍ الآن في تحقيقه.

والسُّطور التَّالية تتضمَّن تحقيقًا لبعض النُّصوص الشِّعرية المنتقاة من مخطوط «الدُّرّ الفريد وبيت القصيد»، ولكنَّ انتقاءها لم يأتِ من طريق جودتها، ولا من طريق أغراضِها، ولا من طريق المكانةِ الشِّعريَّة لأصحابها؛ بل أتى من طريق إضافتِها إلى دواوين أصحابها المحقَّقة والمنشورة. إذن فالمَحَكُّ الرئيسُ في إثباتها يرجع إلى أنها تُنشر لأوَّل مرَّة مستدركةً على عددٍ من الدَّواوين من كتاب واحد هو «الدُّرّ الفريد وبيت القصيد»، وذلك بعد الرجوع إلى هذه الدَّواوين، وإلى ما تمَّ استدراكه عليها على يد بعض الباحثينَ الأفاضل، وليست هذه النُّصوص هي كلُّ ما يُستدرك من هذا الكتاب بعد النُّصوص الأخرى التي سبقني بعضُهم إلى استدراكها ونشرها، فلا يزال هذا الكتاب منبعًا ثرًّا لكثير من الإضافات وتكملةِ الدَّواوين، وهذا في حدِّ ذاته يؤكِّد إشارة العلماء والباحثين إلى أهميَّته، وقيمته الأدبيَّة، إذن فالهدفُ من إعداد هذه السُّطور يتلخَّص في جمع شعر الشَّاعر منه، ثم عرضه على ديوانه لطرحِ ما ورد فيه، أو ما سبق بعضُهم إلى استدراكه، والإمساك على ما أخلَّ به لإزجائه هنا بعد التأكُّد من أنه للشَّاعر حقيقة، أما الطَّبعات المعتمدة من هذه الدَّواوين فهي الطَّبعات العلميَّة المتعارف بين الباحثين على اعتمادها أكاديميًّا، ولا مجال لرصدِ بياناتها في ثنايا هذه النُّصوص، ويكفي أنه مذكورة ومعها مصادر المستدركات التي تمَّ الرُّجوع إليها في فهرس المصادر. معنى هذا أن هذه النُّصوص تضاف لهذه الدَّواوين لأوَّل مرَّة، ولا أنكر أنَّه ربَّما تكون هناك استدراكاتٌ أو طبعات جديدةٌ لبعض الدَّواوين مشتملة على بعض ما أوردتُه هنا دون علمي، وبالتَّالي لم أقفْ عليها، أو لم أستطعِ الوصول إليها، المهمُّ أنَّني بذلتُ قصارى ما أملكُ من جهد لكي تكون هذه النُّصوصُ مضافةً لأوَّل مرَّة بعيدةً عن التَّكرار، ولا أنكرُ - كذلك - أنَّه ربَّما لا تزالُ في كتاب « الدُّرّ الفريد » أبياتٌ أخرى للشُّعراء المذكورين هنا فاتني إثباتُها، ولا أقولُ بأنني أتيتُ في هذه النُّصوص على كلِّ الشُّعراء الذين يُستدرك على دواوينهم من هذا الكتاب النَّفيس، فلا يزال فيه شعراءُ آخرون يفتقرون إلى جمع نصوصهم وإضافتِها منه إلى دواوينهم، وقد اتَّبعتُ منهجًا في ما رصدتُ من نصوصٍ، يتمثَّل في:

١- توزيعِها على كلِّ شاعر.

٢- ترتيبِها لدى كلِّ شاعر حسب قوافيها على حروف المعجم.

٣- ترتيبِ الشُّعراء ترتيبًا زمنيًّا من الأقدمِ إلى الأحدث.

٤- تقسيمِ الأبيات على أشطرٍ، وقد كتبها المؤلِّف دون فصل شطرَي كلِّ بيت، وما لم تَتَوَجَّه لي قراءته من النُّسخة المصوَّرة عن النسخة الأصلية وضعت مكانه نقاطًا مع الإشارة إليه، وأمَّا الألفاظ المحرَّفة أو المصَحَّفة فقد اقترحتُ بدلاً منها حسب رؤيتي المتواضعةِ ألفاظًا أخرى ووضعتُها بين أقواسٍ، وهي لا تتجاوز أصابعَ اليد الواحدة عدًّا، وأما الأبياتُ المتضمِّنة لدلالات تخدش الحياء فقد أسقطتُها ونبَّهتُ عليها في نصوصها.

٥- رصدِ البحور العَروضيَّة أعلى يسار كلِّ نصٍّ بعد وزنه.

٦- رصدِ رقم الجزء ورقم الصفحة من « الدُّرّ الفريد » في نصوص كثيرة قبل ذكرها مراعاة للإيجاز إلاَّ إذا كان هناك تعليقٌ أو شرح فيكون

التخريج أسفل النص.

٧- طرح الشّعر المتدافع وقد أورده المؤلّف على أنه خالص النّسبة للشُعراء.

٨- شرحِ بعض الألفاظ التي ربّما يصعب معناها على بعضِ القرّاء بالاعتمادِ في هذا الشّرْحُ على المعاجم اللّغوية.

٩- تخريجِ النُصوص على مصادرها الأخرى دون استطراد في تثبيت الرّوايات، وليس معنى هذا أنّ هذه النُصوص هي كلُّ ما ورد في مصادر التُراث مما يُستدرَك على دواوين هؤلاء الشُعراء، فلا تزالُ المصادر المختلفةُ مشتملةً على أشعارٍ أخرى تفتقرُ إلى الإضافةِ على كلّ ديوان، وأبدأ أولاً بديوان

(١) عديّ بن زيد العِبَادي (ت ٣٦ ق. هـ):

(١)

قال [من الطّويل]

فكمْ من كريمٍ أفسدَ اليوم جودَهُ
وساوسُ ما يخشَى من الفقرِ في غَدِ

الدُرّ الفريد ٤/ ٢١٠، وبالرُجوع إلى ص ٢/ ١٨٦ منه يتّضح أنّ في الدّيوان قصيدة موزّعة في على قصيدتين.

(٢)

وقال ٢/ ٣٦١، والثّامن له فيه ٢/ ٤٧ بحذف كلمة الأوّلى: [من الخفيف]

١- طالَ ليلي وطارَ عنّي نُعاسِي
من همومٍ طرقْنَ شيْبْنَ راسِي

٢- أحدَثتْ بي فمَا تَزولُ وحلّتْ
في ضميرِ الفؤادِ منها المراسِي

٣- لأُناسٍ رُزِيتُهمْ كالمصابيـ
ـحِ خيارٍ أكرم بهم من أُناسِ

٤- مُستَهامًا أظلُّ قومي كأنّي
حُزَّ قلبي عليهم بالمواسِي

٥- قد لبستُ الزّمانَ والدّهرَ كهْلاً
وغريرًا كأنّني غصنُ آسِ

٦- فوجدتُ الشّبابَ غيرَ خَدينٍ
ووجدتُ الزّمانَ غيرَ مُواسِي

٧- يا ابنةَ الحضرميّ لا تأمَني الدّهـ
ـرَ وكُوني منه على إيجَاسِ

٨- أينَ عادُ الأوّلى وأينَ أبو قا
بوسَ أم أينَ قبلهُمْ ذو نُوّاسِ

٩- نقّبَ الموتُ عنهم فأتاهم
من وراءِ الحجابِ والأحْراسِ

١٠- خلّفوا ما حَوَوا من العرضِ والما
لِ وصَاروا في ظُلمةِ الأرماسِ

١١- إنّما الدّهرُ دولةٌ بعد أخرى
لأُناسٍ يأتونَ بعدَ أُناسِ

(٢) النّابغة الذُبيانيّ (ت ١٨ ق. هـ):

(١)

قال ٢/ ١٠٧، والبيتان ٢، ٦ له فيه ٢/ ٢٥٦:

[من الطّويل]

١- ألا أبلغ النُعمانَ عنّي ألوكةً
وخيرُ الملوكِ الماجدُ الواسعُ الحِلمِ

٢- أتاني - أبيتَ اللّعن - أنّكَ نلتني
على بُعدِ داري بالوعيدِ وبالشَّتْمِ

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدرّ الفريد

٣- سَعى بي إليكَ الحَاسِدُونَ بباطلٍ

من القولِ لم يَخْطُرْ ببالي ولا وَهْمي

٤- فإنْ أنا أَجْرِيتُ اللِّسَانَ بمثله

فـأَبْـعَـدَه قطعًا لـه اللهُ مـن فمي

٥- وإن كانَ جُرمًا شُكْرُ مَنْ كانَ مُنعمًا

عليَّ فشكري نعمةٌ لكَ من جرمي

٦- تبيَّنْ ولا تـأخُـذْ بريئًا بكاذبٍ

ظَنينٍ وخَفْ في ذاك عاقبةَ الظُّلْمِ

٧- وأنَّكَ شمسُ الأرضِ طبَّق نورُها

جميعَ بني الدُّنيا من العُرْبِ والعُجْمِ

(٢)

وقال يخاطب النُّعمان بن المنذر ٢/ ١٧٦، ٢/ ٣٥٦: [من الوافر]

١- توعَّدني - أبيتَ اللعنَ - ظُلمًا

وإنَّ وعـيـدَك الـموتُ الـزُّؤامُ

٢- وشَى بي الحَاسدونَ بزُورِ قولٍ

وزُورُ الـقـولِ مـسـمـعُـه أثـامُ

٣- فـأيُّ الأرضِ تُمكنُ بعدَ هذا

زيـادًا فـي مـعـاقلها الـمقَامُ

٤- وهـل يُنجي فِرارٌ منك عَبدًا

وأنـتَ الشَّمسُ نُورًا والظَّلامُ

(٣)

وقال: [من الكامل]

لا تَنْه عَن خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ

عـارٌ عَلَيكَ إذا فعلتَ عَظيمُ

الدُّرّ الفريد ٥/ ٤٢٢، وفيه: قيل: إنّه له، وأخذه المتوكّل اللَّيْثيُّ، قلت: هو في ديوانه ص ٨١، وينظر تدافعه في هامشه، وفي ٢٨٤ تدافعه أيضًا ومصادر تخريجه، وهو من مشهور الأبيات.

(٢) النَّابغة الجَعْدي (ت ٥٠ هـ):

(١)

قال ٢/ ١٨٤: [من الطَّويل]

١- أقارضُ أقوامًا وأجزي قُروضَهم

وأعـلـمُ مـا آتـي ومـا أتـجـنَّـبُ

٢- وأن بني سَعْد وَمَسْحَ رؤوسِهم

على دَائهم والقرح يُدمي ويُجلبُ

٣- لكالأقرعِ المدهون أطرافَ شعرِه

ولـلـجـلـدِ داءٌ دونَـه يـتـقـوَّبُ

الدُّرّ الفريد ٢/ ١٨٤، وورد البيت الثَّالث في أساس البلاغة (مسح) ٢/ ٢١٢ بلا نسبةٍ، وعجزه فيه هكذا: «على دَائهم والقرح لم يتقوبِ».

الشَّرْحُ: ورد في أساس البلاغة شرح لصدر البيت الثَّاني هكذا: «وفلان يمسح رأس فلان: يخدعه»، ومعنى يتقوَّب على ما ورد في لسان العرب (قوب) ٥/ ٢٧٦٧: «تَقَوَّبَ جِلدُه: تَقَلَّعَ عنه الجَرَبُ وانْحَلَق عنه الشَّعْرُ».

(٢)

وقال ٣/ ٧٧،

وهو للنَّابغة فقط في ٥/ ١٨٦: [من الطَّويل]

بكفُّ فتًى أنساهُ أرحامَ قومِه

محارمُ تُغْشَى من عُقُوقٍ ومَأثمِ

(٤) قيس بن ذَرِيح (ت ٦٨ هـ):

(١)

قال: [من الطَّويل]

١- تَصَبُّ إلى سُعدى على نَأْيِ دارِها
ولم تكُ نجدي، والمزارُ قريبُ

٢- ولاحظُ من سُعدى لنا غيرَ أنَّنا
تَقطَّعُ أنفاسٌ لنا وقلوبُ

الدُّرّ الفريد ٥/ ٩٤، ولقيس فقط في المحبّ والمحبوب ٢/ ٩٧، والبيت الأوّل فيه برواية: « ولم يك يجدي »

• من المعروف أن « قيس بن ذَريح » كان يلهج باسم « لُبْنَى » في شعره كثيرًا، وهو غير قيس بني عامر (قيس بن الملوّح المعروف بمجنون ليلى ت٦٨)، والبيتان ليسا في ديوان مجنون ليلى، فهل ذِكر «ابن ذريح» فيهما اسم «سُعدى» يطائل من نسبتهما إليه؟ ربَّما، ويُذكر أنَّ « بشَّار ابن بُرْدٍ »كان دائمَ الذِّكر لـ«سُعدى» في شعره، ووردت في ديوانه ١/ ٢٠٨ قصيدة ذكر فيها «سعدى» خمسَ مراتٍ من وزن البيتين وقافيتهما، مطلعُها:

طَرِبت إلى «حَوضى» وأنت طروبُ
وَشاقك بين « الأبرقين » كثيبُ

ومهما يكن من أمرٍ فقد أثبتُّ البيتين هنا منسوبين لـ«قيس بن ذريح» كما أوردهما مصنِّف الدُّرّ الفريد، ونبَّهت على ما نبَّهت هنا لحين اتِّضاح أمرهما بصورةٍ قاطعة، حيث لم أقف على نسبتِهما لغيره.

(٢)

وقال: [من الطَّويل]

١- أصابَ ذُبابُ السيفِ أنيابيَ العُلى

٢- وأنيابُ ليلى واضحاتٌ مَلائحُ

٣- فإنْ يكُ ثَغري صَكَّهُ الحربُ صَكَّةً
لقد بَقيتْ منّي نَواحٍ صَحائحُ

الدُّرّ الفريد ٢/ ١٤١، ولقيس فقط في المحبّ والمحبوب ٢/ ٤٥، ونسبا في فهرس قوافيه ٤/ ٤٢٤ إلى «قيس بن الملوّح»، وجاء التعليقُ عليهما في هامش ص ٢/ ٤٥ بأنَّهما لم يردا في ديوانه، وقد راجعت ديوانه فلم أجدهما فيه، ورأيتُ إثباتهما هنا لـ«قيس بن ذريح» بناء على نسبةِ «ابن أيدمر» لهما، ولأنَّني لم أجد مصدرًا قديمًا يُعتمد عليه في نفي نسبتهما عنه.

(٥) المقنَّع الكندي (ت ٧٠ هـ)

(١)

قال: [من الطَّويل]

١- ثلاثُ خلالٍ كلّها غيرُ طائلٍ
بطَنّ لقلب المرءِ دُونَ غِشائِه

٢- هَوى النَّفس ما لا خيرَ فيه وشُحُّها
وإعجابُ ذي الرَّأي السَّفيه برائِه

٣- وقد جعلتْ نَفسي تتوقُ وتشتهي
لقاءَ الذي لا بُدَّ مِن لِقائِه

٤- وأذكرُ منهُ عَفوَه وعِقابَه
فتخلطُ نَفسي خَوفَه بِرَجائِه

٥- وصِحَّةُ جسمِ المرءِ سُقْمٌ لقلبِهِ

وصِحَّةُ قلبِ المرءِ حِينَ اشتكائِهِ

الدُّرّ الفريد ٥/٢٨٧، ٢/١٩٠، والبيت الخامس له فيه ٥/٢٨٥، ورواية البيت الرّابع في ٢/١٩٠ هي: «فتحلط نفسي».

الشَّرْحُ: «قامَ بِطُنِ نفسِه: أي كفى نفسَه». جمهرة اللُّغة (طنن) ١/١٥١.

(٢)

وقال: [من الطّويل]

١- وإن أجمعُوا صَرمي معًا وقطِيعَتِي

جمعتُ لهم منِّي مع الصِّلَةِ الوُدّا

٢- أجودُ بمَالي خَشيةَ أن يُغمَروا

إذا ما هُمُ شَدُّوا على الصُّرَرِ العقدا

الدُّرّ الفريد ٥/٥٠٢، وبلا نسبةٍ في الصَّداقة والصَّديق ٢٧٨، ويضافان للقصيدة رقم (١) (ضمن كتاب شعراء أمويُّون) ص ٤/٢٠٢ ومطلعها:

يعاتبني في الدَّين قومي وإنّما

دُيوني في أشياءَ تكسبُهم حَمدا

وفي الدِّيوان بيت يشبه البيت الأوّل، وهو:

وإن قطَعوا منِّي الأواصرَ ضلّة

وصلتُ لهم منّي المَحَبَّةَ والوُدّا

الشَّرْحُ: معنى أن يغمروا: أن يصيروا مغمورين، ينظر لسان العرب (غمر) ٥/٣٢٩٤، و«الصُّرَّة: شَرَجُ الدَّراهم والدنانير... الصُّرّة: صُرّة الدَّراهم وغيرها معروفةٌ، وصَرَرْتُ الصُّرَّة: شددتها... وأصل الصَّرّ الجمع والشدّ». لسان العرب (صرر) ٤/٢٤٣٠.

(٦) أعشى هَمْدان (ت ٨٣ هـ):

(١)

قال: [من الطّويل]

أقولُ له لمّا أتاني نَعِيُّهُ

به لا بِظَبْيٍ في الصَّريمةِ أَعْفَرَا

الدُّرّ الفريد ٢/١٩٤، وقال مؤلّفه: إن الفرزدق ضمَّنَه شعره في هجاء مسكين بن عامر. قلت: هو في شرح ديوان الفرزدق ص ١/٣٤١.

الشَّرْحُ: الصَّريمة: قطعة تنقطع من معظم الرَّمل». المخصّص ١٠/١٣٥، وفي مقاييس اللُّغة في مادة (عفر) ٤/٦٣ بيت قريب من هذا البيت، وهو هناك مذكور بلا نسبةٍ أيضًا. قال ابن فارس: «ويقال للظّبي أعفرُ للونه. قال:

يقول ليَ الأنباطُ إذ أنا ساقطٌ

به لا بظبيٍ في الصَّريمة أعفرا»

وقال محقّقه في الهامش: «هذا دعاء عند الشّماتة، أي جعل الله ما أصابه ملازمًا له لا للظّبي»

(٢)

وقال: [من الكامل]

فارقتُ أحبابي وكنتُ أحبُّهم

فالآنَ أخضعُ للزَّمانِ وأعنفُ

الدُّرّ الفريد ٥/٢٠٨، ويضاف للقصيدة رقم ٣٦ ص ١٣٨ – ١٤١، وفي الدِّيوان بيت قريب من هذا البيت، ولعلَّ هذا رواية ثانية لذاك، والبيت المذكور في الدِّيوان هو:

فَأَصَابَنِي قَوْمٌ وَكُنْتُ أُصِيبُهُم
فَالآنَ أَصْبِرُ لِلزمَانِ وَأَعْرِفُ

(٧) كثيّر عزّة (ت ١٠٥ هـ):

(١)

قال: [من الطَّويل]

١- أُصَلِّي إذا صَلَّتْ وأنْصُو إذا نَصَتْ
وأُتْبِعُهَا طَرْفِي إذا هي وَلَّتِ

٢- كَشَفْتُ لها سِرِّي بأنِّي أحبُّها
وأنَّ رِضَاها... فَتَجَنَّتِ

٤- وكانتْ على الأَحْوالِ نفسي عزيزةً
فلما رأتْ صَبْري على البُعْدِ ذلَّتِ

الدُّرّ الفريد ٢/ ١٥١، وحذفتُ بيتًا من أولها وكلمة من البيت الثاني. والبيت الثالث فيه ٥/ ٢٥٠ وروايته فيها هي: «على الأيَّام... رأت ذُلّي»، وهو في دواوين طائفة من الشُّعراء، منهم - على سبيل المثال لا الحصر -: علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ص٥٣، وعمرو بن معدي كرب الزّبيدي ١٩٨، والحاجب المصحفي ضمن ما تبقّى من شعره رقم (٦)، ص ١٨٠ في مجلّة آداب المستنصريّة ع١٢، ١٩٨٥م، وفيه بعض مصادر التَّخريج، وابن المعتزّ في التّذكرة الحمدونيّة ٤/ ٢١٨ ومعه بيت آخر وروايته فيه هي: «على الأيَّام على الذُّل ذلّت»، وتضاف الأبيات للقصيدة ذات المطلع ص ٩٥:

خَلِيلَيَّ هَذا رَبْعُ عَزَّةَ فَاعْقِلا
قَلُوصَيكُما ثُمَّ ابْكِيا حَيثُ حَلَّتِ

(٢)

وقال: [من الكامل]

١- إنَّ الكواعبَ قد سمِعنَ عشيَّةً
في القومِ منكَ تهزُّجًا ونشيدا

٢- فعرَفنَ صوتَك حين تُنشدُ واقفًا
رَجَزًا بهِنَّ مُعَرِّضًا وَقَصيدا

٣- فخرجنَ نحوكَ يبتدرنَ تَبادُرًا
تُجْلَ العيونِ إلى حديثك صِيدا

٤- ووضعنَ عنهنَّ الحِجالَ وقُرِّبتْ
فُرُشُ السُّخامِ ومُهِّدَتْ تمهيدا

٥- ووَضَعنَ فوقَ مَجامِرٍ دخَنُها
تحتَ المجاسدِ والمطارفِ عودا

٦- مِن عنبرٍ عبِقٍ بهنَّ مُمَسَّكٍ
يا طيبَ ريحٍ وقودهنَّ وقودا

الدُّرّ الفريد ٥/ ٤٢٢، وتضاف الأبيات إلى القصيدة ذات المطلع ص ٤٤١:

وَلَقَدْ لَقِيتُ عَلَى الثُّرَيْجَةِ لَيْلَةً
كَانَتْ عَلَيكَ أَيامِنًا وَسُعُودا

والبيت الخامس له في المحبّ والمحبوب ٢/ ١٦٥ برواية: «أدخلنها».

الشَّرْحُ: «الأَصْيَدُ... مَن لا يستطيع الالتفات إلى النَّاس يمينًا وشِمالاً من داءٍ ونحوه». العين ٧/ ١٤٣، و«السُّخامُ: كلُّ شيءٍ ليِّن من صوف أو قطن أو غيرهما». لسان العرب (سخم) ٢/ ١٩٦٥، و«المجامر: جَمْع مِجْمَر ومُجْمَر، فالمِجْمَر بكسر الميم: هو الذي يُوضَع فيه النار للبَخُور. والمُجْمَر بالضَّم: الذي يُتَبَخَّر به وأُعِدَّ له الجَمْر». النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٢٩٢، والحجال: جمع «الحَجَلة بالتحريك هو بيت كالقُبَّة يُستَر بالثِّياب

ويكون له أزرار كباره. لسان العرب (حجل) ٢/ ٧٨٨.

(٣)

وقال: [من الكامل]

١- ما للوشاة بعزة عندي
شيءٌ سوى التكذيب والردّ

٢- ولعزةُ عندي وإن بعدت
أدنى من الأهلين والولد

٣- إني وعزةُ ما تزال على
حكم الهوى في القرب والبعد

٤- تبدي السلوّ تسترًا وبنا
تحت الضلوع خلاف ما تبدي

٥- إياك يا عزّ الوشاة فهم
أعداء أهل الحب والودّ

٦- كم عائب لكم لأبغضكم
ما زادني شيئًا سوى الوجد

٧- إني لأحفظ بالمغيب لكم
عهد المودة فاحفظوا عهدي

الدُّرّ الفريد ٥/٧٨، ٢/ ٢٨٠ دون البيت الثالث مع طمس بعض الكلمات في أوائل بعض الأبيات في هذا الموضع، والثالث فيها برواية: «لا نزال»، والبيت الرابع له فيه ٥/ ١٦٢، والسابع فيه ٢/ ٢٨١.

(٤)

وقال: [من الكامل]

١- أشتاق عزةَ أن يمرَّ خيالها
بالعين قبل مروره بالخاطر

٢- ويسوؤني أن ينقضي يومٌ وما
متّعتُ من أعطاف عزةَ ناظري

الدُّرّ الفريد ٤/ ٢٩٤، ٢/ ١٣٦، وضمَّن أبو محمَّد النقيب (ت ٥٢٧هـ) البيت الأوّل ضمن مقطَّعة له مذكورة في الوافي بالوَفيات ١٢/ ٢٣٤ مع اختلاف في رواية بعض الكلمات.

(٥)

وقال: [من الطَّويل]

١- وإن قيل أمسى حبُّها اليومَ مخلقًا
تضمَّنَ حبُّها الليالي الغوابرُ

٢- وفينا ولم تغدرْ بكم وغدرتمُ
وهل يستوي يا عزّ وافٍ وغادرُ

الدُّرّ الفريد ٢/ ٢٣، والبيت الأوّل فيه ٥/ ٢٩١، ويضافان للقصيدة ذات المطلع ص ٣٦٨:

عفا رابغٌ من أهله فالظواهرُ
فأكناف هرشى قد عفت فالأصافرُ

(٦)

وقال: [من الطَّويل]

١- فيا ربُّ أنتَ المستعانُ على النوى
فعزةُ قد أودى بقلبي حذارُها

٢- أُسائلُ عنها أهلَ مكةَ كلَّهم
بحيثُ التقتْ حجَّاجُها وتجارُها

٣- عسى خبرًا منها يُصادفُ رفقةً
محلّقةً أو حيث ترمى جمارُها

الدُّرّ الفريد ٤/ ٢٧٦، والبيت الثالث فيه ٢/ ١٢٧ برواية: «إذا ما التقته، وأنشدها أعرابيٌّ في

الزهرة ١/١٧٩، وأمالي الزّجاجي ١٢٥ – ١٢٦ باختلاف في رواية بعض الألفاظ في هذه المواضع في بعض الأبيات، ومعها فيه البيتان الثّاليان، ولم ترد الأبيات جميعها في الدّيوان:

١- ومعتمرٍ في ركبِ عزّةَ لمْ تكنْ
لهُ حاجةٌ في الحجِّ لولا اعتمارُها

٢- لئنْ عزفتْ يا عزّ نفسي عنكمُ
لبعد أشدّ الوجدِ كانَ اصطبارُها

(٧)

وقال: [من الكامل]

١- ما بالُ خيلكَ لا أراهَا تنفعُ
وأرَى بنودَك بعدَ عقدٍ تُقطعُ

٢- وأراكَ تولعُ بالبيادقِ شاهيًا
والمشرفيّةُ حولَ شاهكَ تلمعُ

٣- قدْ أحجرتْه الخيلُ فهو مُبلّدٌ
قد ماتَ أو هو في سياقٍ ينزعُ..

٤- فهم فلولٌ، منهم: مُستأسرٌ
ومشرّدٌ يبغي الأمانَ فيُمنعُ

٥- جابوا كمينَ بني المهلّب غرّهم
أهلُ العراقِ وجمعُهم فتصدّعُوا

٦- أنّا نزاحفُ بالبنودِ وخيلُنا
في الرّوعِ تخترقُ الأديمَ وتمزعُ

٧- ونحاذرُ التّوليةَ في تحويلنا
ونريثُ أحيانًا وحينًا نُسرعُ

٨- ونصدُّ نرمقُ عورةً لعدوّنا
ونناهزُ الغفلاتِ ساعةَ تَطلُعُ

٩- ونخافُ من أعدائنا مثلَ الذي
نبغيهمُ فيمَا نكيدُ ونصنعُ

١٠- ونعد- إن خِفنا- الإساءةَ مخرجًا
للشاه فيه فُسحةٌ وتوسُّعُ

١١- فإذا لعبْتَ فهكذا فالعب بها
ليس الملاعِبُ بالذي لا يخدعُ

١٢- فينَا الأناةُ إذا تُرادُ أناتُنا
والختلُ شيمتُنا إذا ما نَفزعُ

الدُّرّ الفريد ٥/٢٢٢، وبعد البيت الثّالث بيتان لم أتمكّن من قراءتهما، والبيت الثّالث لجحظة البرمكيّ في ديوانه ١٢٢ خطأً.

الشّرْحُ: قال ابن منظور: «وممّا أُعرب البَيَاذقة: الرَّجَّالة، ومنه بَيْذَقُ الشّطْرَنج.. واللفظة فارسيّة معرّبة، سُمُّوا بذلك لخِفّة حركتهم وأنّهم ليس معهم ما يُثْقِلُهم». اللسان (بذق) ١/٢٣٨، و«الشّاة: المَلِكُ». لسان العرب ٤/٢٣٦٧، والفَلُّ: المنهزمون». لسان العرب. (فلل) ٥/٤٢٦٦، و«أديم كلّ شيء ظاهره، يقال: أديم الأرض». المعجم الوسيط (أدم) ص ١٠، و«المَزْعُ: شدّةُ السير». لسان العرب (مزع) ٦/٤١٩٣، و«الخَتْل: تخادُعٌ عن غَفْلَة». لسان العرب (ختل) ٢/١١٠٠.

(٨)

وقال: [من الطّويل]

١- وفي الصّبرِ عن بعضِ المطامعِ راحةٌ
وللصّبرِ أبقَى إن صبرتَ وأودعُ

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدّرّ الفريد

٢- فإن كان طولُ الحبِّ يا قلب نافعًا

فقد طالما أحببتُ لو كان ينفعُ

٣- ولستُ كمن يفشي إلى النّاسِ سِرَّه

وعندي له في الصّدر حِرزٌ وموضعُ

٤- وما ائتمنتني خلّةٌ ففجعتُها

ببثٍّ ومن شرِّ الحديث المضيَّعُ

الدُّرّ الفريد ٢/٢٥٢، وتضاف للقصيدة ذات المطلع ص ٤٠١:

تَقطَّعَ مِن ظَلامَةَ الوَصْلُ أجمَعُ

أخيرًا على أن لم يَكُن يَتَقطَّعُ

(٩)

وقال: [من الكامل]

ذهب الشَّبابُ فلستُ مدركَ غَربِه

وهجرتُ عزّةَ غيرَ هجرِ تقالِ

الدُّرّ الفريد ٣/٢٩٢، ويضاف للقصيدة ذات المطلع ص ٢٨٤:

إربَعْ فَحَيِّ مَعارِفَ الأطلالِ

بالجزعِ مِن حُرُضٍ فَهُنَّ بَوالِ

الشَّرْحُ: «غَرْبَ الشَّباب: أي حِدَّته والغَرْبُ النَّشاط والتَّمادي». لسان العرب (غرب) ٥/٣٢٢٧، و«القلى: البغض». العين ٥/٢١٥.

(١٠)

وقال: [من الطَّويل]

هوىً لا تطيقُ الرّاسياتُ بحمله

فسلْ عن ضعيفِ الجسم كيف احتمالهُ

الدُّرّ الفريد ٢/٢٠٤، وهو له في المحبّ والمحبوب ٢/٦ برواية: «الرّاسيات احتماله... ضعيف القلب»، وفي هامشه أنه لم يرد في الدّيوان.

(١١)

وقال: [من الطَّويل]

١- وإنّي إذا ما الجِبْسُ ضيَّعَ عِرضَه

لعرضي وما أحوي من المَجْدِ صَائنُ

٢- إذا ما انطوى كَشْحي على مُسْتَكِنَّةٍ

من الأمرِ لم يفطنْ له الدّهر فاطنُ

الدُّرّ الفريد ٥/ ١٧٠، ٢/٦٢ والبيت الثّاني فيه هنا برواية: «من الداء لم... لها»، وهما من قصيدته ذات المطلع ص ٢٧٩:

أهاجَكَ مَغنى دِمنَةٍ وَمَساكِنُ

خَلَت وَعَفاها المُعصِراتُ السَّوافِنُ

الشَّرْحُ: «الجِبْسُ: الجَبانُ الرَّديءُ... وهو اللَّئيم». العين ٦/٥٧، ٥٨.

(١٢)

وقال: [من الطَّويل]

١- وأصبحتُ ودَّعتُ الصِّبا غيرَ أنَّني

إذا والهٌ حنَّتْ شجاني حنينُها...

٢- لقد حمَّدتْ ليلى الأمانةَ راعيًا

أمينًا على أسرارِها لا يخونُها

الدُّرّ الفريد ٢/٥٤، وتركت بيتًا لم أتمكّن من قراءته بعد البيت الأوّل، ويضافان للقصيدة ذات المطلع:

سَيَأتي أَميرَ المُؤمِنينَ وَدونَهُ

جَماهيرُ حِسمى قورُها وَحُزونُها

(١٣)

وقال ٣١٦/١، وبقيتُه غير واضحة:

[من الطَّويل]

إذا حمِدتُ نفسي لنفسٍ مودَّةً

مِن النَّـــاسِ أو...

(٨) مُسلِم بن الوليد (ت٢٠٨هـ):

(١)

قال: [من الوافر]

١- صَبوتُ بها (إلى) طُولِ التَّصابي

إلى خَودٍ مُنعَّمَةٍ كَعَابِ

٢- إذا وطِئتْ ترابًا طابَ حتَّى

كأنَّ المسكَ في ذاكَ التُّرابِ

٣- وتأخذُ شكلَها عنها الغَواني

كأخذِ العلمِ عن أهلِ الكِتابِ

٤- تَغارُ من الثِّياب إذا عَلَتْها

ومِن حسدٍ أغارُ من الثِّيابِ

٥- رأيتُ العاشقينَ أذلَّ قومٍ

وفي العشقِ المذلَّةُ للرِّقابِ

٦- تَغُرُّ بوُدِّها مَن يَرتَجيها

غُرورَ الظِّلِّ أو لمعَ السَّرابِ

٧- (و)إنِّي حينَ أسألُها وتأبى

لأشجعُ من عُميرِ بنِ الحبابِ*

٨- ألا ليتَ الولاةَ نهَوا جميعًا

حسانَ الغانياتِ عن النِّقابِ

٩-...لنا عـــذابٌ

وما يرجونَ من ذاكَ العذابِ

١٠-... أبكارًا صغارًا

وقد أحكمتَ ليلَ السحابِ

١١- أحبُّ الخَودَ تضعُفُ عن جَوابي

وأهوَى كلَّ حاضرةِ الجَوابِ

الدُّرّ الفريد من قصيدة ٢٢٧/١، والبيت الخامس فيه ٢٩٩/٣، والبيت السَّادس فيه ١٥٣/٣، وفي البيتين التَّاسع والعاشر طمس، وورد البيت الأوَّل فيه هكذا: «صبوت بها حتَّى طول التصابي»، ولعل ما أثبت هو الصَّواب أو القريب منه، وحذفت بيتًا بعد البيت السادس لدلالته المكشوفة.

•«عمير بن الحباب بن جعدة السلمي (... - ٧٠هـ): رأس القيسيَّة في العراق، وأحد الأبطال الدُّهاة. كان ممَّن قاتل عبيد الله بن زياد مع إبراهيم بن الأشتر بالخازر، ثم أتى «قرقيسياء» خارجا على عبد الملك بن مروان. وتغلب على نصيبين، واجتمعت عليه كلمة قيس كلها. ونشبت بينه وبين اليمانيَّة وبني كلب وتغلب وقائع، منها: يوم ماكسين، ويوم الثرثار الأوَّل، ويوم الثَّرثار الثَّالث، والفدين، والسكير، والمعارك، والشرعبيَّة، والبليخ، ويوم الحشاك وهو الذي قتل فيه صاحب الترجمة، وكان بطل هذه الوقائع كلها، قتله بنو تغلب». الأعلام ٨٨/٥.

(٢)

وقال ٢٨٢/٥: [من الطَّويل]

هو السيفُ إن لاينتَهُ لانَ مَتْنُه

وبين غِرارَيه المنايا اللَّوائحُ

الشَّرْحُ: «غِرَارُ السَّيفِ: حدُّه». مقاييس اللُّغة

(غر) ٤/ ٢٨١.

(٣)

وقال: [من الخفيف]

١- وفتاةٍ أبدتْ لي الوُدَّ في الحـ
ـبُ فجازيتُها بحُسنِ الودادِ

٢- أرسلتْ أن تعالَ وهنًا إلينا
واخشَ إن زُرتنا عيونَ الأعادي

٣- القِنا خاليًا لنقضيَ لذا
تٍ ونشفي حرارةَ الأكبادِ

٤- فتنَفَّسْت ثمَّ قمتُ اشتياقًا
وبكفِّي عضبٌ طويلُ النِّجادِ

٥- أتمشَّى حتَّى دَخلتُ عليها
أتهادى أحسنْ بذاكَ التهادي

٦- وإذا حَولها قِيانٌ حسانٌ
فُقْنَ بالحُسنِ كلَّ حضرٍ وبادي

٧- قد طلينَ النُّحورَ مِسكًا ذكيًّا
وعقدْنَ العُقُودَ في الأجْيَادِ

٨- قُلنَ لي إذ رأتني أتمشَّى:
أنتَ واللهِ فتنةٌ للعِبادِ !

٩- أن مولاتَنا بحبِّك قد ها
متْ فما تستلِذُّ طعمَ الرُّقادِ

١٠- لم أُجبْهن للتَّكرُّم والحِلـ
ـمِ وإنِّي على الجوابِ لقادِ

١١- وتمشَّينَ خارجاتٍ وولـ
ـينَ كعينٍ رعينَ روضَ البَوادي

١٢- أخبرتْني بحُسنِها ثمَّ قالتْ:
أنا شمسُ الضُّحى ونُورُ البلادِ

١٣- قلتُ: إن كنتِ أنتِ شمسًا فإنِّي
أنا بدرٌ يُضيءُ في كُلِّ نادِ

١٤- وتناولتُها بكفِّي فقالتْ:
رمتَ واللهِ يا خليلي فَسادي

١٥- ما تعودتُ ما تطالبُ منِّي
قلتُ: إنِّي مُعَوَّدٌ فاعتادي

١٦- ثمَّ قالتْ لمَّا رأتني مُجدًّا:
لستُ آلو لبذلِها باجتهادِ

١٧- اقتصدْ سيدي لمرةٍ أخرى
ليسَ يَبقى شيءٌ بغيرِ اقتصادِ

١٨- وبكتْ خيفةً فرقَّ فؤادي
وهي منِّي للخوفِ ذاتُ ارتعادِ

١٩- قلتُ:ما تنقمينَ منِّي؟ فقالتْ:
كُفَّ عنِّي فقد رعبتَ فؤادي

٢٠- قلتُ: لا تقرفي بذنبٍ وقومي
نتلاهى وفي يديكِ قيادي

٢١- قالتْ: أحلفْ فقلتُ:واللهِ لا كا
نَ إلى غيرِ ما هَويتَ اعتمادي

٢٢- قدْ حظينَا ممَّن نُحبُّ بوصلٍ
أرغمَ اللهُ أنفَ الحُسَّادِ

الدُّرّ الفريد ٤/٣٠٢، وحذفت بيتين بعد البيت الرابع عشر، وثمانية أبيات بعد البيت الثالث والعشرين.

الشَّرْحُ: العَضْبُ: السيف القاطع. العين (عضب) ٢٨٣/١، و«العِين: جمع أعين وعيناء، وهي بقر الوحش، سمِّيت بذلك لسعة أعينها». شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٠. لقاد: أي لقادر.

(٤)

وقال ٤٩/٢: [من الطَّويل]

١- إذا لم يكنْ ذنبي إليكِ سوى الهَوى
فلا تغفري ذَنبي فَسَوفَ أعودُ

٢- لئنْ كنتِ تبغينَ الزِّيادةَ في الهَوى
فما فوقَ ما بي من هواكِ مزيدُ

(٥)

وقال: [من الطَّويل]

١- هلمَّا اسقياني الكأسَ إنْ لم يكنْ خمرًا
ولا تُسكراني لستُ أحتملُ السُّكْرا

٢- لقدْ أخذتْ منّي الغوايةُ حقَّها
قديمًا وإنّي قدْ أحطْتُ بها خُبْرا

٣- إذا ما دَعاني قائدُ اللَّهوِ والصِّبا
أجبتُ ولمْ أسمعْ مَلامًا ولا زَجْرا

٥- ومُستودِعي سِرًّا تقلَّدْتُ حفظَه
فبوَّأتُه من مُستقرِّ الحَشا قَبْرا

٥- وزَلَّةِ جارٍ فاجرٍ قدْ سترتُها
ولو مثلَها منّي رأى هتكَ السِّتْرا

٦- إذا كانَ ذنبُ المرءِ يدفعُ عُذْرَه
صفحتُ فكانَ العفوُ منّي له عذرًا

٧- وكمْ من أخٍ لي كُنتُ آمنَ غِبَّهُ
فَغَيَّرَه الواشونَ فاستحسَنَ الغَدْرا

٨- إذا سرَّني دهرٌ سُررْتُ وإنْ أبَى
أبيتُ عليهِ أن أضيقَ به صَدْرا

٩- وإنّي أعدُّ الشُّكْرَ في كلِّ نعْمَةٍ
وألبسُ للضَّرَّاءِ إنْ نَزَلَتْ صَبْرا

١٠- وكمْ من مُسيءٍ قدْ لقيتُ ومُحسنٍ
فأوسعتُ ذا ذمًّا وأوسعتُ ذا شُكْرا

١١- (إذا) أبتِ الأشياءُ إلاَّ تَلبُّسًا
عليكَ، فقِسْها تَعرفِ السَّهْلَ والوَعْرا

١٢- أخُو الجُودِ يسقي القومَ فضلَ إنائِهِ
وذو البُخلِ لا يَندَى ولو جاوزَ البحْرا

١٣- وكلُّ امرئٍ يعطيكَ قيمةَ عرضِهِ
إذا كانَ لا يشكو الخَصاصَةَ والفَقْرا

١٤- لَصَبْرُكَ عندَ اليأسِ أحسنُ مَوْقِعًا
وأفضلُ من مالٍ تُصيِّرُه ذُخْرا

١٥- ومَن لا يُسَلِّم للحوادثِ راضيًا
بمَا تَحكُمُ الأيَّامُ يرضَ بها قسْرا

الدر الفريد ٦٨/٢ وورد البيت الحادي عشر هكذا: «ألا أبت».

الشَّرْحُ: «الغِبُّ من كلِّ شيءٍ: عاقبته وآخره». المعجم الوسيط (غبب) ص ٦٤٢.

(٦)

وقال: [من الطَّويل]

١- عطفتُ على غصنِ الصِّبا فاجتنيتُه
وخضتُ إلى لذّاتِه بحرَه الغَمْرا

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدرّ الفريد

٢- ومأمونةٍ بالغيبِ ضُمِّنْتُ سرّها

فبوّأتُه من مُستقرِّ الحشا قبرًا

٣- ومجلسِ فتيانٍ شهدتُ وغادةٍ

حميتُ وأمرٍ قد بعثتُ له أمرًا

٤- ومثقلةٍ حُمِّلتُها فحملتُها

وخطبٍ جليلٍ قد رحبتُ به صدْرًا

يقول منها:

٥- مُنينا من الدُّنيا بورهاءَ فارِكٍ

إذا هي أغضتْ أعقبتْ نظرًا شزْرًا

٦- وآخرُ إحسانِ الليالي إساءةٌ

على أنّها قد تُتبعُ العُسرَ اليُسْرا

٧- أبيتُ سميرًا للمُنى مُثريًا بها

وأغدو سليبًا من مَواهبِها صفْرا

الدُّرّ الفريد ٢١٨/١، وقبل البيت الخامس بيت لم تتوجّه لي قراءته، والبيتان ٦، ٧ له فيه ١٨٨/٥، والبيت السادس بلا نسبةٍ في الفرج بعد الشدة ٥٧/٥، والبيت السّابع بلا نسبةٍ في الغرر والعرر ٣٠٤، وروايته فيه هي: «يبيت سميرًا... ويضحى سليبًا»، والبيت السّادس بلا نسبةٍ في محاضرات الأدباء ٧٩/٤ برواية: «العسر باليسر»، وفي الغرر والعرر بيت لم يرد في الدّيوان هو:

وذي طمعٍ يغدو بقيةَ عمره

ويمسي ولم تجمع يداه له وفرا

وتضاف الأبيات إلى رقم (١٢٦)، ص ٢٢٠ من ذيل الدّيوان، وقال «ابن أيدمر ٢١٨/١»: الورهاء: القليلة العقل، و «غضيت الأرض غضىً: كثر فيها الغضى - و الرجل: أطبق جفنيه على حدقتيه، المعجم الوسيط (غضا) ص ٦٥٥، و«الشَّزْر: نظرٌ فيه إعراض كنَظَر المُعادي المُبْغِض. العين (شزر) ٢٢١/٦.

(٧)

وقال في مدح يزيد بن منصور خال المهديّ بالله ٤٧٣/٥، والبيتان تابعان للقصيدة رقم (٣١)، ص ٢٢٠: [من الكامل]

١- متعصِّبٌ بالتّاجِ عدَّتُه - إذا

ما حاربَ - الإقدامُ والتشميرُ

٢- كاللّيثِ يبدُو حين يبدُو خلفَهُ

وأمامَه التّعظيمُ والتّوقيرُ

(٨)

وقال: [من البسيط]

لا أستريحُ إلى تَمويهِ مَعذِرةٍ

إلا أتاني عتابٌ فيه لي قلقُ

الدُّرّ الفريد ١٨٧/٢، ٢٩٧/٥، ويضاف للمقطّعة رقم ١٥٠، ص ٢٢٨ ويوضع البيت فيها بعد البيت الثّالث.

(٩)

وقال من قصيدة طويلة في مدح الخليفة المأمون: [من الكامل]

١- حسبُ العواذلِ لو قنعنَ بذاكا

أن النّوى قذّافةٌ بهواكا

يقول في المدح منها:

١- ماذا يَرى أهلُ الضّلالةِ بعدَما

قرعتْ لذي الرّأي الحكيمِ عَصاكا

٢- فكأنني بكَ قد عدلت صُدورَها
وهديتَ قصدَ سبيلها الشكاكا

٣- وصفحتَ منَّانًا عليهمْ قادرًا
وبسطْتَ سجلَك فيهمْ وندَاكا

٤- إن الإمامَةَ والأمانةَ بعدَها
قرانُ لكـ ـــــ لم...

٥- أعطاكَها الله الحليمُ بمنِّه
فاشكرْ عطيتَه التي أعطاكا

٦- تاالله لو لم يَعهدُوا لك عَهدَها
أعيَا البريَّةَ أن تُصيبَ سِواكَا

٧- أنَّى توَجَّه عنك قصدُ خلافة
أطنابُها مشدودةٌ بعُراكا

٨- خيرُ الفروعِ مغارسًا ومنابتًا
فرعٌ نَمَا بك غصنُه ونَمَاكا

٩- بيتٌ بناه لك النَّبيُّ محمدٌ
وخلقتمُ دعمًا له ومسَاكا

١٠- ثكلَ الثواكلُ من بغَاك بكيدِه
وبكى البواكيَ من أرادَ رَداكا

١١- إن البريَّة ما تزالُ بنعمةٍ
تعتدُّها لله ما أبقاكا

١٢- فاسلمْ لمُلك في يديك نظامُه
ولأمَّةٍ شملتْهمْ نُعماكا

١٣- أثبتَّ أحكامَ الهُدَى ورعيتَها
فرَعَى لك الله الذي استرعَاكا

الدُّرّ الفريد ١/٢٣٠، وأسقطت بيتًا بعد البيت الحادي لأنه ورد في الدّيوان في مطلع المقطعة رقم (١٥٨)، ص ٢٢١ لذا أسقطته، كما أسقطت بيتًا من مطلع القصيدة، والبيت العاشر في الدُّرّ الفريد ٢/١٨٤، والبيت الحادي عشر فيه ٢/٢٢٥، وهما واضحان في هذين الموضعين لذا أثبتهما بروايتهما فيهما، وفي عجز البيت الرابع طمس.

(١٠)

وقال ٥/١٧٣: [من الخفيف]

نصفُ قلبي قدْ ماتَ شوقًا ونصفٌ
قدْ أتاهُ من المنَايَا رَسُولُ

(١١)

وقال: [من الطَّويل]

١- وردْنَا وفي أطرافِنَا جَاهليةٌ
وغَشْمٌ وفينَا جُرأةٌ و تقحُّمُ

٢- وكنتُ امرأً آبي الدَّنيَّةَ شَامِخًا
وأظلمُ أحيانًا ولا أتكلَّمُ

٣- إذا ما قرنتَ الجَهلَ بالجَهلِ (قالوا)
خليقةُ حِلمٍ سَمَّحَتْ أو تَحَلُّمُ

الدُّرّ الفريد ٢/١٤٢، وصدر الثَّالث فيه هكذا: «بالجهل قادوا»، وورد فيه قبلها بيت لم يرد في الدّيوان وورد في كتاب صريع الغواني مسلم بن الوليد: حياته وشعره ص ٥٩٠.

(١٢)

وقال: [من مخلع البسيط]

١- مَن يُكْرِمِ النَّاسَ يُكْرِمُوه
ومن يُهِنْهمْ يَجِدْ هَوانَا

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدّر الفريد

٢- ومَــن يُـقِـل عـثـرةً يُـقِـلـهـا

ومــن يُــغْــنِ لــم يَــزَل مُـعَـانَـا

٣- وخـيــرُ حــالِ الـفـتـى إذا لـم

يــزَلْ مُـعِـيـنًـا ومُـسـتـعـانًـا

٤- وصـاحــبٍ كــانَ حـيـن كـانَـا

فـصَـدَّ عــن وُدِّنــا وخَــانَـا

٥- فـقـلـتُ لـلـنَّـفـسِ: صَـارِمـيـه

فـامـتـنَــــــــــــعـتْ...

٦- لــو زال سـلـطـانُـه رآنـا

بـغـيـرِ عـيـنٍ بـهـا يَـرانَـا

الدُّرّ الفريد ١٥٤/٥، ومكان النّقاط بعض الكلمات المطموسة، والبيت الثّالث له فيه ٢٧٧/٥، والبيتان الأوّلان ومعهما بيتان لم يردا هنا للعاقولي في بهجة المجالس ٧٠٨/١، وأشار المحقّق إلى تدافع البيتين اللّذين لم يردا هنا.

(٩) أبو العتاهية (ت٢١١هـ):

(١)

قال ٩٥/٤،وهو من مزدوجاته كما قال المؤلف:

[من الرجز]

عـلـيـكَ يـا هـذا بـحُـسـنِ الـزّادِ

لابُــدَّ والله مِــن الـمَـعَـادِ

(٢)

وقال: [من المنسرح]

والـمـرءُ يَـعـمَـى عَـمَّـن يُـحِـبُّ فـإن

أقـصَـرَ عـن بـعـضِ مـا بـه أبـصَـرْ

الدُّرّ الفريد ٢٤٨/٥، وله في بهجة المجالس ٨١٦/١، وقال المحقّق: إنه لم يرد في الدّيوان، قلت: هو بلا نسبةٍ في سِمط اللآلي ٤٥٢/١.

(٣)

وقال: [من الطّويل]

ومـطـروفـةٍ عَـيـنـاهُ عـن عَـيـبِ نَـفـسِـهِ

ولـو بـانَ عَـيـبٌ مـن أخـيـهِ لأبـصَـرا

الدُّرّ الفريد ٥/ ٢٩٩، وبلا نسبةٍ في ربيع الأبرار ١٦٧/٢ باختلاف في الرّواية.

(٤)

وقال: [من مجزوء الكامل]

١- بَـخِـلَ الأمـيــرُ (بــإذنِـهِ)

فـجـلـسـتُ فـي بـيـتـي أمِـيـرَا

٢- وتــركــتُ إمــرتَــه لــه

والله مــحــمــودٌ كــثـيـرَا

الدُّرّ الفريد ٦٥/٢، وورد الأوّل فيه محرّفًا هكذا: «بإذنه»، وهو بلا نسبةٍ ودون تحريف في رسائل الجاحظ ٥٩/٢.

(٥)

وقال: [من البسيط]

١- اخـلَـعْ عـذارَكَ فـيـمـا تَـسـتَـلِـذُّ بـه

واجـسُـرْ فـإنَّ أخـا الـلَّـذَّاتِ مـن جَـسَـرَا

٢- واحـفـظْ خـلـيـلَـكَ لا تـغـدرْ بـه أبـدًا

لا بـارَكَ الله فـي مَـنْ خـانَ أو غـدرَا

الدُّرّ الفريد٢٥٤/١، والثّالث له فيه ٢٤٤/١، برواية: «احفظه، وعجز الأوّل في الدّيوان، وهما له في الجليس والأنيس ١٧٨/٣، وانظر تعليق محقّقه وتخريجه في الهامش. والبيت الأوّل برواية: «فاخلع

وقبله بيت آخر بلا نسبةٍ في كتاب الظُّرف والظُّرفاء ٣٥٥، والبيت هو:

ما طابَ حُبٌّ لإنسانٍ يَلَذُّ بهِ
حتى يكونَ به في النّاسِ مُشتَهَرا

(٦)

وقال ٨١/٢: [من الطَّويل]

إذا ما مضَى يومٌ بأمرٍ تقطَّعتْ
قُواه ورثَّتْ أحدثتْ ليلةٌ أمْرَا

(٧)

وقال: [من مجزوء الكامل]

١- مَنْ عاشَ عايَنَ ما يَسو
ءُ مِنَ الأمورِ وما يَسُرّ

٢- ولَرُبَّ حتفٍ فوقَه
ذهبٌ وياقوتٌ ودُرّ

٣- فاقنعْ بعيشِكَ ترضَه
واملِكْ هواكَ وأنتَ حُرّ

الدُّرّ الفريد ١٣٦/٥، والبيت الثّالث فيه ١٢٣/٤، وهو في الغرر والعرر ٩١ برواية: «اقنع»، ومعه بيت آخر مستدرك هو:

إنّ الرَّدَى تبعُ الهوى
ومن الهَوى حُلوٌ ومُرّ

(٨)

وقال: [من مجزوء الخفيف]

١- سَيكُونُ الذي قُضِي
سَخِطَ العَبدُ أمْ رَضِي

٢- فدعِ الهَمَّ يا فتَى
كُلُّ أمرٍ سَيَنْقَضِي

الدُّرّ الفريد ٢٧٥/٣، وقال الصُّولي في أشعار أولاد الخلفاء ١٠٦، وهذان البيتان لأبي العتاهية من أبيات»، وورد صدر البيت الثّالث فيه هكذا: «ليس هذا بدائم • كل هذا»، وهما بلا نسبةٍ في التّدوين في أخبار قزوين ٨٠/٤ برواية: «كل هم»، وورد البيت الأوّل في محاضرات الأدباء ١٧٤/٢ وقال مؤلّفه أنه كان منقوشًا على خاتمه، وكذلك قال «ابن أيدمر».

(٩)

وقال ٢٦١/٢: [من المديد]

إنّما الدُّنيا كمنزلةٍ
حلَّها الإنسانُ فارتَحَلا

(١٠)

وقال: [من البسيط]

ما لذَّةُ العَيشِ عندي غيرُ واحدةٍ
هي التَّنقُّلُ مِن حالٍ إلى حالِ

الدُّرّ الفريد ٧٦/٥، وعجزه في ديوان أبي العتاهية ص٢٢١ وصدره هناك هو: «لن يصلح النفس إن كانت مصرَّفةً»، والعجز في ديوان عبد الله بن طاهر ٤٤، وصحح محقّقه نسبته لأبي العتاهية.

(١١)

وقال ٢٢٦/٥: [من الوافر]

وما دُنياكَ إلا مثلَ فَيْءٍ
أظلَّكَ ثُمَّ آذنَ بانتقالِ

(١٢)

وقال: [من الوافر]

يبشّرني الهلالُ بهدم عُمْري

وأفرحُ كلّما طلعَ الهلالُ !

الدُّرّ الفريد ٥/ ٤٧٥، وله في التّمثيل والمحاضرة ٢٣١ هلالِ

وَنَقصُكَ أَ، وفي الدّيوان ص ٢٢٦ بيت قريب منه، هو:

تُسَرُّ إذا نَظَرتَ إلى ن نَظَرتَ إلى الهلالِ !

(١٣)

وقال: [من الكامل]

١- مَنْ عفَّ خفَّ على الصَّديقِ لقاؤهُ

وأخُو الحوائجِ وجهُهُ مملُولُ

٢- وأخُوك من وفَّرت ما في كيسِهِ

فإذا عَبِثتَ به فأنتَ ثقيلُ

٣- يلقاك بالترحيبِ ما لم ترزهِ

فإذا رزأتَ أخًا فأنتَ ذليلُ

٤- والموتُ أهونُ من سؤالِك باخلاً

فَتَوَقَّ لا يَمْنُنْ عليكَ بخيلُ

٥- هِبَةُ البخيلِ شبيهةٌ بطباعِهِ

فهو القليلُ وما يُنيلُ قليلُ

٦- والعِزُّ في حسمِ المطامعِ كلِّها

وإن استطعتَ فمُتْ وأنتَ تُنيلُ

الدُّرّ الفريد ١٩٨/٥ دون البيت الثّالث، والأبيات ١ - ٣ فيه ١٢٧/٥، والبيتان ١، ٢ بلا نسبةٍ في الصداقة والصديق ١٧٢ (ط. الكيلاني)، والبيت الأوّل بلا نسبةٍ في المنتحل ٧٤، والتذكرة الحمدونية ١٥٦/٨، مع اختلاف في رواية بعض الأبيات في بعض المصادر، وفي التذكرة الحمدونيّة تخريج على عيون الأخبار، وبهجة المجالس والمستطرف. قلت: وفي المستطرف ٣٠٣/٢ بيتان مستدركان آخران مع هذين البيتين، هما:

١- لا تسألنَّ إلى صَديقٍ حاجَةً

فيحولَ عنكَ كما الزَّمانُ يحولُ

٢- واستغنِ بالشَّيءِ القليلِ فإنَّه

ما صانَ عرضَك لا يُقالُ قليلُ

ورواية البيت الثّالث فيه هي: «ما في كفه • فإذا علقت به».

(١٤)

وقال: [من الرجز]

١- أعِدْ على نفسِك أسلافَ الأُمَمْ

وقِفْ على ما في القبورِ من رِمَمْ

٢- وناديهمْ أينَ القويُّ منكم الـ

قاهرُ أمْ أينَ الضَّعيفُ المهتَضَمْ؟

٣- تفاضلتْ فوقَ الثرى أقدامُهم

وقد تساوتْ تحتَها كلُّ قدَمْ !

٤- قبرُ الكَريمِ والبَخيلِ واحدٌ

ما نَفعَ البخلُ ولا ضَرَّ الكَرَمْ !

٥- واعجبًا لمتَّقٍ أمَامَهُ

هجومُ ما لا يُتَّقي إذا هَجَمْ !

٦- إذا تَخطَّاهُ على غضِّ الصِّبا

أو الشَّبابِ لم يَفُتْهُ في الهَرَمْ !

٧- إن النُّجومَ الزّاهراتِ أبَدًا
تعجَبُ من مُبْتَسِمٍ إذا ابتَسَمْ

الدُّرّ الفريد٤/٢٩٦، والبيت الثّالث فيه ٣/١٥٥ برواية: «تساوى»، وهي بلا نسبة في المدهش ٢٨٥ باختلاف الرّواية في بعض الألفاظ، وبزيادة البيتين التاليين قبل البيت الأخير:

١- أما كَفَى الإنسانَ موتُ بعضِهِ
وهو المشيبُ المستطيرُ في اللِّمَمْ

٢- أي خليلينِ أقامَا أبَدًا
ما افترقَا وأيُّ حبْلٍ ما انصَرَمْ؟

(١٥)

وقال ٢/٢٤٤: [من الكامل]

١- إن المُريبَ وإن تَسَتَّرَ وجْهَهُ
بثيابِهِ فكأنّه عُرْيَانُ

٢- والمنكراتُ وجوهُهُنَّ قبيحةٌ
والعارفاتُ وجوهُهن حِسَانُ

(١٦)

وقال ٤/٢٢٢: [من الخفيف]

قلَّمَا ينتهِي عن الغَيِّ مَن لَيـ
ـسَ لهُ مِنهُ واعِظٌ يَنهَاهُ

(١٧)

وقال: [من مجزوء الكامل]

ما لم يضِقْ خُلُقُ الفتَى
فالأرضُ واسعةٌ عليهِ

طُوبى لِمَن جرتِ الأُمُو
رُ الصّالحاتُ على يدَيهِ

البيت الأوّل في الدُّرّ الفريد٥/٧٩، والبيت الثّالث فيه ٤/٥٢ وأنشدهما في روضة العُقلاء عبد العزيز ابن سليمان الأبرش ٦٥، ومعهما بيت آخر، هو:

للخيرِ أهلٌ لا تَزا
لُ وجوهُهم تدعو إليهِ

(١٠) أبو دُلَف العِجْلي (ت ٢٢٦ هـ):

(١)

قال ٢/٢٣: [من الطّويل]

ألا لعنَ اللهُ اللّئيمَ وفعلَهُ
وأردَى بُغَاةَ الإفكِ والدَّخسَ النُّكْرَا

الشّرحُ: الدَّخسُ: الرّجل الكثير اللحم». العين (دخس) ٤/١٩٣.

(٢)

وقال ٢/٢١٦: [من الكامل]

لأوطِئَنَّ الخيلَ عُقْرَ ديارِهِ
يخطُونَ بالرّاياتِ والأعلامِ

• ورد البيتين في الدُّرّ الفريد منسوبين لأبي دُلف فقط، وهما في فهرس الأعلام في الدُّرّ الفريد ٥٧٩ لأبي دُلف العجلي، ولما لم أقف عليهما منسوبين لأبي دلف آخر، ولأنّهما يشبهان شعره تم إثباتهما هنا إلى أن يثبت عكس ذلك.

(١١) دِعْبِل بن علي الخُزاعيّ (ت٢٤٦هـ):

(١)

قال في كثرة الجيش ٤/٢٨٠: [من الطّويل]

وكالليلِ أو كَالسَّيلِ أو عَـدَدِ الحَصَا

رِجَـالٌ وَفُـرسَـانٌ وَخَيـلٌ تُـصَـبِّـحُ

(٢)

وقال ٢/ ١٢٠: [من الطَّويل]

تَـرَى خَـرَزَاتِ الـقَولِ يُنْظَمْنَ عِنْدَه

ويُصْبِحُ للفَحْشَاءِ والهَجْرِ هَاجِرَا

(٣)

وقال ٥/ ٣٦٦: [من الكامل]

هَطَلَتْ سَمَاءُ لِسَانِه فَتَبَجَّسَتْ

بِمَقَالَةٍ فَصلٍ وحِلمٍ راسِ

(٤)

وقال ٢/ ٣١٠: [من الكامل]

إن عَاتَبوا قومًا يكن سفراؤهم

بيضًا يكون عتابُها بها تقريعًا

(٥)

وقال ١/ ٣٢٣: [من الكامل]

وإذا اغتدَى عَكَفَتْ عليه سَحابةٌ

للطَّيرِ تطلُبُ عندَه أرزاقَها

(١٢) الوزير المهلَّبي (ت٣٥٢هـ):

(١)

قال: [من الطَّويل]

١- سَأُقْصِرُ بِيوَانَ الشَّبيبةِ آنفًا

على طلَبِ العَلياءِ أو طلبِ الأجرِ

٢- لكل مُحِبٍّ سَكرةٌ من حبيبِه

ولِي منكَ سُكرٌ لا يَزالُ على سُكرِ

٣- فديتُكَ، عُذري في المَحبَّةِ وَاضحٌ

ومالَكَ في هَجْرِ المُحِبينَ من عُذرِ

٤- أحبُّ سَماعَ اللَّومِ فيكَ لأنَّه

وعيشِكَ لا يُسْلِي محبَّكَ بل يُغْرِي

٥- أليسَ من الخُسْرانِ أنَّ لَياليًا

تمرُّ بلا نفعٍ وتُحْسَبُ من عمْري

الدُّرّ الفريد الأبيات ٢ - ٥ له في ٢/ ٢٥٤، والبيتان ١، ٥ فيه ٣/ ٢٤٤، ٢٤٢، باختلاف في رواية بعض الألفاظ في بعض هذه المواضع، وصرَّح «ابن أيدمر» ٣/ ٢٤٢ بأخذها مع التَّغيير في بعض ألفاظها ضمن قصيدته المذكورة في الصفحة ذاتها، والبيت الأخير لبعض الشعراء منهم: الوزير المغربي في ديوانه ١٣٢ وأبو الحسن التِّهامي في ديوانه ٢٦٥، والقاضي عبد الوهاب المالكي البغدادي في ديوانه ٧٤.

(٢)

وقال: [من الخفيف]

١- ضافَني الهَمُّ ليلةَ الظَّعنِ يحدى

واستطارَ الغُموضُ هيهَاتَ غمْضُ!

٢- ضحكَ البِيضُ أن تحنَّتْ قَنَاتي

ولقد أغتدي وعُودي غضُّ

٣- ضَوءُ صُبحِ (القتير) لاحَ برأسِي

فبقلبي لطائفِ الهمِّ نبْضُ

٤- ضاعَ في غُرَّةِ الشَّبيبةِ بعضُ الـ

عمرِ بُطْلاً وضاعَ في الشَّيبِ بعْضُ

٤- ضَرَبَ الشَّيبُ مفرقِيَّ بسيفيـ

ـه فمَا بي إلى هوى لي نهْضُ

٥- ضعُف البطشُ من يدٍ كان فيها
لـيَ بَسْـطٌ إذا أشـاءُ وقَبْـضُ

٦- ضَلَّة ما طلبتُ وَصْلَ الغواني
حازَ منّي الـغَـداةَ للغَيِّ رَفْضُ

٧- ضافَرَتْني على السُّمُوِّ بنفسي
عَزمـةٌ ذاتُ جَحْـفَـلٍ ما يُفضُّ

٧- ضَنْكُ عيشِ الفتى ثَراءٌ إذا كا
نَ بـه فـيـهِ لـلـضَّـراعـةِ مَـضُّ

٩- ضَعَةُ الـحُـرِّ رِفعـةٌ في زمـانٍ
طـرفُـه فـيـهِ لـلـعَـبـيـدِ يغضُّ

١٠- ضَرَعَ الطَّالبُ الغَنيُّ لِهَنَاتٍ
صِينَ منّي عنهُنَّ وَجهٌ وعِرْضُ

١١- ضَيغَمٌ في الوَغى وَحيَّةُ وادٍ
لـيَ نهشٌ إذا أسـاؤوا وعَضُّ

١٢- ضَيمُ مثلي يعزُّ هذا جَناحي
لـيسَ إلاّ لـمؤمـنٍ فيه خَفْضُ

١٣- ضجَّ منّي جِنُّ البلادِ فللأبـ
ـصارِ من هَيبتي خُضوعٌ وغَضُّ

١٤- ضِغْنُهم كامنٌ وإن ظَهرَ الحبْـ
ـبُ فسِيانِ حُبُّهم والبُغْضُ

١٥- ضَرِعُوا بالصَّغارِ هل تَخرجُ الزُّبـ
ـدةُ حتى يطولَ بالوَطْبِ مَخْضُ

١٦- ضعْ برغمٍ عصاكَ في الهامِ منهم
فـخـدودُ الـعِـدَى لـنعلِكَ أرْضُ

الدُّرّ الفريد ٢٨/٤، والثَّالث فيه ٢٩/٤، والرَّابع فيه ٣٧/٤، والأبيات: التَّاسع، والخامس عشر، والسَّادس عشر فيه ٤١/٤، والبيت العاشر فيه ٤٠/٤، وورد البيت الثَّالث فيه هكذا: «ضوء صبح القتير»، وهو تصحيف.

الشَّرْحُ: القتير: أي الشَّيب. تاج العروس (يفن) ٢٩٩/٣٦، و«الجَحْفَلِ: الجيش الكثير ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خَيْل». لسان العرب (جحفل) ٥٥٢/١، و«الضَّيغم: الأسد الواسع الشِّدق». المعجم الوسيط (ضغم) ص ٥٤١، و«الوَطْب: سقاءُ اللَّبَن وجَمْعُهُ: وِطابٌ وأوطابٌ». العين (وطب) ٤٦٠/٧.

(١٢) الوَزير المغربي (ت ٤١٨ هـ):

(١)

كتب إلى «أبي العلاء المعرّيّ»: [من الخفيف]

١- أتعاطى نَزْعَ الرَّكِيِّ وقد قصـ
ـرَ عن أنْ ينالَ ماءٌ رِشاءُ

٢- ولعَهدي بفكرتي وهي تَنْجا
بُ لها عن صَباحِها الظَّلْماءُ

٣- غيرَ أنّي وإن تَعاوَرَني الهمْـ
ـمُ وشاءَ الزَّمانُ ما لا أشاءُ

٤- ورَماني مُستَيْقِنًا أنَّ قلبًا
بينَ جَنْبَيَّ صَخْرةٌ صَمّاءُ

٥- لا أُبالي ما الليلُ طالَ أم اليَو
مُ كلا الرُّتْبَتينِ عندي سَواءُ

٦- المغادي هو المُراوحُ من همْـ
ـمي فهذا الصَّباحُ ذاك المساءُ

٨- وإذا العَينُ لم تعاينْ سوى السُّو
ء فسيان ظلمةٌ أو ضياءُ

٨- وابنيَ الهَمُّ لا ابنُه أنا إذ قيـ
ـلَ ابنُ هَمٍّ بليَّةٌ عَمْيَاءُ

الرِّواية (١) ورد البيت الأوّل في الدُّرّ الفريد ٥/ ٢٠٤ برواية: «نزح البكاء».

(٥) وورد البيت الخامس فيه ٥/ ٢٠٤ برواية: «لا أبالي باليوم طال أم الليل».

(٦) وورد البيت السَّادس فيه ٢/ ٢٤١ برواية: «من هم فهذا».

التَّخريج: الدُّرّ الفريد ١/ ٢٢٥، ٥/ ٢٠٤، والبيت الخامس فيه ٥/ ٣٩٥، والبيت السَّادس فيه ٢/ ٢٤١، وعجز البيت الأخير تضمين من ديوان الحارث بن حِلِّزة ص ٦٧.

الشَّرْحُ: «الرَّكيَّةُ: بئرٌ تُحفَرُ، فإذا قلت: الرَّكيّ فقد جمَعْته». العين ٥/ ٤٠٢.

(٢)

وقال ٣/ ١٤٣: [من السريع]

١- تَطْرُقُ أهلَ الفَضْلِ دونَ الوَرَى
مَصَائبُ الدُّنيا وآفَاتُهَا

٢- كالطَّيرِ لا تُحْبَسُ من بينِها
إلا التي تُطْرِبُ أَصْواتُهَا !

(٣)

وقال في رسالة إلى «أبي العلاء المعرّي» وأخيه ٢/ ٦٣: [من المتقارب]

١- بأيِّ فؤادٍ أحسُّ الهُمُوم
وفي أيِّ جَفْنٍ ألَذُّ الرُّقَادَا؟!

٢- وما تَرَكَ الدَّمْعُ لي مُقْلَةً
ولا خَلَّفَ البينُ عندي فُؤَادَا !

(٤)

وقال في رسالة إلى «أبي العلاء المعريّ» الدُّرّ الفريد ٥/ ٢٥٩، والبيت الثَّالث فيه ٤/ ٢٤٨:

[من الطَّويل]

١- وإنِّي لجَاني البعدَ والبعدُ قاتلي
وشاحذُ حَدِّ البَينِ والبَينُ لي مُرْدِي

٢- فوا أسفًا مَن ذا ألُوم على النَّوى؟
ومن قَبلي كانَ الفراقُ ومن عِندي !

٣- وكمْ قد أقلْتُ الدَّهْرَ من خَطَأ
فَهلاَّ أقالَ الدَّهرُ من خَطأ فَرْدِ؟

٤- فنَفْسٍ من كَرْبٍ وبَرْدٍ من ظمى
وجمْعٍ من شتٍّ وقُرْبٍ من بُعْدِ؟

(٥)

وقال ٥/ ٧١: [من الكامل]

١- ما كانَ يُعْرفُ عند غيرِكُم
قبلَ السُّؤالِ يُقَدَّمُ الرِّفْدُ!

٢- أَسَمِعْتُمُ بالغَيْثِ جاءَ ولم
يُؤْذَنْ بِهِ بَرْقٌ ولا رَعْدُ؟

(٦)

وقال ٢/ ١١: [من المتقارب]

١- إذا عُوفيَ المرءُ في جسْمِهِ
ومَلَّكَهُ اللهُ قلبًا قنُوعَا

٢- وألقى المطامعَ عن نفسِهِ

فذاكَ الغنيُّ ولو ماتَ جوعَا

(٧)

وقال: [من البسيط]

١- يهزُّني إن رَنَتْ نفسي مَلامَهُمُ

حتَّى تراني رحيبًا بالأذى باعي

٢- فسوفَ أنهضُ إمَّا نالَ ذو أرَبٍ

منِّي مُناهُ وإمَّا قامَ بي ناعِ

الدُّرّ الفريد ٢٩٧/٥، والبيت الثَّالث فيه ١٩٢/٤، ويوضعان بعد البيت الثَّالث في المقطعة رقم ٦٧، وهي برمتها له في الدُّرّ الفريد ٢٩٧/٥.

(٨)

وكتب إلى « أبي العلاء المعري » وأخيه في رسالته إليهما ٧٦/٢: [من الطّويل]

١- بقيةُ شلوٍ كسَّرَ البينُ عظمَهُ

ومزقَ جلدًا كانَ يسترُ ما بقِي

٢- أقامَ فلا تلكَ الخوافي تطيعُهُ

نهوضًا ولا تلكَ القوادمُ ترتقِي

الشَّرْحُ: « الشِّلو: الجسد والجلدُ من كلِّ شيءٍ والشِّلو: العضو ». العين (شلو) ٢٨٤/٦. وقال «أبو حاتم: تسمَّى الرِّيشات العشر اللَّواتي في مقدم الجناح القداميات، واحدتها قدامى، والقوادم واحدتها قادمة، وما بعدها من الرِّيش الخوافي واحدتها خافية». المخصَّص ١٢٠/٨.

(٩)

قال: [من الوافر]

١- رأيتُ الحُسْنَ في أدبٍ وعقلٍ

وفي الجهلِ الدَّمامَةُ والهَوَانُ

٢- وما حُسنُ الرجالِ لهم بزينٍ

إذا لم يُسْعِدِ الحُسنَ البيَانُ

٣- كفَى بالمرءِ عيبًا أن تَراه

له جِسْمٌ وليسَ له لِسَانُ

٤- كمثلِ النَّقشِ ليسَ له حَسيسٌ

إذا صوَّرتَه وله عِيَانُ

التَّخريج: الدُّرّ الفريد ٢٩٨/٢، والبيتان ٢، ٣ بلا نسبة في عيون الأخبار ١٦٩/٢، والغرر والعرر ١٦٧ برواية: «له وجهٌ فيهما، والبيت الثَّالث لرجل من قريش في معجم الأدباء ٢١ برواية: «الحسن اللسان»، ومعه البيت التَّالي:

وكم من ماجدٍ أضحى عديمًا

له حُسْنٌ، وليس له بيانُ

وفي هامش معجم الأدباء تخريج للبيتين على بعض المصادر الأخرى.

فلعلَّ الوزير المغربي أخذهما وبنى عليهما مقطَّعته تلك، أو لعلَّه تمثَّل بالمقطعة من شعر غيره، وقد أثبتها هنا لحين اتضاح أمرها.

وفي النِّهاية لابدَّ من الإشارة إلى أنَّني أسقطتُ استدراكات على دواوين بعض الشُّعراء بسبب صعوبة عثوري على آخر نشراتها مثل ديوان «الخُبزأرزي» الذي قرأت أنه نُشر مؤخرًا بعد تحقيق «محمد حسن آل ياسين»، واستدراكات بعضهم عليه، وليلتمس لي القارئ الكريم العذر إن كنت قد أثبتُّ شيئًا - وهمًا منّي ودون قصد - هنا ربَّما يكون موجودًا في الأصول المضاف إليها،

أو في ما تمّ استدراكه عليها، فالأمر لا يعدو من جانبي سوى الحرص على الاستقصاء، ولا بدّ من الإشارة أيضًا إلى أنّني وقفت في مصادر التراث العربي على أشعار أخرى لهؤلاء الشعراء لم ترد في دواوينهم، وقيّدتُ كثيرًا منها لبعضهم على أمل أن تكون لي عودةٌ إليها حتى تكتملَ الصّورة التّامّة لدواوينهم، وتظهر شاعريتهم على حقيقتها التي نوّه بها النقّاد القدماء، وحتى تكون نتائج الدّراسات الأدبية على تراثنا الشّعري صحيحة لأنّها حينئذٍ تكون مؤسّسةً على أساسٍ متين، لا يعتورها خداجٌ. وعلى الله قصد السبيل.

المصادر

١- أساس البلاغة: للزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق: لأبي بكر الصّولي (ت٣٣٥هـ)، تحقيق: ج هيورث، دن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣- الأعلام: لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٤- الأمالي: للزّجاجيّ (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٥- أوهام المحققين: لمحمّد حُسين الأعرجي، دار المدى، سورية، ط١، ٢٠٠٤م.

٦- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس: لابن عبد البر القرطبيّ (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد الخولي، دار الكتب العلمية، د. ت.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس: للزّبيديّ (ت ١٢٠٥ هـ)، ج٣٦، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، سلسلة التراث العربي، الكويت، ٢٠٠١م.

٨- التّدوين في أخبار قزوين: لعبد الكريم القزوينيّ (ت ٦٢٣هـ)، بعناية: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

٩- التذكرة الحمدونيّة: لابن حمدون؛ محمد بن الحسن (ت ٥٦٢ هـ)، تحقيق: إحسان عباس وآخر، دار صادر، ط١، ١٩٩٦م.

١٠- التمثيل والمحاضرة: لأبي منصور الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتّاح الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٨٣م.

١١- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي: للمعافي بن زكريا النّهروانيّ (ت٣٩٠هـ)، تحقيق محمد مرسي الخولي، وآخر، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٧م.

١٢- جمهرة اللّغة: لابن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

١٣- الدّرّ الفريد وبيت القصيد: لمحمّد بن أيدَمر (ت٧١٠هـ)، مخطوط أشرف على طباعته مصورًا: فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ١٩٨٩م.

١٤- دواوين الشّعر والمستركات في الدّوريات والمجاميع الشّعرية: لمحمّد جبّار المعيبد، معهد المخطوطات العربيّة، ط١، ١٩٩٨.

١٥- ديوان أعشى همْدان (ت٨٣هـ): جمع وتحقيق د. حسن عيسى أبو ياسين، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م.

١٦- ديوان بشار بن برد (ت١٦٧هـ)، تحقيق: محمد الطّاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧ م.

١٧- ديوان جَحْظة البرمكيّ (ت ٣٢٤ هـ): جمع وتحقيق وشرح: جان توما، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

١٨- ديوان الحاجب المصحفي (ت ٣٧٢ هـ)، جمع وتحقيق: محمد محمود يونس، مجلة آداب المستنصرية ع١٢، ١٩٨٥م.

١٩- ديوان أبي الحسن التّهامي (ت ٤١٦ هـ)، تحقيق: محمد الرُّبيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٩٨٢م.

٢٠- ديوان دِعْبِل بن علي الخزاعي (ت٢٤٦هـ)، صنعة: عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللّغة العربية بدمشق، ط٢، ١٩٨٣ م ، وجمع وتحقيق: محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٢م.

٢١- ديوان أبي دُلف العجلي (ت٢٢٦هـ): جمع وتحقيق: يونس أحمد السامرائي، ضمن كتاب شعراء عباسيون (ج٢)، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

٢٢- ديوان عبد الله بن طاهر (ت٢٣٠ هـ)، تحقيق: قحطان عبد الستار، مجلة الخليج العربي، ع٦، ١٩٧٦م.

٢٣- ديوان عبد الوهاب المالكي، القاضي: تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دار البحوث الإسلامية، دبي، ٢٠٠٤م.

٢٤- ديوان أبي العَتاهية (ت٢١١ هـ) ضمن كتاب أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق د. شكري فيصل، مكتبة دار الملاح، دمشق، د. ت.

٢٥- ديوان عدي بن زيد العبادي (ت٣٦ق. هـ): جمعه وحققه: محمد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م.

٢٦- ديوان علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – (ت ٤٠هـ): جمعه وضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

٢٧- ديوان عمرو بن معدي كرب الزّبيدي، جمع وتحقيق: مطاع طرابيشي، دمشق، ط٢، ١٩٨٥م.

٢٨- ديوان قيس بن ذَريح (ت ٦٨هـ) تحقيق: حسين نصّار، ضمن كتاب: قيس ولبنى: شعر ودراسة، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، ١٩٧٩م

٢٩- ديوان كثيّر عزّة (ت١٠٥هـ): تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧١م.

٣٠- ديوان المتوكّل الليثي (ت ٨٥هـ): تحقيق: يحيى الجُبوري، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧١م.

٣١- ديوان مجنون ليلى (ت ٦٨هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣٢- ديوان المقنّع الكندي (ت٧٠هـ): جمع وتحقيق: نوري حمودي القيسي، ضمن الجزء الرابع من كتاب شعراء أمويون، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٣٣- ديوان النّابغة الجَعدي (ت٥٠هـ): جمع وتحقيق: واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م

٣٤- ديوان النّابغة الذّبياني (ت١٨ق. هـ): تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٥م، وتحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٩٠م، وتحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية، ١٩٧٦م، وتحقيق: محمد مفيد قميحة، دار المطبوعات الحديثة، السعودية.

٣٥- ديوان الوزير المغربيّ (ت ٤١٨هـ): ضمن كتاب الوزير المغربي: دراسة في سيرته وأدبه وما تبقى من آثاره: إحسان عباس، دار الشروق، عمان، ط١، ١٩٨٨م.

٣٦- ديوان الوزير المهلبي (ت٣٥٢هـ): صنعة: جابر الخاقاني، مجلة المورد، مج٢، ع٢، ١٩٧٤م.

٣٧- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: للزمخشري (ت٥٢٨هـ)، تحقيق د. سليم النعيمي، بغداد، د. ت.

٣٨- رسائل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م.

٣٩- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: لأبي حاتم البستي (ت٣٥٤هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٤٠- الزّهرة: لأبي بكر محمد بن داود الأصفهاني (ت٢٩٦هـ)، تحقيق: نوري حموي القيسي وآخر، دار المنار، الأردن، ط٢، ١٩٨٥م.

٤١- سِمط اللآلي في شرح أمالي القالي: لأبي عبيد البكري (٤٨٧هـ)، تحقيق العلامة: عبد العزيز الميمني (ت١٩٧٨م)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٣٦م.

٤٢- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق: فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

٤٣- شرح ديوان الفرزدق: إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٣م.

٤٤- شرح ديوان صريع الغواني (ت٢٠٨هـ)، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٨٥م

٤٥- الصداقة والصديق: لأبي حيان التّوحيدي (ت ٤١٤هـ) تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٤م.

٤٦- صريع الغواني: مسلم بن الوليد، حياته وشعره: عبد القادر الرّباعي، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٦.

٤٧- الظّرف والظّرفاء: لأبي الطيب الوشاء (ت٣٢٥هـ)، تحقيق ودراسة: فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٤٨- العَين: للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

٤٩- عيون الأخبار: لابن قُتَيْبَة الدّينَوري (ت ٢٧٦هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥م.

٥٠- غُرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة: لبرهان الدين الكتبي (ت ٧١٨هـ)، دار صعب، بيروت.

٥١- الفرج بعد الشدة: للمحسّن بن علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت ١٩٧٨م

٥٢- لسان العرب: لابن منظور (ت٧١١هـ)، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وآخرين، دار المعارف، مصر.

نصوص شعرية جديدة مستخرجة من مخطوط الدّر الفريد

٥٣- مجلة عالم الكتب، الرياض، مج ١٧، ع٥، الربيعان، ١٩٩٦م.
٥٤- مجلة عالم المخطوطات والنوادر، مج١٠، ع٢، ٢٠٠٥م.
٥٥- مجلة العرب، الرياض، ج ٢ - ٦، ١٤٢٧هـ.
٥٦- مجلة كلية اللُّغة العربية، جامعة الأزهر، المنوفية ٢٠٠٥م.
٥٧- مجلة مجمع اللُّغة العربية بدمشق، مج٥٥، ج١، ١٩٨٠م.
٥٨- مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ٣٠، ٣١، ١٩٨٦، ١٩٨٧م.
٥٩- مجلة المورد، مج١٨/ ع٣/١٩٨٩.
٦٠- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
٦١- المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب: للسري الرَّفاء (ت ٣٦٢هـ) تحقيق:ماجد الذهبي وآخر، دمشق ١٩٨٦م.
٦٢- المخصّص: لابن سيده الأندلسي (ت ٤٥٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٣- المدهش: لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ضبطه وصححه وعلق عليه: مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٤- المستدرك على صناع الدواوين: نوري القيسي، وهلال ناجي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٦٥- المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي (ت٨٥٤هـ)، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
٦٦- معجم الأدباء: لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م.
٦٧- المعجم الوسيط: نخبة من أعضاء مجمع اللُّغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٦٨- المنتحل: لأبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، صححه: أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٩٠١م.
٦٩- الموسوعة الشعرية (cd)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٣م.
٧٠- نشر الشِّعر وتحقيقه في العراق حتى نهاية القرن السابع الهجري: لعلي جواد الطاهر، وعباس هاني الجراخ، بغداد، ٢٠٠٢م.
٧١- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: محمود الطناحي، وطاهر الزاوي، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٩٦٣م.
٧٢- الوافي بالوفَيات: لصلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) ج١٢، تحقيق: رمضان عبد التواب، دار نشر فرانز شتاينر، شتوتجارت، ١٩٨٥م.

محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربيّ الميليّ القسنطينيّ من أهل القرن ٩هـ/١٥م

الأستاذة/ سهام دحماني
الجزائر

التعريف به:

هو محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الميليُ التميميُ نسباً القسنطيني مولداً ومنشأ، هكذا ورد اسمه كاملا في مقدمة كتابه الذي يحمل عنوان: الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

غير أن هناك اضطراباً في تحقيق اسم هذا العالم، نظراً لندرة من تطرق للتعريف به من أصحاب كتب التراجم، وصار شرحه لرسالة عمر بن الخطاب علما عليه، فاهتدينا إلى شارح الرسالة عند عبد الكريم الفكون لكن اسمه حسب الفكون هو أبو العباس أحمد الغربي، وجاء عنه أن أصله من ميلة[2].

عاش محمد الغربي الميلي في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري حسب ما جاء في كتابه، وأنه عاصر السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (٨٣٩هـ-٨٩٣هـ) الذي ألف له هذا الشرح الفريد في وضعه، وجاء في الشرح أنه عاصر حدوث نازلة بتونس سنة ٨٤٩هـ/م[3].

وبالعودة إلى مؤرخ الدولة الحفصية الزركشي نجد قاضيين فاضلين من أهل قسنطينة حمل أحدهما اسم أبو القاسم القسنطيني، واسمه الكامل أبو القاسم بن سالم الوشتاتي القسنطيني، كان يشغل منصب قاضي الجماعة والإمامة والفتيا بجامع الزيتونة غير أنه توفي سنة ٨٤٦هـ/ م[1]. أما الثاني فهو أبو العباس أحمد القسنطيني سماه الزركشي الفقيه المكرم، كان قاضي الأنكحة بحضرة السلطان أبي عمرو عثمان قدمه لهذا المنصب سنة ٨٥٨هـ، وأسند إليه أيضا التدريس بمدرسة المنتصرية التي بسوق الفلقة، وفي عام ٨٦١هـ/ م قدم خطيبا بجامع أبي محمد والفتيا به، مع قيامه بخطة قضاء الأنكحة بالحضرة تونس، توفي هذا القاضي سنة ٨٦٤هـ/

بتونس وسنه إحدى وأربعين سنة[٥]. وهناك قاض ثالث لكنه تولى منصب قضاء المحلة في عصر أبي عمرو عثمان دائما وهو الفقيه محمد القسنطيني سنة ٨٧٥هـ/م[٦].

بالمقارنة بين أولئك الأعلام وما تقدم عن صاحب الترجمة يمكن استبعاد القاضي الأول؛ نظرا لأنه توفي قبل تاريخ النازلة التي وجدناها في الشرح.ليست لدينا معلومات كافية عن القاضي الثالث، أما القاضي أبو العباس أحمد القسنطيني الذي عَرَّف به كما قلنا الزركشي فإنه شخص آخر غير مترجمنا؛ لأن اسم هذا القاضي ورد في النازلة المذكورة وقال عنه محمد الغربي فيها: «قلت: وقد نزلت مسألة بحضرة تونس حرسها الله تعالى مما يناسب هذا الفصل في عام تسعة وأربعين وثمانمائة في أيام مولانا الملك العدل الهمام ناصر الدين وحزب الله المتين أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان أبقاه الله وذريته كهفا للإسلام...قام بعد ذلك مطالبا بزوجته بعد وفاة القاضي الحاكم عليه يريد نقض حكمه ليسترجع زوجته إليه عند الشيخ الفقيه القاضي المدرس الخطيب أبي العباس أحمد القسنطيني إذ هو متولي قضاء الأنكحة بعد وفاة القاضي الحاكم المشار إليه...» [٧] كما أن الخبر الذي ورد عند الرصّاع (ت ٨٩٥هـ)، والذي يفيد بأن القاضي أبو القاسم القسنطيني كان له ابن اسمه أبو العباس أحمد القسنطيني، وكان هو الآخر قاضياً[٨]. وعليه فإن القاضي أبو العباس أحمد الذي أشار إليه الرصاع قد يكون هو القاضي الذي ورد في النازلة، مما يزيد في دعم فكرة أن أبو العباس هذا ليس نفسه أبو العباس الغربي الذي عرف به الفكون ولا هو محمد بن محمد الغربي.

وعليه يبقى السؤال مطروحا:هل أبو العباس أحمد الغربي الذي عرف به الفكون هو نفسه محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الذي خُطَّ اسمه على شرح الرسالة ؟

استناداً إلى أن الفكون قد عرف بأبي العباس أحمد الغربي من خلال ما سمعه بالتواتر عن أهل المدينة، حيث قال في بداية ترجمة هذا العالم:«وممن سمعنا به...» [٩]، أي سماعا بالتواتر، ثم إن أفراد هذه العائلة كانوا على صلة بعائلة الفكون، بل أن الفكون نفسه كان صديقاً لأحد أفراد عائلة الغربي شارح الرسالة وصهرا له، وهو المسمى بأبي العباس أحمد المدعو أحميدة بن أبي الحسن الغربي[١٠]. فإننا نرجح أن يكون القاضي محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الميلي القسنطيني هو نفسه أبو العباس الغربي الذي عرف به الفكون.

إن هذا الإشكال يبقى محل تساؤل، لكنه سيزول بالعثور على فهرسة هذا العالم التي أشار إليها الفكون، التي ما تزال في حكم المفقود حتى الآن، نسأل الله أن ييسر العثور عليها لتكملة تحقيق ترجمة هذا العالم الفذ.

لذا نقول أن محمد بن محمد بن القاسم الغربي، المدعو أبو العباس أحمد الغربي، أصله من ميلة، ولد ونشأ في قسنطينة، نسب عائلته في تميم[١١]. درس على شيوخ كثر ضمنهم فهرسته المذكورة، وفي كتابه الافتتاح ذكر شيخا واحد وهو أبو علي عمر القلشاني[١٢]، هذا الأخير عيَّنه السلطان أبي عمرو عثمان (٨٣٩-٨٩٣هـ) قاضياً للجماعة بعد أبي القاسم القسنطيني الوشتاتي

(ت ٨٤٦هـ)[١٣]، وكان حيا سنة ٨٤٩هـ.

أما تاريخ وفاة محمد الغربي فلم نتمكن من ضبطه، وحتى الفكون لم يذكر سنة وفاة أبي العباس أحمد الغربي.

ينتسب إلى هذا العالم أبناء واصلوا الحفاظ على إرث عائلة الغربي المشهورة بقسنطينة بالقضاء والفتيا والخطابة وهم:

١. أبو الفضل الغربي:ابن أبي العباس أحمد الغربي، من فقهاء قسنطينة، ومن أهل الشورى، شغل بها منصب قاضي الجماعة إلى جانب التدريس، كان ذا مال وتجارة، عاصر الشيخ أبو عبد الله محمد العطار (ت٩٤٢هـ)[١٤]، وقاسم الفكون (ت٩٦٥هـ)[١٥] عم مؤلف منشور الهداية عبد الكريم الفكون، إلا أنه كان أسن منه.قال عنه الفكون بأنه أصابه في آخر عمره خبل أفضى الأمر فيه إلى سجنه بسببه.لم يحدد الفكون سنة وفاة هذا القاضي[١٦].

٢. أبو الحسن الغربي:الفقيه المفتي ابن أبي الفضل الغربي، تصدر للإفتاء بقسنطينة زمن جد الفكون، وهذا الأخير كان معاصراً لعمر الوزان الذي توفي سنة ٩٦٥هـ[١٧]، وكان مدرساً بها، كان الغالب عليه فن الحساب والتعديل والمنطق.جرحه الفكون بقوله:«... وأخبرني جمع كثير ممن يقتدى بقوله أنه لا باع له في العلم إلا أن شهرة أسلافه أورثته المنصب المذكور، وينسبون إلى الشيخ أبي العباس أحمد الخطيب...»[١٨]. لم يثبت الفكون سنة الوفاة بسبب بياض في المخطوط.

٣. أبو العباس أحمد المدعو أحميدة بن أبي الحسن الغربي:هو حفيد أبي الفضل القاضي السابق الذكر، لقبه الفكون بأبي العباس الميلي والغربي[١٩]، كان من أكابر أهل قسنطينة، كان مقرباً من باياتها العثمانيين، وفي خدمتهم، شغل منصب مفتي البلدة، قال عنه الفكون:«...كان ذا نجابة في أحوال الدنيا وطلب رياستها...وكان مقليا عند الخاصة، وينسبون إليه أمورا لا يليق صدورها بعاقل...»[٢٠].

صاهر الفكون في ابنته وبقيت عنده ثلاث سنوات ثم طلقها الفكون، وكان ذلك - حسبه - سبب الوحشة بين الرجلين، رغم أنهما في البداية كانا صديقين، في هذا قال الفكون:«... كان في أول زمانه ممن أحبنا لله وأحببناه فيه...»[٢١]. امتحن من الولاة العثمانيين عدة مرات وسجن وأغرم المال، وكان حسب الفكون - دائما - متعرضا لسخط الخاصة والعامة بسبب الرشا ومداخلته الأعراب والولاة، غير أنه توفي على بساط العافية وهو يلهج بالشهادتين سنة ١٠٣٠هـ[٢٢].

هذه هي عائلة الغربي الميلي التي نالت شهرة كبيرة بفضل جدهم صاحب الترجمة، فاشتهروا بتولي خطة القضاء والتدريس والإفتاء والخطابة، وبأنهم ذوي جاه ومال.

آثاره:

حسب الفكون فإن هذا القاضي كان له مؤلفات عديدة منها فهرسة عامرة بشيوخه من العلماء المشاهير، و«...حاشية على المقترح[٢٣]، وأخرى على الإرشاد[٢٤]، وله مسائل في الفوائت رتبها

أحسن ترتيب، وأخرى في التعليقات دالة على ما هو عليه من التحقيق وحسن الترتيب...»[٢٥].

بالإضافة إلى كتاب الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة عمر بن الخطاب[٢٦]، قال عنه الفكون:«...الشيخ أبو العباس شارح رسالة سيدنا عمر بن الخطاب، فشرحها بشرح لم يسبق إلى مثله في وصفه، ضمنه جملة من الأحكام التي قل أن توجد في مثله، وجملة من التاريخ ومسائل اعتقاديه وصوفية وحكايات مستطرفة، وكل ذلك مبني على تبحره في العلم وقيامه بوظيفته...»[٢٧].

وصف المخطوط:

هذا الكتاب ما يزال مخطوطا بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم ٩٦١، يقع في ٤٢٦ صفحة أي ٢١٣ ورقة، قياسه: ٢٩٫٣٣، ٢٥سم، عدد الكلمات في السطر الواحد ١١كلمة، مسطرته ٢٠، نوع الخط مغربي جميل، لون الحبر بني.

دواعي التأليف:هناك ثلاث اعتبارات دفعت محمد الغربي إلى تأليف هذا الكتاب هي :

- جرت عادة ملوك بني حفص وعلى رأسهم السلطان أبي عمرو عثمان عقد مجالس علمية تجلب فيها أفانين العلوم المتباينة الأساليب والرقوم، فجرى في أحد المجالس التي حضرها المؤلف ذكر رسالة عمر بن الخطاب في القضاء وأهميتها لعلم القضاء، وأنه أنكر بعض المنكرين نسبتها لعمر الفاروق، فتشوفت نفس هذا العالم لتخصيص كتاب مستقل يشرح مجمل هذه الرسالة ويبين تلويحها، وعن هذا الأمر يحدثنا قائلا :«...فحث على جمعه ما جرى من ذكرها وتشوف النفوس إليها، ولم أسبق بشرح عليها في مجلس مولانا الإمام العدل الهمام حامي الدين وفخر الملوك والسلاطين...أمير المؤمنين أبي عمرو عثمان..على عادة مجلسنا المبارك...»[٢٨].
- وإنه لم يسبق بشرح عليها[٢٩]، رغم أهميتها، فهي فصل الخطاب، تضمنت تلويحاً كثيراً يعجز عن فهمه من باعه في الأدب قليل، فتصدى هذا الفقيه القاضي المالكي لإفرادها بشرح مستقل.
- كتبها أيضا لتكون صلة حب إلى الخليفة الفاروق، فيحشر في زمرة من أحب، وفي هذا قال: «...وحصل لي الإدلاء إلى الفاروق بسبب متين والتحصن إن شاء الله بحمى كنف جنابه الحصين...»[٣٠].

منهج التأليف:

بدأ التأليف بخطبة الكتاب التي نوه فيها بأهمية العلم، والأحكام منه على الخصوص، وكذا أهمية الرسالة، ودواعي شرحها، ومنهجه في الشرح، وفي هذا قال:«...يحتوي على فوائد وفرائد في فصول موزعة على لفظ الرسالة شارحة لها موضحة لرقة معانيها، مكشفة عن أسس مبانيها، وما يتبع ذلك وينخرط في مسلكه مما يناسب المعنى ولو لم يكن له تعلق باللفظ...»[٣١].

أظهر المؤلف براعته الأدبية بكتابة شعر يجمل أغراض خطبة الكتاب وفيه قال[٣٢]:

مطالع أنوار الغربي أشرقت **بشرح بدا يبقي السرور مدا الدهر**

وأبدع في ترصيع رونق جمعها **بنقل صحيح العزو والبحث بالفكر**

وما ذاك الاستمداد إلا كرامة
بسعد أمير المؤمنين أبي عمرو
ونشر سرور العز فوق لوائه
يلوح بجاه المصطفى طيب الذكر
أوائله تجري عليه بنعمة
وآخره في مثل أوله يجري

وبعد خطبة الكتاب شرع في نقل نص الرسالة، ونبه على تعدد الروايات بزيادات ونقص واختلاف في الألفاظ، خاصة روايتي ابن سهل والمتيطي، دون أن يصرح بالمصدر الذي أخذ عنه نص الرسالة[٣٣].

ثم أخذ في شرحها كلمة كلمة، فقرة بفقرة، مُصدِّراً ذلك بعبارة: وقول عمر رضي الله عنه، أو وقوله رضي الله عنه. وبحسب المناسبة يستطرد في ذكر ما ناسب موضوع الشرح من أقوال العلماء المحققين ذوي العقول السنية[٣٤]، خاصة المالكية منهم كالإمام مالك (ت ١٧٩هـ) وسحنون (ت٢٤٠هـ)، وابن سهل، وابن رشد (ت٥٢٠هـ) وابن عرفة (ت ٨٠٣هـ)، وابن مرزوق (ت٧٨١هـ)، وابن عبد السلام الهواري التونسي (ت٧٤٩هـ). ويمضي في استطراده إلى ذكر الأخبار التاريخية، والأمالي الأدبية من نثر وشعر، وطرائف، تتميما للفائدة[٣٥].

كما ضمن شرحه إشارات صوفية، حين تحدث عن أحوال العارف، وشرائط المحبة، وكرامات الأولياء ودلائلها، وتكلم على الخواطر الحاصلة للإنسان نقلا عن الغزالي والتفتازاني[٣٦].

استخدم منهج المقارنة والترجيح في عدة مواضع منها قوله: «...تأمل ما بين حد الشيخ ابن عرفة وحد الشيخ ابن مرزوق، فكأن الشيخ ابن مرزوق حد القضاء بثمرته...»[٣٧].

بالإضافة إلى منهج الاستنباط، ومثاله أنه استنبط من شرح حديث بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى وسبعين فائدة، واستنبط من قول عمر: وقاس الأمور. على مشروعية القياس، وَرَدَّ بذلك على منكره[٣٨].

خلاصة ما تقدم أن المؤلف التزم في شرحه خطة قائمة على تحقيق ثمرة الشرح، آلا وهي تفصيل المجمل، وإظهار التلويح.واستخدم لتحقيق ذلك أدوات علمية كالشرح اللغوي، والاستطراد، والمقارنة والاستنباط.وقد جاء شرحاً مرتفعاً عن الإيجاز ومنحطا عن الإطناب.

الفوائد:

ضم هذا الشرح بين دفتيه فوائد عديدة، يمكن أن نجمل بعضها في:

١- فوائد أدبية:تظهر في نقوله من كتب اللغة كسيبويه والخزرجي وغيرهما من أئمة اللغة عندما شرح البسملة، ومعنى أما بعد، والقضاء...الخ، بالإضافة إلى الشعر والحكم الكثيرة التي جاء بها تتميما للفائدة.

٢. فوائد تاريخية:الكتاب في حد ذاته فائدة تاريخية؛ لأنه نتاج حضارة ازدهرت في إفريقية الحفصية، خاصة عهد السلطان أبي عمرو عثمان.

نجد فيه نقولاً من كتب المؤرخين، فقد نقل لنا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وغزواته، وجاء بأخبار الخلفاء الراشدين، وعرف بشخص أطراف الرسالة عمر بن

الخطاب وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، كما تحدث عن أخبار بني أمية وبني العباس، وقد توسط في ذلك بين الإيجاز والإطناب.

فيه أخبار تعود إلى العصر الحفصي نقلاً عن ابن عرفة حول كيفية تعيين السلاطين لقضاة الحضرة، منها حادثة وقعت زمن السلطان أبي يحيى أبو بكر حين أراد تعيين الفقيه ابن عبد السلام الهواري (ت٧٤٩هـ).

نقل لنا وقائع نازلة وقعت بتونس سنة ٨٤٩هـ حول موضوع تطليق الزوجة على زوجها الغائب ببينة.

وهي أخبار تجعل منه مصدراً مهمًا لكتابة تاريخ خطة القضاء في العصر الحفصي، وخاصة عهد السلطان أبي عمرو عثمان.

٢. فوائد في علم القضاء: تضمنت الرسالة أحكاما كثيرة تخص القضاء على الفقه المالكي، كأحوال القاضي وأحكامه، نقض القاضي لأحكامه، الصلح وحكمه، الشهادة وأحكامها، عزل القاضي، وغيرها من الأحكام التي يستطيع أن يفيد منها من يدرس موضوع القضاء عند المالكية، وحتى وجوه من تطبيقاته الحالية.

في الختام نخلص إلى أن هذا الكتاب يدل على عالم متبحر له حظ من علم الشريعة والأدب والتصوف، رجل مشارك في قضايا عصره، يبحث عن ثمرات العلوم، ويريد أن يأتي بالجديد فيها.

الحواشي

١. محمد بن محمد بن القاسم الغربي الميلي القسنطيني: الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة عمر بن الخطاب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم ٩٦١١،ص.١٠.

٢. عبد الكريم الفكون: منشور الهداية وكشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص.٤٠.

٣. محمد الغربي: الافتتاح من الملك الوهاب، مخ، ص. ٢٤٩. أحمد سحنون: رسالة القضاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٢، ص.٤٠٤.

٤. أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د.ت)، ص.١٣٧، ١٣٩، ١٤٠.

٥. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص.١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

٦. الزركشي: تاريخ الدولتين، ص.١٥٨.

٧. محمد الغربي: الافتتاح من الملك الوهاب، مخ، ص.٢٤٩.

٨. أبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع: فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧، ص.١٢٦.

٩. الفكون: منشور الهداية، ص.٤٠.

١٠. الفكون: منشور الهداية، ص.٧٥.

١١. تميم قبيلة عربية، مضاربها شمال شرق الحجاز على تخوم العراق، ينتسب إليها العديد من الأعلام من المغاربة، منهم أمراء الدولة الأغلبية، وأبو العرب تميم التميمي صاحب طبقات علماء افريقية وتونس.

١٢. أبو علي عمر القلشاني، من عائلة القلشانيين المتصدرة لقضاء الحضرة تونس، كان يشغل في

عهد السلطان أبي عمرو عثمان منصب قاضي الجماعة، في نفس الفترة التي كان يشغل فيها أبو حفص عمر القلشاني (ت٨٤٧هـ) خطة قضاء الأنكحة في عهد ذات السلطان، مما يجعلهما شخصين لا رجلا واحدا كما ذهب إلى ذلك الأستاذ أحمد سحنون في رسالة القضاء لعمر بن الخطاب، ص ٤٠٤-٤٠٥، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص.١٢٥.

١٣. الزركشي:تاريخ الدولتين، ص.١٢٥.

١٤. الفكون:منشور الهداية، ص.٣٩، ٤٠.

١٥. أنظر ترجمته في منشور الهداية، ص.٤٣، ٤٤.

١٦. الفكون:منشور الهداية، ص.٥٥، ٥٦.

١٧. الفكون:منشور الهداية، ص.٣٧، ٤١.

١٨. ذكر المحقق أبو القاسم سعد الله أن المقصود بأبي العباس الخطيب هو على الأرجح ابن قنفذ القسنطيني الذي يحمل ذات الاسم وكان توفي سنة ٨١٠هـ. غير أن الأرجح أكثر هو أبو العباس الغربي الجد الذي نترجم له في هذه الورقة، مما يعني أنه كان خطيباً أيضاً. الفكون:منشور الهداية،ص٥٦.

١٩. هذه النسبة جعلت الأستاذ عادل نويهض ينسب كتاب الافتتاح من الملك الوهاب إليه والحقيقة أنه لجده الذي له نفس الكنية (أنظر: عادل نويهض:معجم أعلام الجزائرمن صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، ١٩٨٠، ص.٢٥٠.

٢٠. الفكون:منشور الهداية، ص.٧٥.

٢١. الفكون: منشور الهداية، ص.٧٥.

٢٢. الفكون:منشور الهداية، ص.٧٨.

٢٣. هو كتاب مقترح الطلاب،موضوعه الجدل والمناظرة لأبي المظفر محمد بن محمد بن سعد البروي (ت ٥٦٨هـ) في بغداد. أنظر:ابن قنفذ:الوفيات، ص.٢٨٦. وهامش تحقيق منشور الهداية للأستاذ أبو القاسم سعد الله، رقم ٠١، ص.٤١.

٢٤. كتاب الإرشاد لأبي المعالي عبد الملك بن محمد الجويني (ت ٤٧٨هـ)، وهو كتاب في أصول الدين والاعتقاد.أنظر هامش التحقيق، رقم ٢ص.٤١.

٢٥. الفكون:منشور الهداية، ص.٤١.

٢٦. محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الميلي القسنطيني:الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، مخ الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٩٦١.

٢٧. الفكون: منشور الهداية، ص.٤٠.

٢٨. محمد الغربي الميلي القسنطيني:الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة مولانا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، مخ، ص.٠٢.

٢٩. في الواقع تم شرح هذه الرسالة من طرف عدة علماء، منهم المبرد (ت ٢٨٥هـ) في كتابه الكامل، والسرخسي (٤٨٣هـ) في كتابه المبسوط، وأبو بكر بن العربي(ت ٥٤٣هـ) في كتابه عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وأطول شرح لها يقع في حوالي ٥٠٠صفحة، متفرقا في الجزأين الأول والثاني من كتاب أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية الحنبلي (٧٥١هـ).عن هذه الشروح أنظر:أحمد سحنون:رسالة القضاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص.٢٢٧، ٢٣٥، ٢٦٥، ٢٧٣.غير أن مظهر التجديد لدى مؤلفنا هو إفراده بكتاب مستقل، في حين الشروح السابقة جاء الشرح فيها ضمن أبوابها المرصودة للأقضية والشهادات كموضوع فرعي.

٣٠. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٤٢٦.

٣١. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٠١.

٣٢. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٠١.

٣٣. أحمد سحنون:رسالة القضاء، ص.٤٠٥.

٣٤. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٤٢٦.

٣٥. أحمد سحنون:رسالة القضاء، ص.٤٢٩، ٤٣١.

٣٦. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٢٤، ٣٢، ٢٥٠، ٢٥٥.

٣٧. محمد الغربي: الافتتاح، ص.٤١٠.

٣٨. أحمد سحنون:رسالة القضاء، ص.٤٢٣، ٤٢٤.

المصادر والمراجع

- **الافتتاح من الملك الوهاب في شرح رسالة عمر بن الخطاب**، لمحمد بن محمد بن القاسم الغربي الميلي القسنطيني: مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط، رقم ٩٦١.
- **منشور الهداية وكشف حال من ادعى العلم والولاية**، لعبد الكريم الفكون: تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧.
- **رسالة القضاء لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه**، لمحمد الغربي و أحمد سحنون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٩٩٢، ص.
- **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، لأبو عبد الله محمد ابن إبراهيم الزركشي: تحقيق وتعليق، محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، (د ت).
- **تاريخ الدولتين**، لزركشي.
- **فهرست الرصاع**، لأبو عبد الله محمد الأنصاري الرصاع: تحقيق وتعليق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٧.
- **منشور الهداية**، الفكون.
- **كتاب الإرشاد لأبي المعالي عبد الملك بن محمد الجويني (ت ٤٧٨هـ).**

مظاهر كوديكولوجية: التراث العربي وفضاءات ما وراء الختم

محمد بوزيان بنعلي
فجيج - المغرب

إذا كان مصطلح «الكوديكوغرافيا» يعني فن تحليل ووصف المخطوطات، فإن مصطلح «الكوديكولوجيا» يتعلق بدراسة كل أثر مكتوب لا يرتبط بالنص الأساسي (المتن)، وبالتالي بحث العناصر المادية للمخطوط.. وبعبارة أخرى هو علم يهدف إلى دراسة كل ما هو مكتوب في الهوامش من شروح وتصحيحات، ما إلى ذلك من معلومات عن الأشخاص الذين تملكوه أو نسخوه أو قرأوه أو استعملوه أو وقفوه، ثم الجهة التي آل إليها، والمصدر الذي جاء منه، ثم العناصر المادية المتعلقة بصناعة المخطوط: من ترتيب وتوريق وترقيم وغير ذلك، ثم تاريخ المجموعات، ووضع القوائم والفهارس العلمية، والكشافات، وفهارس الفهارس وغيرها..[1].

وإذا كان هذا العلم قد نشأ في الغرب حديثا، فإن الدارسين العرب وبيبليوغرافييهم خاصة بدأوا يولونه حقه من العناية، باعتبار عناصره من مكونات

المخطوط ومستلزماته التي لا تقل أهمية عن المتن، بل إن بعضها يسفر عن نتائج لا يقدمها المتن نفسه، وبفسر ظواهر حضارية يتقاصر عن مقاربتها، بحيث تستوجب - بجدارة - التعجيل بإدراجها ضمن شروط التحقيق الذي لم يتحرر بعد من التركيز شبه التام على عملية إخراج المتن من هيئة المخطوط إلى هيئة المطبوع..

ولما كانت عناصر هذا العلم متشعبة ومتنوعة - كما يظهر أعلاه - فإننا سنركز في هذه المقالة على واحد منها، هو ما يكتب على الطرر، علما بأن مفهوم الطرر هنا يتسع ليشمل الجهات الأربع من الصفحة المخطوطة، تبعا لمدلولها اللغوي الذي يعني حافة الشيء وطرفه

من غير تحديد، وبذلك يصير من توابعها الهوامش والحواشي.. غير أن استيعابها جمعاء أمر يفوق طاقة مثل هذه المباحث التي تتطلب التركيز والاختصار؛ وعليه سنقتصر على ما أسميناه « فضاءات ما وراء الختم » أي تلك الكتابات التي تبدأ عادة حيث ينتهي المتن بذكر اسم الناسخ، ومكان النسخ، والدعاء والتصلية وحمد الله تعالى..

ولن نبدأ قبل الإشارة إلى أن أجدادنا رحمهم الله استرعى اهتمامهم، وأخذ بمجامع ألبابهم - قبل ظهور الكوديكولوجيا بقرون خلت - ما تزخر به تلك الفضاءات من نوادر الفوائد وغرر العوائد، فراحوا يسجلونها بسخاء في كناشات ومجاميع، وبعضهم زاد على ذلك فألف كتبا كاملة في الموضوع، منهم: الوزير علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ) في كتابه «نهزة الخاطر ونزهة الخاطر في أحاسن ما نقل من على ظهور الكتب والدفاتر»[٢].. ومن المعاصرين نذكر الأديب الموسوعي جميل بن مصطفى العظم الدمشقي (١٢٩٠ - ١٣٥٢هـ) وكتابه: «الصبابات فيما وجدته على ظهور الكتب من الكتابات»، وسار على منواله محمد خير رمضان في كتابه «الغرر على الطرر»[٣].. وسواهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أهمية هذه الفضاءات لا تنحصر فيما اعتقده جامعوها ممن ذكرنا ولم نذكر في تقديم فوائد جديدة، ومعلومات غميسة، وإنما هي أكبر من ذلك بكثير.. إنها يمكن أن تصبح كشافاً يسلط أضواء ناصعة على جوانب خفية من شخصية المصنف، ويوضح المراحل المعتمة في مسيرة حياته العلمية، بل وحالته النفسية، ووضعيته الاجتماعية.. فالحظ قد يسعف الناسخ في اقتناص هذه الأوابد من مصادر أتى عليها الزمان فأضاعها، أو لم تتجاوز في تداولها معارف ثلّة من النجباء.. وتزداد تلك المعلومات وثوقا وجدوى إن أتت من جهة تلامذته المباشرين أو غير المباشرين؛ فهم به أعرف وأعلى عينا من غيره.. وللتدليل على ذلك نسوق هنا نصيّن عزيزين ثمينيْن التقطناهما من ظهر مخطوطة تفسير القرآن مبوبا على حروف الهجاء[٤] لابن عزيز السجستاني رحمه الله:

- الأول: سماع الكتاب في مجلس حفيل، حضره جمهور غفير من النبهاء الأعلام، جاء فيه:

«بلغ السماع من أول الكتاب إلى آخره على الشيخ الأوحد الإمام الحافظ، أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصبهاني[٥]، رضي الله عنه، بقراءة القاضي المكين أحمد بن القاضي المكين أبي الفضل عبد الله بن الحسين بن حديد[٦]، صاحبه الشيخ أبو علي حسن بن عبد الباقي بن أبي القاسم الأنصاري المعروف بابن الناجي الصقلي[٧]، نفعه الله به، والجماعة السادة أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الحرّاني الحنبلي[٨]، وأبو الحسن علي بن المفضل بن علي المقدسي[٩]، وولده أبو الطاهر محمد، وأبو محمد عبد الله بن طاهر بن عبد الواحد الكناني[١٠]، وولده أبو النجم فرقد، وأبو القاسم

هبة الله بن علي بن النحاس[11]، وولده أبو الفتح محمد...».. ثم مضى على هذه الشاكلة يعدد عشرات من نبهاء العلم، وفطناء الأحلام آنذاك...[12].

الثاني: فصل أملاه على الناسخ الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم البلنسي[13]، ونصه:

«قال أبو التمر أحمد بن عبد الرحمن[14]: قرأت هذا الكتاب على ابن خالويه، رحمه الله، قال: قرأته على أبي عمر الزاهد تصحيحاً، قال: وسمعته، وهو يقرأ على ابن الأنباري أبي بكر.. قال ابن خالويْه: «كان أبو بكر محمد بن عُزَيْز[15] مؤلف هذا الكتاب من أكابر أصحاب ابن الأنباري علماً وستراً وصلاحاً، وكان يؤدب أولاد العامة - ويأتي جامع المدينة كل جمعة ومعه زنبيل صغير فيه دفاتر، فيطيل الصمت، وإذا تكلّم قال حقا، وكان ثقة، ولم يؤلف غير هذا الكتاب. وادّعاه رجل عند سيف الدولة لنفسه، فذكر ابن خاويه أنه لابن عُزَيْز، وأخرج نسخة وُجدتْ في المجلس؛ فسقط ذلك الرجل عند سيف الدولة وأقصاه[16].»

إن استغلال هذين النصين من شأنه إحداث ثورة بيوغرافية في شخصية أبي التمر، وشخصية ابن عزيز التي لا تزال أشبه بهيّان بن بيّان كما عبر الأقدمون عن المجهول، فلا زال أرباب معاجم الرجال وكتب الطبقات يراوحون مكانهم في اسم أبيه، هل هو عُزَيْز بزاي أو عزير براء؟[17].. وإني على مثل اليقين أن حرص الناسخ - وهو منه في عهد قريب - على تقديمه مضبوطاً بزايَيْن وصيغة تصغير أراد أن يحسم هذا الإشكال، ويضع الاسم في مداره الصحيح.. ناهيك عما قيل عن خموله وتواضعه وشهرة كتابه، وهذه القراءة التي لم نجد إليها إلماعاً في أي مصدر، ولم يذكرها ابن العديم في ترجمة أبي التمر

وقد تتخطّى وظيفة هذه الفضاءات توسيع التراجم نحو نشر طي أعلام مغمورين، وتوثيق شواهد ميلادهم في المشهد الثقافي العربي.. فما أكثر الذين سخروا حياتهم في خدمة العلم والفكر، ثم ماتوا، ودُفنت معهم أسماؤهم وجهودهم وعطاءاتهم، وتلك ظاهرة عامة عند العرب والمسلمين، إلا أنها تكاد تكون بتاريخ المغرب ألصق، حتى قال العلاّمة المؤرخ الشيخ عبد السلام القادري[18]: «وكم عالم كبير، وولي شهير في القطر المغربي أهمل التعريف به المغاربة المتقدمون منهم والمتأخرون؛ حتى التحق عند المتأخرين بمن جُهل حالُه وزمانه».

من هؤلاء مثلا العالم اللغوي أبو إسحاق البهاري السبتي، صاحب الإملاء المنتخل[19]، وحكيم الموحدين أبو حامد الفجيجي[20]، وشيخه إبراهيم بن يوسف بن أحمد المراكشي الشهير بالسكاج[21].. وأشباههم معدودون غزيرون!

ولكي تزداد ثقتنا فيما توفره فضاءات ما وراء الختم في هذا المجال بالذات نقف أمام شخصية مغربية لا أثر لها إلا فيها.. وكأني به شعر بالغبن الذي سيلفه بعد موته؛ فراح ينهي كل منسوخ بأثر يدل على جانب من جوانب

شخصيته، والقصد إلى: أبي الأعلام ياسين ابن إبراهيم المغربي، من أهل القرن السابع والثامن الهجريّن، كان فقيهاً، أديباً شاعراً، لغوياً.. وكان ذا خط بديع معجب .. تنقل بين مراكش ومكناس وغيرهما من حواضر العلم.. وقد نبهنا رحمه الله إلى عاهة مسته في بيتين رائقيّن فازددنا إعجاباً بهمته وإكباراً لتحديه؛ إذ لم تصرفْه عن الانكباب على نساخة الكتب النفيسة، ولا سيما منها اللغوية، قال بعدما فرغ من نسخ قسم من كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني[٢٢] مبدياً عذراً، وواصفاً يداً، ومشبها كفّاً، في بيتين جميليْن، ينبئان عن أديب أريب، وشاعر مقتدر، متحكم في أدوات التعبير، ومتصرف في آليات التصوير: "ومما قلته في صفتي يدي نظما: [الطويل]

كتبتُ وعذري في يديَّ فإنّه
تقطّعَ منها نحو ربْعٍ من الكفِّ
فمن إصبعي الوسطى إلى الكوعِ إنّها
مضارعة في بريها بفم الخف[٢٣]

وذكر في المحل نفسه أنه «نسخه عن قلق وتعجيل» ولعل في هذه الإلماعة ما يحيل على ظروف حياتية ونفسية غير مريحة ولا سوية، وقد تكون هذه الظروف التي لا نعلمها وراء عدم إكمال نسخ الكتاب..

وفي أحد منسوخاته الأخرى، تراءت لنا على أول وجه من وجوه كتاب «الروض المريع في صناعة البديع» لبلديّه ومجايله العالم الموسوعي ابن البنّاء المراكشي[٢٤] إجازة يتيمة كتبها بخط يده أستاذه العبدري صاحب الرحلة[٢٥]، فكانت أفضل إضافة إلى مسيرته العلمية التي نرجح أنها حافلة بلقاء الشيوخ والنهم العلمي، ولا شك أن مواصلة البحث سيقودنا إلى لبنات أخرى تفيد السائرين وراء صناعة تراجم الأغمار مثله.. ونص الإجازة:

«قرأ علي جميعه من أوله إلى آخره الفقيه الأجل المبارك المشارك: أبو الأعلام ياسين ابن إبراهيم بن زكرياء، أكرمه الله تعالى، قراءة ضبط وتصحيح لألفاظه، وحدّثته به عن مؤلفه الفقيه العالم القدوة: أبي العباس أحمد ابن محمد بن عثمان الأزدي، عُرف بابن البنّاء، حفظه الله تعالى، قراءة مني عليه، والله تعالى ينفع جميعنا بالعلم، ويستعملنا فيما يرضى به عنا، إنه منعم كريم.. قال ذلك وكتبه، في الحادي عشر لربيع الثاني، عام خمسة عشر وسبعمائة، العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري...»[٢٦].

ومن السهل اليسير أن نتبيّن نفاسة هذه الإجازة، في إضاءة المسيرة العلمية لا للتلميذ فحسب، ولكن بالدرجة نفسها لأستاذه نفسه، فهو على الرغم من شهرة رحلته، «فإننا لا نعرف له ترجمة ولا نعلم من خصه بالذكر من القدماء سوى ابن القاضي في جذوة الاقتباس[٢٧]، وقد ترجم له بما يستفاد من رحلته؛ فلذا لا يعرف لا تاريخ ولادته، و لا تاريخ وفاته، ولا كيف نشأ، ولا ما كان من أخباره بعد رجوعه من رحلته، إلى أن توفي رحمه الله..»[٢٨].. ومن هنا أطلق العنان لأنفسهم أرباب كتب التراجم

ومعاجم الرجال، فاجتهدوا - مشكورين - في تلفيق ترجمة له، اجتهاداً جانبتهم فيه الإصابة، وجفاهم التوفيق: منهم من وهم في الاقتراب من تاريخ وفاته[٢٩].. ومنهم من وهم في سلسلة آبائه[٣٠].. ومنهم من جعله رجلين اثنين، فترجمه مرتين[٣١]...

وفي مجال التاريخ السياسي يمكن التصريح بعد مشاهدات عشرات النقول المتناثرة هنا وهناك أنه لا مضطرباً معتماً بدون استثمار هذه الفضاءات التي ستغلو مع الأيام ألح على الباحثين، ولا سيما إذا تعلق الأمر بالحواضر الصغرى التي أخذت تنتفض في وجه الحواضر الكبرى، وتزاحمها المناكب باحثة عن معالمها المندثرة، مكانتها وأدوارها وآثارها في تاريخ بلدها.. وبما أن عملي في هذا المقال محصور في المخطوطات الرابضة في مختلف الخزائن والديار الفجيجية، فسأبرهن على ما أرمي إليه من خلال هذه النقول التي زين بها الناسخ آخر مخطوطة معونة القاري لأبي الحسن علي بن محمد المالكي المصري[٣٢] بعد حمد الله، قال:

«تاريخ الترك حين وقع القتال بينهم وبين البلدي حتى مات خلق كثير بينهم، وذلك في أواخر جمادى الأولى عام واحد وثمانين وثمانمائة. تاريخ نزول الترك بلاد فجيج، وذلك أول المحرم، وقع القتال والهرج بينهم وبين أهل فجيج كثيراً، وأخذ منهم الترك في مطلبهم عشرين ومائة دينار، نصفها سلعة، ونصفها دراهم، وذلك عام واحد وتسعين وتسعمائة.. وتاريخ نزول شلابي ؟ تلمسان، وتولى حكمها، وذلك في ذي القعدة الحرام عام ثمانية وأربعين وألف.. وتاريخ نزول مولانا محمد بن مولانا الشريف بلاد فجيج، وذلك في شوال عام واحد وخمسون وألف، وقتل خلق كثير من أهل فجيج، في قبلة تامزّوغْت، وأما الجراح فقد فشا كثيرا... إلخ»[٣٣].

ولك أن تستقصي هذه المعلومات في كل ما كتب عن تاريخ المغرب، وستنتهي في آخر المطاف إلى أن خطتي لضمانة فرادتها وجدتها لم تخب ولم تنتهك.. ومن هنا أعتقد أن رغبة الحواضر الصغرى، والقرى والأرياف والوديان في إثبات شخصيتها التاريخية لن تتحقق إلا من خلال هذه الفضاءات وما والاها من الطرر، التي سيفضي استمرار إهمالها إلى بقاء هذه الاختلالات المتعددة والمتنوعة في حضارتنا..

ولا شك أن الكوديكولوجيا بكل ما يتفرع عنها من العناصر ستكون خير آلية لوضع تراثنا المخطوط في مداره الصحيح، والاستفادة منه إلى أقصى درجة في بلورة مقومات حضارتنا الشاملة، فلا يفلت من مكوناته أي جزئية كانت: ورقاً أو مدادا و ما إليه من أدوات وأوعية، أو مؤلفاً أو مضموناً أو خطاً أو ناسخاً أو متملكاً أو واقفاً... إلى غير ذلك من العناصر التي لا تزال إلى حد الآن هامشية في عالم التحقيق، حتى إن الاهتمام لا يكاد ينصب منها إلا على ما يتصل بالمؤلف والمتن، إلى بعض الإشارات التي ستتطور – ولا شك – على يد هذا العلم، الذي أصبح يمتح من العلوم الأخرى –قديمة وحديثة– ويستفيد من

مناهجها، فالناسخ مثلا ليس واسطة لتبليغ المتن فحسب، إذ لابد أن يحاسب على طريقته في التبليغ «بالبحث في سلوكه ومزاجه، بل ربما أخضعناه لنظرية الجرح والتعديل، التي طبقت على رواة الحديث واللغة؛ حتى نقبل أو نرفض لا التواريخ فقط، بل حتى شكل النصوص التي نسخها.. فكم من مخطوط منسوخ في تاريخ اطمأن إليه محققه، فثبت بعد دراسة المخطوط دراسة كوديكولوجية أنه نُسخ في زمن تفصله قرون من التاريخ المثبت عليه!..»[٢٤]..

بل كم من مؤلف نسب إلى غير مؤلفه الحقيقي! وخط إلى غير ناسخه الأصلي! وكم عنوان اخترعه المحقق لا يد فيه لصاحب التأليف! وكم من اضطراب خالط المصنَّف بسبب حواش أو تعاليق مضافة!.. وهي اختلالات لم يستطع المحققون تفاديها أو الحد منها إلى يومنا هذا، ولو كان وراءهم خبراء في الكوديكولوجيا، يأخذون بأيديهم، ويهدونهم السبيل الأيسر لما استمرت هذه الهفوات التي تقلل من قيمة الأعمال المحققة، وتطعن في قدرات أصحابها وكفاءاتهم..

إن أي عملية تحقيق لنصوص التراث ينبغي أن يكون القائم بها ذا دراية بهذا العلم الفني إن هو أراد أن يقدم عملاً منسجماً متكاملاً، موثوقاً مصوناً من عيوب التحقيق، الذي يجب أن يتوسع، وتتجدد ضوابطه؛ لانتشاله من شرنقة إخراج المتن من حالة المخطوط إلى حالة المطبوع كما سبق القول. فالعملية بهذا الشكل الجديد أعقد مما هو عليه الحال اليوم وأشق، ولا يقدر عليها إلا المحققون الفرسان ممن لهم قدم راسخة في شتى العلوم، وإن لم يكونوا كذلك، فلا مناص من أن يصبح التحقيق عملية مشتركة بين المحقق والكوديكولوجي. أويتزود الأول من علم الثاني وتقنياته ليثري قدراته، ويصير وصياً أميناً على التراث.. وسيكون ذلك ممكناً جداً حينما تنتشر في العالم العربي «معاهد لدراسة علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا، وتكوين مختصين في هذا العلم، قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الإنسان..»[٢٥]..

ولا زال بين الواقع والمأمول عقبات تنتظر التذليل، ومساحات فارغة ترقب من يملؤها، وطرق أطول من مدرجات المطار علينا أن نقطع مشقتها بكد وصبر وجد للتلحق بالغرب، ونعانق تجربته المتقدمة في هذا العلم الذي هبت علينا رياحه من جهتهم..

إن هذا العلم ينتعش الآن، وتزداد أعداد المنجذبين إليه بقوة الرغبة في تجديد تاريخنا الحضاري، وإعادة النظر فيه، وتصحيح بعض مساراته، والاستفادة من التقدم العلمي والتكنولوجي المتسارع، ومواكبة المدنية المعاصرة.. لكن أغلبهم في الواقع لا يزالون واقفين على العتبة، يسترقون النظر إلى هذه الأمبراطورية التراثية المترامية الأطراف، ويحاولون النبش في مشمولاتها بطرق انتقائية فرضتها ظروف المرحلة مثلما فرضتها سعة فروع الكوديكولوجيا وتعددها، الأمر

الذي لا يُتوصل إلى حسمه بشجاعة واقتدار إلا بالتخصص في فرع واحد والانكباب عليه، عوض الأخذ من كل فرع بطرف، حتى لا تغدو - كما هي الآن - شظايا تصعب المؤالفة بينها، وجمعها في يد واحدة خلا نخبة من المتضلعين المهرة، وهم قليلون في زمن يجب أن يكثروا فيه، وأن لا تخلو منهم آيةُ حاضرة تشتمل على خزائن ومخطوطات..

وبيان ذلك قد نلتقطه من بعض الإشارات السابقة حول فجيج تلك الواحة التي تبدو هادئة على الجنوب الشرقي من المملكة المغربية.. وهي إشارات أقل ما يقال عنها إن جزءا معتبرا جدا من تاريخها - وتاريخ غيرها - السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي والديني والصوفي، تحتضنه فضاءات ما بعد الختم، وهي فرع من الكوديكولوجيا، ينبغي -إجرائياً- أن يستقل بنفسه، ويكون له أهداف وقواعد، وأعلام يلتزمون بها؛ ويسيرون وفق مقتضياتها التي لا تربطها علاقة مباشرة بعملية التحقيق، إذ سيغدو عملهم إلى الصناعة الدقيقة أقرب، بسبب كثرة المخطوطات التي سيتعاملون معها، وتنوع مادتها تنوعاً يحتاج إلى فرز وتصنيف وترتيب وتنقيح.. وليس هذا فحسب، وإنما عليهم أن يكونوا ملمين بما فيه الكفاية بمختلف الحقول المعرفية التراثية، مثل علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ والتصوف والأدب، فبكل هذا - وزيادة - تزخر فضاءات ما وراء الختم... وعليهم بنفس الدرجة أو أكثر أن يتزودوا بمعرفة كافية في الفروع الكوديكولوجية الأخرى، أو ينسقوا مع زملائهم المبرّزين فيها على الأقل؛ فلون إنجاز مهامّهم بنجاح عقبات كأداء منها ما يتعلق بقراءة المخطوط، ومعرفة نوع الخط، ومنها ما يتصل بعدالة الناسخ، وتوثيق المكتوب، وحتى معرفة نوع الورق، والمداد... وهلم جرا إلى ما يؤكد أن هذا العلم متكامل بفروعه وعناصره، كسلسلة موصولة الحلقات لا تعرف أولها من آخرها، ولا أصلها من فرعها..

وإذا عدنا إلى مخطوطات فجيج - وهي نقطة ضئيلة في بحر تراثنا المتلاطم - وحدّقنا بإمعان في فضاءات ما وراء الختم، وما تراكم عليها من معلومات، اكتشفنا من زخمها وتنوعها أن هذا الفرع سيضفي على الكوديكولوجيا أهمية خاصة؛ لأنه سيسمح - أكثر من غيره - باكتشاف عدد ضخم من الزوايا المعتمة في تاريخها خاصة، وتاريخ المغرب عامة، بل ويتعداه إلى تاريخ الأمة الإسلامية ورجالاتها، والعلاقات بين الأقطار والأمصار.. وسيسفر ذلك - ولا شك - عن نقاشات مستفيضة، و نتائج جديدة، و أحكام مؤثّرة، وتنفتح بالتالي بوابة كبيرة نلج منها إلى عملية واسعة من المراجعة والتصحيح تستهدف ذلك التاريخ برمته..

نماذج وصور:

ولعل هذه الخاصية العامة ثبتت فعاليتها عبر ما قدمناه من نماذج آنفا.. وتحت أيدينا أدلة أخرى تتسع لتأليف مستقل ينثر جزئياتها ودقائقها، حسبنا منها الآن أن نختار ما يؤازرها، ويؤازر تصورنا عن أهمية فضاءات ما وراء

الختم، وتبرير سبب إحلاله محل الصدارة في فروع الكوديكولوجيا:

ما يتصل بالمؤلف:

وله تجليات عدة ضربنا إلى بعضها سابقا، ونضم إليها الآن غيضا من فيض ما عثرنا عليه من إجازات ومناولات وأسمعة، وإضافات قيمة متنوعة الشيات، تلقي مزيداً من الأضواء على هذا الكاتب أو ذاك، مثالها: إجازة يتيمة وجدناها في خاتمة تعليق[26] على أرجوزة البدر اللامع في نظم جمع الجوامع، وهو مما نظمه وشرحه الشيخ اللغوي الفقيه علي بن محمد الأشموني الشافعي، ثم أهداه إلى تلميذه الأحظى شاعر فجيج إبراهيم بن عبد الجبار ممهوراً بإجازة فريدة كتبها بخط يده، ونصها بعد الحمدلة والتصلية:

«أما بعد.. فقد تناول مني شرحي هذا سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام العالم العامل الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن سيدنا الشيخ الصالح عبد الجبار ابن أحمد الورتدغيري أمتع الله بحياته، ونفع ببركاته. وقد أجزت أن يرويه عني، ويروي عني نظمي [هذا][27]، وجميع ما يجوز لي وعني روايته. مؤلفه الفقير العاجز علي بن محمد الأشموني الشافعي، لطف الله به في الدارين. قيده في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٩٠٢، والحمد لله رب العالمين»[28]..

والأشموني هذا من الأعلام اللغويين المصريين الذين قصّرت كتب التراجم في نشر طيه، وتضاربت تواريخها في وفاته، فترجمه صاحب معجم المؤلفين ثلاث مرات[39]، بمعلومات متباينة، وتواريخ وفاة متفاوتة، واطأ الزركلي أوسطها الموافق لحوالي ٩٠٠ للهجرة[40]، وفقده الأشموني بخط يده.. ولو لم يكن لإجازته إلا هذا الفضل لكفى! فكيف وقد أضافت إلى الآخذين عنه تلميذاً حصيفاً حفياً، وشرحاً أغفله الجم الغفير!!

ما يتصل بالناسخ:

وهي جوانب شتى، ولعل أول ما يمكن استشعاره من إكثار النساخ من الدعاء، والاستغفار، وحرصهم على طلب الدعاء لهم من لدن القراء والناظرين، أنهم كانوا واعين بخطر مسؤولية نساخة الكتب، قلقين بما قد يصيبهم من تبعات التقصير وفتور التيقظ، فلم يتوان أكثرهم في مقابلة منسوخاتهم بالأصول أو ما نسل منها، ثم يخلص في الدعاء نثراً، ثم شعراً.. وهكذا وجدنا عدة أبيات طريفة في هذا السياق كقول ناسخ موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي:

أقسم بالله على من كل من
أبصر خطّي حيثما أبصره
أن يدعو الرحمن لي جاهدا
بالعفو يوم الدين والمغفرة[41]

ونقرأ بعد الفراغ من نسخ الأجرومية[42] ما يترجم قلق النسّاخ، وخوفهم من انزلاق أيديهم رغم الرقابة الصارمة التي يمارسونها عليها، ونصه:

كتبت وقد أيقنت لا شك أنني

ستفنى يدي يوما، ويبقى كتابها

ولا شك أن الله سائلها غدا

فيا ليت شعري ما يكون جوابها؟!

فإما نعيم في الجنان مخلد

وإما جحيم لا يطاق عذابها[٤٣]

وقد يشير إلى ما بذله من مجهود مخلص عزيز في الكتابة والتنميق والتجويد؛ حتى استحال الاستغناء عنه ببيع أو هبة أو إعارة أو ما أشبه، وفي هذا أنشد ناسخ أحد أجزاء الشبريختي على مختصر خليل:

تمّ بجهد وتعب

بعد نشاط وطرب

فلا تبع ولا تهب

ولو بواد من ذهب[٤٤]

وربما التمس من مطالع كتابه أن ينظر فيه بعين الإنصاف، كتنبيه ناسخ كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب[٤٥]، يقول:

يا ناظراً في كتابي حين تقرؤه

أنصف - هديت - بلا حيف ولا شطط

إما سموْت فلا تعجل بسبّك لي

واعذر فلست بمعصوم من الغلط[٤٦]

أما ناسخ الدرر اللوامع والجزرية عبد المومن بن عبد الله فقد ارتجل بيتين على قدر ملكته ذيل بهما نسخته، يطلب الدعاء، ويعتذر عن الاستعجال، قال:

يا ناظراً في الخط كيف صوّرا

فادع لنا سيدنا بالمغفرا

فإن بقي في الخط شيء فاعدلا

لأنني كتبته مستعجلا[٤٧]

ولم تأت هذه الأبيات وأشباهها مما ضربنا عنه صفحا لتشغل فراغا بان لهم فحسب، وإنما هي - في كبرها - ذات علاقة جدلية بشخصيتهم تلتحم بدلالات قد تفسر حالة نفسية، أو تقدم موقفا، أو تصفّنا أمام وضع... ولن يقف على ذلك إلا من تفاعل معها في مستوياتها العميقة لا السطحية، وقرأ ما بين سطورها كما يفعل الشرّاح الحاذقون.

ما يتعلق بالنص المنتسخ:

وكأن أجدادنا رحمهم الله كانوا يستشعرون بما يرقمونه على فضاءات ما وراء النسخ أنه لا وجود لنص بشري كامل، فاتبعوا خطوات مختلفة في إضاءته، وتقريبه للقارئ، سواء بشرح غامضه، أم تبيين مقصدية صاحبه، أم الظروف المحيطة به، أم الإشارة إلى نصوص أدبية مماثلة (التناص).. ومن أمثلة ذلك ما قاله ناسخ قصيدة أنوار السرائر وسرائر الأنوار للشريشي[٤٨]:

«... وصرح انتهاء بما في الابتداء، كنى عنه، وحض عليه، ومقصده ـ رحمه الله ـ في هذه القصيدة تيسير بتنبيه القلب على سبيل الحب من باب التقوى، تعرضا لنفحات القرب، وبلوغاً لغيب الوصول؛ فلذلك ابتدأ بالغزل في أنثى مطلق الكون وهي فتاة المعرفة، فصادفه

في باب الهوى أنواع البلايا من الرقباء واللوام والفُضّاح، والصد والهجر والبعد. ثم ولج في سبيل الحب فعاد السقم صحة، والألم لذّة، والعذل ذكرى، ثم انتهى بغلبة الفناء إلى حوْز القرب... إلخ »[٤٩].

ومنه ما كتبه ناسخ كتاب القرطيْن لابن مطرّف الكناني القرطبي المتوفى عام ٤٥٤ هـ:

« قال محمد بن أحمد بن مطرف المقرئ رضي الله عنه: كنت جمعت هذا الكتاب في سنة إحدى وعشرين [وأربعمائة][٥٠] في معرفة اختلاف السبعة بين يدي الشيخ الجليل أبي محمد مكي بن أبي طالب رضي [-][٥١] العام، فجمعت هذا الكتاب من أقاويل أهل العلم، منهم أبو إسحاق الزجاج، والفرّاء، وأبو جعفر [-][٥٢]، ومن كتاب إكمال الفائدة لأبي الطيب ابن غلبون[٥٣]، وربما كتبت فيه ما أخذته عن الشيخ مشافهة لئلا يسقط عني لفظه بالنسيان، وكان هذا الجمع كله مجملاً غير منتظم، ثم أخذت في نظمه سنة أربع وثلاثين وأربع مائة، مبتدعا في التأليف والتنظيم على غير ما ألفه من رأينا من القراء؛ ذلك أني نظمته تارة أصلاً، وتارة فرعاً حتى كمل عمل ذلك، وقد انتظمت الأصول مع فرش الحروف.. جعل الله ذلك لوجهه خالصاً، وإلى رضاه سائقاً... إلخ»[٥٤].

ودأب بعض المؤلفين على مدح مصنفاتهم وتقريظها، معربين عن جودتها وعلو كعبها بين الأتراب، فعل ذلك: أبو حامد الفجيجي[٥٥]، قائلا في حق كتابه مفيد الفوائد في خير العوائد:

لو قست بالجوهر الغالي طرائقه
كانت طرائقه أغلى إذن ثمنا
فالله يمنحه أهلا له أبدا
والله يحفظه من وَغْد كل زنى

ومن الإجحاف أن ننتزع هذه الشواهد عن سياقها العام، فلا نفهم منها إلا دلالاتها الحرفية، ولا نرى فيها غير الوجه الذي يربطها بالنص المنتسخ، فتلك رؤية سطحية ليس إلا.. بل علينا أن نعاملها باعتبارها خيطا في نسيج متشابك، تتلاحم خيوطه وتتساوى في الأهمية، وتحمل في طياتها مواقف نفسية وعقلية وثقافية.. فالمادح كتابه ـ مثلا ـ ليس من منشأ الإعجاب فعله، فقد يكون كشفا غير مقصود لبعض جوانب شخصيته، كتضخم الأنا، أو لمز أحد أعدائه (ولد زنا)، أو الترويج لثقافة كاسدة، أو سوى ذلك.. أما المادة المتعلقة بصاحب القرطيْن وفرطه فلا شك في أنها حركة جديدة في الزمان والمكان والإنسان والمكتوب تنساق بنا إلى أحكام ونتائج غير مسبوقة..

ويرتبط بكل ما سبق عناصر أخرى كثيرة تنتمي كلها إلى فضاءات ما وراء النسخ كالتحبيسات والتمليكات، وتحصين المنسوخ بالتعاويذ، والتوسل بالأولياء والصالحين، واستحضار الأشعار والفتاوى والحكم والأمثال والمواعظ، إلى تسجيل الوصفات الطبية، والتعريف بالأعلام الجغرافية والتعقيبات المختلفة، وغير ذلك من العناصر التي توجد خارج المخطوطات الفجيجية.. واستقصاؤها

جميعا سيحدث - ولا ريب - تحولا مهما في البحث العلمي التراثي يتجه بنا في آخر المطاف إلى نتائج ملموسة أهمها تجديد النظرة إلى مكونات حضارتنا في جوانبها المختلفة، وإعادة تقويم تراثنا المخطوط وتقييمه وتفسيره وإعادة تشكيله.

• خلاصات واستنتاجات:

تحدثنا في هذا المقال عن فضاءات ما وراء الختم، وركزنا عليها دون العناصر الأخرى؛ لا باعتبار تفوّق في أهميتها، ولكن باعتبار علاقتها بالمتن المخطوط الذي سيطر على اهتمامنا من زمان بعيد.. إنها علاقة تكامل وتلازم، وهوية المتن بدونها لا تكون ناصعة المعالم، ومن يقصيها عندما ينظر فيه أشبه بمن ينظر بعين واحدة..

إن من شأن الكوديكولوجيا أن تخلخل عدداً من منطلقات التعامل مع التراث وقواعده، ولكنها لحد الآن لم تستقطب الدارسين بالقدر الذي يناسب هذه الأهمية، مما يؤكد أنها ما زالت تعاني من عقبات، وأن أصحابها لا يزالون في موضع ضعف.. وأتذكر أن أحد الكوديكولوجيين المغاربة أرسل منذ أزيد من ثماني عشرة سنة، نداء يتضمن دعوة صادقة مخلصة إلى إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات، وتكوين مختصين في هذا العلم.." [٥٦] ولو بُذلتْ الجهود وتجمّعتْ، وتعاونت دولنا ومؤسساتنا لأثمرت هذه البذرة الغربية مراكز عديدة تنطلق كلها نحو هدف واحد في حركة دائبة لا تنحط عن حركة خلايا النحل..

بقي أن ننهي بهذه المقترحات البسيطة:

- اعتبار فضاءات ما وراء الختم مرحلة جوهرية ضمن عملية تحقيق المخطوطات الذي لا يزال يتمتع باستقلال ذاتي يحصره في دائرة إخراج المتن..

- إن المادة التي تقدمها هذه الفضاءات لا ينبغي اختزالها في الفوائد والعوائد كما فعل من قبلنا، أو تصنيفها في خانة الحشو الزائد عن المتن ولكن علينا أن نميزه بما يلي

- أن يكون محورا تدور حوله الأطاريح الجامعية..

- أن تحدث في كل الجامعات العربية شعبة الكوديكولوجيا، قد يمهد لها بمحاور ذات صلة في المستويات التعليمية الثانوية

- تبادل الخبرات بين الجامعات العربية عبر شراكات ولقاءات..

- الانفتاح التام على تجارب الغرب في هذا العلم الفتي.

- إحداث مراكز تابعة للجامعات وللخزانات التراثية، تتعامل مع المخطوطات بضوابط الكوديكولوجيا وقواعده، كل في ميدان اختصاصه.

مظاهر كوديكولوجية: التراث العربي وفضاءات ما وراء الختم

الحواشي

١. أحمد شوقي بنبين، دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، ص: ١٣

٢. يعتبر الكتاب في حكم المفقود

٣. نشرته دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١ / ٢٠٠٤

٤. هكذا ورد في المخطوطة، وعنوانه الذي لم يرد فيها: نزهة القلوب

٥. عالم حافظ مكثر، رحل في طلب الحديث، وانتهى به المطاف إلى الإسكندرية، وبها توفي عام ٥٧٦ هـ. له ثلاثة معاجم في مشيخته، والفضائل الباهرة في مصر والقاهرة...(الأعلام: ١ / ٢١٥)

٦. جمال الدين أبو طالب أحمد (٥٥١ ـ ٦١٩ هـ) من تلامذة السلفي، كان يكرمه كثيراً، ويقدمه للقراءة عليه مع صغر سنه، وهو من شيوخ المنذري (تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات ٦١٩ هـ، ص: ٤٠٠)

٧. لم أعثر له على ترجمة، وهو عالم جليل من تلامذة السلفي، يعرف بالعطار، كان بمصر عام ٥٩٢ هـ. عن موقع: (إسلام ويب)

٨. من أهل القرن السادس الهجري ، رحل إلى مصر والعراق وخراسان، وكتب، وخرج وأفاد، وله نظم، وأدب، وسيرة حميدة،روى عن طائفة، وحدث عنه طائفة، وتوفي بحرّان عام ٥٩٨ هـ.

٩. شرف الدين اللخمي الإسكندري (٥٤٤ ـ ٦١١ هـ) فقيه مالكي، من الحفاظ، أصله من القدس، وتوفي بالقاهرة، له تصانيف في الحديث وغيره (الأعلام: ٥ / ٢٣)

١٠. لم أعثر له على ترجمة

١١. لم أعثر له على ترجمة

١٢. ذكر جما غفيرا جدا من رجالات الحديث والعلم .. ثم قال: وصح في... يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة بالإسكندرية، والحمد لله حق حمده... وقد كتب بخط مغاير.

١٣. لم أعثر له على ترجمة

١٤. أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس بن خلف ابن قابوس الأطرابلسي، أديب لغوي، من أهل القرن الرابع، كان بحلب سنة ٣٧٠ هـ .. قرأ على ابن خالويه كتاب الجمهرة.. وروى عنه خلق كثير (ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، عن موقع: http://islamport.com

١٥. ضبطه بعين مضمومة وياء ساكنة وزايين، خلافاً لمن يضبط الحرف الأخير راء.. ولعل ضبط ابن خالويه أقرب إلى المنطق، فهو تلميذه، والتلميذ أعرف بشيخه، وأعلى به عينا..

١٦. الصفحة الأخيرة من المخطوط

١٧. انظر على سبيل المثال: الأعلام للزركلي (٦ / ٢٦٨): فالترجمة فيه، وفي المصادر المحال عليها مقتضبة جداً، لا تليق بصاحب كتاب طبقت شهرته الآفاق، بل إن اللجنة التي عنيت بتصحيح كتابه وترقيمه وضبطه وتعليق حواشيه، وكلهم من أفاضل العلماء، خرجوا عن تقاليد التحقيق، فلم يصدروا عملهم بعقد ترجمة وافية له، وإنما اكتفوا بتعريف موجز في هامش الصفحة ٢ (نزهة القلوب – مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – ط / ١٩٦٣)

١٨. عبد السلام بن الطيب القادري (١٠٥٨ – ١١١٠هـ)، من أبرز علماء المغرب، ملكته في العلوم لا تجارى، خصوصا في النحو والبيان والمنطق والحديث والأصلين والتاريخ، له عدة مؤلفات (القادري، التقاط الدرر، ترجمة: ٤١٨ ،ص: ٢٧٥)

١٩. في حوزتنا قطعة مخطوطة منه.

٢٠. انظر كتابنا : فجيج في عهد السعديين، السياسة والثقافة والمجتمع، ص: ٢٥٧.

٢١. نفسه، ص: ٢٥٨

٢٢. الصفحة ما قبل الأخيرة (رقم ٢)

٢٣. الصفحة ما قبل الأخيرة (رقم ١٣)

٢٤. أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، المشهور بابن البنّاء المراكشي (٦٥٤ – ٧٢١ هـ)، نبغ في علوم شتى، وخلف وراءه مؤلفات قيمة وكثيرة... (الأعلام: ١ / ٢٢٢)

٢٥. انظر مقدمة المرحوم محمد الفاسي لرحلته الموسومة: الرحلة المغربية (الرحلة العبدرية)

٢٦. الروض المريع. وقد تم نسخ الكتاب في حياة مؤلفه في شهر ذي القعدة سنة سبع وتسعين وستمائة بمدينة مراكش حرسها الله تعالى.

٢٧. جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ص ١٧٩ - ١٨٠

٢٨. محمد الفاسي، مقدمة الرحلة العبدرية، ص: ت

٢٩. انظر على سبيل المثال: الأعلام: ٧ / ٢٢، وقد جعل وفاته حوالي ٧٠٠ هـ.

٣٠. مقدمة الرحلة، مصدر سابق

٣١. انظر عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: ج٢، ص: ٦٥٨ و٧٠٥

٣٢. الصفحة الأخيرة من الشرح

٣٣. ظهر الصفحة الخيرة

٣٤. أحمد شوقي بنبين، دراسة في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي، ص: ٥٥

٣٥. نفسه، ص: ٢٣

٣٦. سماه الكوكب الطالع، وهذه النسخة رآها الرحالة الهشتوكي، وأشار إليها في رحلته باسم: «نمع اللوامع في شرح جمع الجوامع» قال: «بخط يده الكريمة، وفي آخره إجازة من الشيخ الأشموني للشيخ ابراهيم بن عبد الجبار» (هداية الملك العلام، ص: ١٠٣)

٣٧. كلمة غير واضحة، ولعلها كما قرنا

٣٨. الصفحة الأخيرة من الكتاب

٣٩. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين: جم، ص: ٤٠٧ و٤٩٦ و٥٢١

٤٠. الأعلام: ٥ / ١٠

٤١. الصفحة الأخيرة، وقد انتهى من نسخه في يوم الثلاثاء موفى عشرين من شهر رمضان المعظم، من عام تسعة وعشرين وسبعمائة...

٤٢. لم يشر إلى تاريخ النسخ، والأجرومية مختصر مشهور في النحو

٤٣. الصفحة الأخيرة (رقم ٢)

٤٤. مجموع يحمل رقم ١٤

٤٥. فرغ من نسخه يوم الأحد لثمان ليال بقين أو بقيت من شهر شعبان من عام ثمانية وستين وثمانمائة

٤٦. الصفحة الأخيرة (رقم ٩)

٤٧. الصفحة الأخيرة (رقم ١٦)

٤٨. أحمد بن محمد الشريشي السلوي (٥٨١ - ٦٤١هـ)، متصوف مالكي، برع في علم الكلام، وأصول الفقه، رحل إلى المشرق، وتوفي بمصر.. اشتهر بهذه القصيدة الرائية، وهي في التصوف (الأعلام: ١/ ٢١٩)

٤٩. الصفحة الأخيرة رقم ٧

٥٠. مزق بقدر كلمة

٥١. مزق بقدر بثلاث كلمات صغيرة

٥٢. مزق بقدر كلمة

٥٣. إكمال الفائدة في القراءات السبع، لأبي الطيب عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون (٣٢٩ - ٣٨٩ هـ)، أديب، مقرئ، ولد بحلب، وسكن مصر، وبها توفي.. من كتبه: الارشاد، والاكمال (الأعلام: ٤ / ١٦٧)

٥٤. الصفحة الأخيرة (رقم ٨)

٥٥. أبو حامد محمد الفجيجي، من علماء القرن السادس الهجري، عاش في فاس، برع في علوم الكيمياء، وكان مدمنا على القراءة، من شيوخه أحمد التازي، وابراهيم بن يوسف المراكشي الشهير بالسكاج.. كان حيا عام ٥٧٧ هـ. (كتابنا: فجيج في عهد السعديين، ص: ٢٥٧ وما بعدها)

٥٦. انظر ديوان الفجيجيين، ص ٢١٤

٥٧. القصد إلى العلامة المدقق أحمد شوقي بنبين، انظر: دراسات في علم المخطوطات... ص: ٢٢

مصادر البحث ومراجعه

- أغلب المصادر المحضرة مخطوطات توجد في خزائن فجيج، منها الكامل والمبتور، ومنها ما لم يتبق منه إلا أوراق أو ورقة يتيمة..
- أحمد شوقي بنبين، دراسات في علم المخطوطات والبحث البيليوغرافي - منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس. سلسلة بحوث ودراسات، رقم ٧ - مطبعة النجاح - الدار البيضاء - ط ١/ ١٩٩٣.
- أحمد ابن القاضي المكناسي - جذوة الاقتباس في

من حل بمدينة فاس – الطبعة الحجرية الفاسية.

- أحمد الهشتوكي – رحلة هداية الملك العلاّم – مخطوط، الخزانة الوطنية: ق ١٤٧
- خير الدين الزركلي – الأعلام – دار العلم للملايين – بيروت – ط ٥ / ١٩٨٠
- عمر رضا كحالة – معجم المؤلفين – مؤسسة الرسالة –بيروت – ط ١ / ١٩٩٣
- محمد بوزيان بنعلي: – ديوان الفجيجيين – سلسلة تراث فجيج رقم ٦ – مطبعة الجسور – وجدة – ط١/٢٠١٠
- فجيج في عهد السعديين، السياسة والثقافة والمجتمع – سلسلة تراث فجيج رقم ٤ – مطبعة الجسور .وجدة – ط ١ / ٢٠٠٥
- محمد بن الطيب القادري – التقاط الدرر – دراسة وتحقيق: هاشم العلوي القاسمي – دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط ١ / ١٩٨١
- محمد العبدري الحيحي – الرحلة المغربية – جامعة محمد الخامس – سلسلة الرحلات – ٤ – حجازية – ١ – تحقيق وتقديم وتعليق: محمد الفاسي – ط١٩٦٨.

مؤلفات الموصليين المخطوطة في العلوم الشرعية
(إحصاء ودراسة)

أ.م.د. محمد ذنون يونس فتحي
جامعة الموصل/كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

قدَم الأستاذ سالم عبد الرزاق عملاً كبيراً، استغرق منه جهد خمس سنوات، من أجل إنجاز فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل، وهو عمل ضخم وشاق ومتعب بكل ما تحمله هذه الأوصاف من معان ودلالات، ذلك أن المخطوطات لا يسهل في الأعم الغالب التيقن مما كتب على غلافها الأول، من معلومات دالة على المؤلف وعنوان التأليف، وتأريخ التأليف وسنة النسخ.. وما وراء ذلك من مشكلات وصعوبات جمة، وفي أحيان كثيرة يكون المخطوط خاليا من صفحة تعريفية، ولا يحتوي إلا على المادة العلمية، فيصعب إثبات نسبتها، ويحتاج الأمر إلى دراسة معمقة من أجل تقديم وصف لمادتها، أو وجه راجح في الفترة الزمنية التي كتبت فيها، وقد يستغرق الأمر سنوات من أجل مطابقة مضمون تلك المادة مع غيرها؛ للحكم بأنها تعود لمؤلف معين، كما شكّلت وفرة الكتب التي قام الأستاذ سالم بفهرستها صعوبة أخرى جديدة، أضيفت في طريق عمله المليء بالعقبات، ومع ذلك فقد استطاع بالعمل الدؤوب على تذليل قسم كبير منها، والتغلب على العديد من المشكلات التي واجهت مسيرته في الفهرسة والتصنيف، ولكنه وقع في الكثير من الهنات والمشكلات، بدءاً بطريقة التأليف التي سار عليها، من اعتماد الجهة الواقفة للكتب والمخطوطات، بدلا من اعتماد طرق أسهل من ذلك؛ لكي يصل القارئ والمحقق والباحث إلى بغيته المنشودة، بالحصول على المخطوط وعدد نسخه وأماكن وجوده، ولذا يحتاج أولئك إلى جهود مضنية من تقليب أوراقه بأجزائه التسعة، من أجل القول بأن المخطوط الذي يبحثون عنه، موجود في تلك المكتبة أم لا، كما أنه لم يقم بفهرسة المجاميع وفق الموضوع كما سار عليه في الكتب المنفردة، مما شكّل صعوبة أخرى بالغة الأهمية في الوصول إلى المخطوطات المتعلقة بعلم من العلوم.

ولا ننسى أن الغاية من إنشاء الفهارس تخفيف الصعوبات، وتقليل الإشكاليات للوصول إلى المقصد بأيسر طريق وأقل جهد، وأقصر زمن، ومن دون ذلك يفقد التصنيف والفهرسة جدواه ومعناه، كما واجهته مشكلة أخرى من مشكلات عديدة، تمثّلت في تصنيف

بعض المخطوطات، وتحديد تبعيتها العلمية، ونسبها في الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه، ولذا أعتقد جازما أن إخراج أي تصنيف بيبلوغرافي يتناول العلوم العربية والإسلامية، لا ينبغي أن يكون عملا فرديا محضا، إذ يصعب على أيّ شخص مهما بلغ علمه، واتسعت ثقافته بالحضارة العلمية للعرب والمسلمين، أن يلمّ بأشتات تلك العلوم والمعارف، فللعلوم العربية والإسلامية أبجديتها، وللتآليف العربية والإسلامية تنوع هائل يصعب حصره وإحصاؤه، حيث: «تعدّ الأمة العربية السبّاقة والشامخة في ابتكار مختلف العلوم والفنون والآداب، وفي دأبها المتصل المتتابع على التوغل والتغلغل، والاستبحار في التنويع والإضافة شيئا بعد شيء، فكان لها في كل علم وكل فن مؤلفون ومؤلّفات، تعد بالمئات والألوف، وتملأ خزائن البلاد، بلغت أكثر من ثلاثمائة نوع – عدا مؤلفات علوم العربية والعلوم الشرعية- منها العلوم المتعلقة بالأعيان، وتدخل فيها الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والتاريخ الطبيعي والفراسة، وجملتها اثنان وعشرون علما، منها: تدبير المنزل والاقتصاد السياسي والاجتماع...»[1]، ولذا تحتاج هذه الفهرسة اليوم إلى فهرسة جديدة، تفيد منها الشيء الكثير، وتتجاوز هناتها وعقباتها الكؤود، كما عانت تلك الفهرسة من افتقار للمنهجية الأكاديمية، حيث تعاني الكثير من تلك المخطوطات من نقصان التعريف بمؤلفيها، وقد تقدم للشخصية الواحدة الكثير من الترجمة في أكثر من موضع، وتواجه القارئ مشكلة ذكر اسم الكتاب الواحد بأكثر من طريقة وعنونة، فيعتقد أنهما كتابان متغايران، ولكن الذي يتبين عند البحث أنهما كتاب واحد، والسبب في ذلك اعتماد المؤلف على ما هو مثبت في صفحة الغلاف، الذي يكتبه الناسخ من دون اعتماد اسم الكتاب كما اختاره له مؤلفه، ويحدث ذلك كثيراً في الكتب العلمية القديمة، كما لا يخفى على المشتغلين بها، كما كان يذكر أحياناً اسم الكتاب في المجموع من دون بيان العلم الذي يبحث فيه، وهذه معضلة أخرى توجب على الباحث العودة إلى المخطوط لمعرفة التفاصيل، مع أن الفهرسة ينبغي أن توضح ذلك من دون الرجوع للمخطوط بغية التأكد منه، وقد يذكر المؤلف تارة مفصلاً وأخرى مختصراً بسبب اعتماده على ما كتب على المخطوط وغلافه، مع أن المنهجية أن يكون ذكر اسم المؤلف مفصلا كل مرة ليتبين الباحث نسخ المخطوطة، ولئلا يظن أنها لمؤلف آخر نتيجة الاقتصار على بعض اسمه.

ولسنا هنا في هذا البحث بصدد ذكر مشكلات التأليف، التي ظهرت في هذه الفهرسة التي تحتاج إلى إعادة صياغة وإخراج جديد، وأن يقوم بها أكثر من مفهرس، يخضعون لإشراف علماء متخصصين، في صنوف المعرفة التراثية القديمة.

نعود من هذا كله إلى الجهود الموصلية التي احتوتها هذه الفهرسة، والمؤلفات الموصلية المخطوطة في مكتبة الأوقاف، لتتبيّن مشاركة الموصليين في العلوم العربية والإسلامية، الشرعية وغيرها، ومكانة تلك المشاركة لهذا المصر والبلد بالنسبة للعالمين العربي والإسلامي، ولنقف على شدة عناية أجدادنا بالعلوم والمعارف الإنسانية المختلفة وكثرتها،

على الرغم من صعوبة الظروف التاريخية التي مرّت بها مدينة الموصل، وكثرة الانشغالات والفتن التي عصفت بها، وقلة الأدوات الكتابية، وشحّة الإمكانيات، لكي تكون نبراساً يحتذى للموصليين اليوم من أجل تطوير ملكاتهم العلمية واستعادة مكانتهم التاريخية، وإحياء تلك المخطوطات من خلال التعريف بها وبقيمة ما تحتويه، ونشرها بين أيدي الجمهور لدراستها ونقدها.

لقد أبدع الموصليون من خلال المشاركة الفاعلة في ميادين البحث والتأليف، وكتبوا بأقلامهم وعقولهم النيرة في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، من علوم شرعية ولغوية وأدبية وطبية وفلكية ورياضية، إلا أننا سنقتصر الحديث على الإنجازات العلمية التأليفية في العلوم الشرعية فحسب، ونبعد الحديث عن التصنيف في العلوم الأخرى بدء بالدراسات اللغوية وانتهاء بالمؤلفات الفلسفية، والإنجازات الشعرية الكبيرة من دواوين وقصائد ومعارضات وتخميسات ومنظومات غير متخصصة في العلوم الشرعية، ودوبيتات وتقريضات وأبيات... التي قدمها الموصليون، كما أعرضنا صفحا عن ذكر الإجازات العلمية التي احتوتها الفهرسة؛ لأنها لا تشكل نتاجا علميا، بقدر ما هي توثيق وشهادة لمن أراد القيام بأعباء الفتوى والتدريس.

وبعد الإحصاء والتدقيق في قراءة الفهرسة، يمكن لنا أن نقسم هذه الدراسة الإحصائية وفق الموضوعات، التي بحث فيها الموصليون، وأنشأوا مؤلفاتهم، وشاركوا العالم بإنجازاتهم العلمية والمعرفية.

• المحور الأول: القرآن الكريم، تفسيره وعلومه:

لقد كتب الموصليون في تفسير القرآن الكريم وعلومه المصنفات الجيدة، والمؤلفات المهمة، خدمة لكتاب الله تعالى الكريم، ودينهم الحنيف، وتوعية للأمة الإسلامية عموما، والمجتمع الموصلي الإسلامي بقيمة هذا الكتاب العظيم، وما يحتويه من أسرار، ويشتمل عليه من كنوز الهداية وأنوار الحقيقة، وما يتضمنه من قيم إنسانية، تأخذ بيد المجتمع البشري نحو السعادة الدنيوية والأخروية، فقد أنجز الموصليون في مجال الدراسات القرآنية، المتخصصة بالقرآن الكريم وعلومه المتعلقة به (٢٠) مؤلفاً، عكف عليها (١٢) عالما موصلياً متخصصاً، وتكشف هذه العناية عن ولع الموصليين بالقرآن الكريم، وعلومه وقراءاته، ولكن تقف القراءات ورسائل التجويد، في مقدمة تلك الاهتمامات، مما يكشف عن تعلق الموصليين بهذا الفن قديما، ولا يزال يقف في صدارة اهتمامات هذه المدينة حتى الوقت الراهن، وأهم هذه الأعمال التي أحصيناها:

١. كنز المعاني شرح حرز الأماني ووجه التهاني، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين المعروف بـ: (شعلة الموصلي) و(ابن الموقع ت ٦٥٦هـ=١٢٥٨م)[٢].

٢. التلخيص في التفسير، تأليف: موفق الدين أحمد بن يوسف بن الحسن الشيباني الكواشي الموصلي (ت ٦٨٠هـ= ١٢٨١م) (مجلدان)[٢].

مؤلفات الموصليين المخطوطة في العلوم الشرعية (إحصاء ودراسة)

٣. رسالة التكبير، تأليف: سلطان بن ناصر بن أحمد الجبوري (ت١١٣٨هـ = ١٧٢٦م)، وهي نسخة وحيدة[٤].

٤. العقود المجوهرة واللآلي المبتكرة، شرح القواعد المقررة والفوائد المحررة، لمحمد ابن قاسم البقري (ت ١١٠٩هـ = ١٧٠٠م)[٥]، تأليف: سلطان بن ناصر بن أحمد الجبوري (ت١١٣٨هـ = ١٧٢٦م)، ولها سبع نسخ[٦]، وقد طبع الكتاب بعنوان: (شرح قواعد البقري في أصول القراء السبعة) ويليه كتاب الإدغام الكبير لأبي عمرو بن العلاء[٧]، بتحقيق: هناء الحمصي وأنس مهرة، عام ١٩٩٨م[٨].

٥. القول المبين في تكبير سنة المكيين، تأليف: سلطان بن ناصر ابن أحمد الجبوري (ت١١٣٨هـ=١٧٢٦م)، ولها أربع نسخ[٩].

٦. الأحرف التي يدغمها أبو شعيب السوسي (ت٢٦١هـ)[١٠] بروايته في المتقاربين والمتماثلين، لسلطان بن ناصر بن أحمد الجبوري(ت ١١٣٨هـ=١٧٢٦م)، وله نسخة أخرى بعنوان: الأحرف التي أدغمها أبو عمرو، كما رواه السوسي برواية البصري[١١].

٧. ستة عشر موضعاً لا يجوز الوقف عليها في تلاوة القرآن الكريم، تأليف: مجهول[١٢].

٨. بحث في أوقاف القرآن الكريم، تأليف: مجهول[١٣].

٩. تبصرة المبتدي وتذكرة المنتهي، تأليف: إبراهيم بن مصطفى بن عباس الموصلي، إمام الحضرة القادرية(ت ١١٥٩هـ = ١٧٤٦م)، وله نسختان[١٤].

١٠. الدرة البهية، تفسير سورة من القرآن الكريم: تأليف: سليم الواعظ (ت بعد ١١٦٠هـ = ١٧٤٧م)[١٥].

١١. خلاصة أقوال القراء والفقهاء، تأليف: محمد بن مصطفى الغلامي (ت ١١٨٦هـ = ١٧٧٢م)، وهي نسخة وحيدة[١٦]، مهداة إلى علي أفندي العمري (ت ١١٩٢هـ)، وهو يتضمن نقولات وشروحات في القراءات وعلوم القرآن والفقه.

١٢. نقولات وفوائد في القراءات، منها بيان جمع الأوجه للقرّاء السبعة من آخر البقرة وأول آل عمران، جمع: الحاج بكر (ت ١٢١١هـ) ابن الشريف فتح الله الصباغ الموصلي (ت١٢٠٤هـ)[١٧]، تلميذ سعد الدين ابن أحمد بن مصطفى البصير المعروف بشيخ القراء (ت ١١٨٨هـ= ١٧٧٤م)[١٨]، وله نسختان.

١٣. البهجة المرضية في بيان وجوه الجمع في الهمزات القرآنية، تأليف: الحاج بكر(ت١٢١١هـ) ابن الشريف فتح الله الصباغ الموصلي(ت ١٢٠٤هـ) تلميذ[١٩] سعد الدين سعد الله بن أحمد بن مصطفى (شيخ القراء) المعروف بالبصير الموصلي (ت١١٨٨هـ = ١٧٧٤)[٢٠].

١٤. تيجان البيان في مشكلات القرآن، تأليف: محمد أمين بن خير الله بن محمود بن موسى الخطيب العمري (ت ١٢٠٣هـ = ١٧٨٨م)، وتوجد منه نسختان[٢١]، وقد قام بتحقيقه ودراسته: حسن مظفر الرزو، وطبع في بغداد.

١٥. الأنوار اللائحة في تفسير الفاتحة، تأليف: إسماعيل بن عبد الله بن أحمد بن محمد حمودة الموصلي، كان حيا سنة (١٢٠٤هـ= ١٧٨٩م)، وله نسختان[٢٢].

١٦. تعليقة على الآية الكريمة: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله)، تأليف: صالح تقي الدين أفندي بن يحيى أفندي بن يونس أفندي بن يحيى بك السعدي (ت١٢٤٥هـ)[٢٣].

١٧. تفسير آيات، تأليف: عبد الله أفندي[٢٤].

١٨. مختصر جليل من معالم التنزيل، (قطعة)[٢٥]، تأليف: أبي عبد الله محمد نوري بن جرجيس بن عبد الرحمن بن أسعد ابن سليمان القادري الموصلي (ت ١٣٠٥هـ= ١٨٨٧م)، وله نسختان[٢٦].

١٩. تلخيص التبيان من روح البيان، تأليف: أبي عبد الله محمد نوري بن جرجيس القادري الموصلي (ت ١٣٠٥هـ= ١٨٨٧م)، في تفسير القرآن[٢٧]، وهو واقع في أربع مجلدات، ويبلغ عدد ورق المجلد الأول (٦٤٦)، والثاني (٧١٧)، والثالث (٤٢٤)، والرابع (٥١٦)، والمجلدات الأربع بخط المؤلف، وعليه تقاريض لكبار العلماء، وهم: عبد الله العمري (ت ١٢٩٧هـ= ١٨٧٩م)، وصالح الدباغ (ت ١٢٩٨هـ) ويحيى، ومحمد صالح خطيب زادة (ت ١٣٠٦هـ= ١٨٨٨م)، ومحمد فهمي المعري، وشهاب الحسني (ت١٣٢٥هـ= ١٩٠٧م)، ويونس الخطيب[٢٨]، وملا سلطان ابن حسن (كان حيا سنة ١٢٧٠هـ= ١٨٥٣م) وعبد الله الفيضي (ت١٣٠٩هـ= ١٨٩١م).

٢٠. الدرر الحسان في لغة القرآن، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد الملا يوسف (ت١٣٧٧هـ= ١٩٥٧م)[٢٩].

- **المحور الثاني: الحديث النبوي وعلومه:**

في حين كان الاهتمام بالحديث النبوي وعلومه أقل من ذلك بكثير، فقد أنجز الموصليون من خلال الفهرسة (٨) مؤلفات حديثية، لـ (٥) علماء على قدر رفيع من العلم والتخصص، وهذا الإنتاج القليل يدل على قلة عناية الموصليين في التأليف الحديثي؛ لما شهده هذا العلم من استقرار على أيدي المحدثين الأوائل، وقد ترسخت أصوله، وتحددت معالمه، فلم يشتغلوا به كثيرا، ولكن تبقى قلة العناية بالحديث النبوي شرحاً ومصطلحاً، ظاهرة مسجلة على أقلام الموصليين وكتاباتهم، وأمراً يحتاج إلى تكثيف الجهود من العلماء المعاصرين، لسد ذلك الفراغ والتقليل منه، والأعمال التي أحصيناها هي:

١. مختصر[٣٠] جامع الأصول من أحاديث الرسول، تأليف: ابن الأثير أبو السعادات مبارك بن محمد الجزري(ت ٦٠٦هـ= ١٢٠٩م)[٣١]، وقد طبع جامع الأصول في أحاديث الرسول، وقام بتحقيقه: عبد القادر الأرناؤوط، سنة ١٣٨٩هـ، وهو ضمن مجموع برقم (٣٨/ ٢٤)، وعدد أوراقه (٢٥٦)، وناسخه: عمر بن محمود بن أبي بكر.

٢. جامع الأصول (قطعة)، تأليف: أبو السعادات مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري (ت ٦٠٦هـ= ١٢٠٩م)[٣٢].

٣. الكتاب الشافي في شرح مسند الشافعي

(الجزء الأخير)[23]، تأليف: أبي السعادات مبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الموصلي (ت٦٠٦هـ)[24]، وقد طبع الكتاب بتحقيق: أحمد بن سليمان، وأبي تميم ياسر بن إبراهيم، ونشر في مكتبة الرشد بالرياض في خمس مجلدات، عام ١٤٢٥هـ.

٤. رسالة تحتوي على ثلاثمائة حديث نبوي مع ما يناسبها من أشعار وأمثال، تأليف: المعافى بن إسماعيل بن الحسين ابن حسن أبي الفتح أبي البيان سفيان الشيباني، جمال الدين أبو محمد الموصلي الشافعي(ت٦٣٠هـ=١٢٣٢م)[25] وهي نسخة ناقصة الآخر.

٥. رسالة الحديث المروي عن خير البرية المسلسل بالأئمة السادة الحنفية، تأليف: محمد بن قاسم بن محمد بن موسى العبدلي، الموصلي مولدا ثم البغدادي أصلا ومنشأ(ت ١١٦٤هـ= ١٧٥٠م) [26]

٦. مختصر شرح ابن حجر للأربعين النووية، تأليف: ضياء الدين يوسف بن عبد الله العمري الموصلي، كان حيا سنة (١٢٤٠هـ= ١٨٢٤م)[27].

٧. الاستشفاء بأحاديث المصطفى، تأليف: يوسف بن عبد الجليل الخضري القادري (ت ١٢٤١هـ= ١٨٢٥م) [28].

٨. أربعون حديثاً، جمعها وشرحها: يوسف ابن عبد الجليل الخضري القادري (ت١٢٤١هـ)[29].

• المحور الثالث: العقيدة وعلم الكلام والفرق:

وفي علم العقيدة والكلام والفرق الإسلامية والديانات فقد أنجز الموصليون (٢٣) مؤلفاً لـ(١٨) عالماً موصلياً، عالجوا من خلالها مسائل عقدية، وقضايا كلامية، ووضحوا موقفهم من بعض الفرق الإسلامية، وناقشوا أصحاب الديانات والملل الأخرى خاصة النصارى واليزيدية، باعتبار قربهم منهم وتجاورهم معهم، مما يدل على اهتمام الموصليين بقضايا أصول الدين، ومسائل علم الكلام والقضايا العقدية، التي يحتاج المجتمع الموصلي إلى الوعي بها، لحل المشكلات الروحية والاعتقادية التي تواجهه، كما أن الحاجة تفرض نفسها على التأليف، حيث وجد هؤلاء المؤلفون الموصليون الحاجة قائمة على تعريف المجتمع الإسلامي والموصلي، بالفرق وأهل الديانات المجاورة لهم، وبيان الموقف العقدي منهم، وطبيعة دياناتهم ومواطن اختلافهم عن المسلمين أصولا ومبادئ أساسية، فلم يكن التأليف في ذلك فرقة وتكفيرا، بقدر ما كان تعريفا وتوضيحا وتحديدا لمواطن الخلاف، وتأشيرا للمسائل بروح علمية وموضوعية، وتلك الأعمال التي أحصيناها هي:

١. منظومة في أسماء الله الحسنى، تأليف: عبد القادر الملتجي الموصلي، نظمها سنة (١١٠٤هـ = ١٦٩٢م) [40].

٢. رسالة في بحث الرافضة، وورد اسمه (رسالة في كفر الطائفة الرافضة) تأليف: عبد الله ابن أحمد الربتكي الموصلي(ت ١١٥٩هـ =

١٧٤٦م) [٤١]، وتوجد منه أربع نسخ[٤٢]، وقام بتحقيقها: حمدي السلفي، وطبع في دهوك.

٣. الزهر النضر في حياة الخضر، تأليف: محمد ابن عون الدين الموصلي ثم البغدادي، كان حيا(١١٦٣هـ=١٧٤٩م)، وله نسختان[٤٣].

٤. رسالة في العقائد، وهي رسالة في شرح العقيدة للشيرازي[٤٤]، تأليف: ملا يوسف بن رمضان بن عبد الله الواعظ الرمضاني (ت ١٢٤٣هـ= ١٨٢٧م)، وله نسخة واحدة[٤٥].

٥. رسالة في القدر، تأليف: علي أفندي محضر باشي (ت في حدود ١٢٥٠هـ=١٨٣٤م) [٤٦].

٦. رسالة في أفعال الله تعالى، تأليف: علي أفندي محضر باشي (ت في حدود ١٢٥٠هـ= ١٨٣٤م)[٤٧].

٧. منظومة عقيدة الموحد، تأليف: ذو النون بن جرجيس الموصلي (ت ١٢٥٠هـ أو ١٢٣٥هـ= ١٨٣٤م أو ١٨١٩م)، وله نسختان[٤٨].

٨. الكوكب المتلالي لشرح عقيدة الغزالي، تأليف: أبو الحسن محمد أمين باشا بن الحاج عثمان بك الحيائي بن سليمان باشا ابن الغازي محمد أمين باشا بن الحاج حسين باشا الجليلي الحنفي الموصلي(ت١٢٦٣هـ=١٨٤٦م)، وله نسخة واحدة[٤٩].

٩. أبحاث منتخبة من شرح جوهرة التوحيد لـ(اللقاني)[٥٠]، جمع: خير الله بن محمود ابن موسى بن علي بن قاسم العمري (ت١١٨٢هـ=١٧٦٥) [٥١].

١٠. رسالة منقولة من شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني (ت ١٠٤١هـ) نقل: خير الله بن محمود بن موسى بن علي بن قاسم العمري (ت ١١٨٢هـ= ١٧٦٥) [٥٢].

١١. شرح رسالة العقائد للدواني (ت ٩١٨هـ)[٥٣]، تأليف: خير الله بن محمود بن موسى ابن علي بن قاسم العمري (ت ١١٨٢هـ =١٧٦٥م)[٥٤].

١٢. الفريدة السنية في كشف عقائد اليزيدية، أو الرسالة الذهبية في الرد على اليزيدية المارقين عن الأمة المحمدية، تأليف: محمد ابن أحمد أفندي خياط زادة، واعظ الحضرة الجرجيسية وخطيب الأمينية (ت١٢٨٥هـ= ١٨٦٨م) مع تقاريض لجملة من العلماء الموصليين، وله نسختان[٥٥].

١٣. البراهين المهدية إلى العقائد المنجية، تأليف: سلطان أفندي بن ملا عبيد الموصلي (كان حيا سنة ١٢٦٩هـ= ١٨٥٢م)[٥٦]، وقد طبعها الشيخ عبد الله الحسو بعد أن اختصرها وعلّق عليها[٥٧].

١٤. رسالة في التوحيد، تأليف سلطان أفندي ابن حسن الصائغ الموصلي (كان حيا سنة ١٢٧٠هـ)، من علماء القرن الثالث عشر[٥٨].

١٥. سيف العون في رقبة فرعون، تأليف: بهاء الدين أبو الوفاء عبد الله الفيضي بن مصطفى الخضري الموصلي (ت ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م)[٥٩].

١٦. رسالة في الرد على النصارى، تأليف: سليمان بك بن مراد بك الجليلي الموصلي (ت١٣٢٦هـ= ١٩٠٨م)[٦٠].

١٧. رسالة الملا محمد سعيد بن جرجيس

الجوادي إلى مطران اليعاقبة بالموصل موسى ابن اللشي[٦١].

١٨. رسالة في بيان مذهب الطائفة اليزيدية وحكم أموالهم، تأليف: حسن الشيفكي الموصلي[٦٢].

١٩. الدلالات القاطعات في الردّ على من أنكر على الأولياء الكرامات، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م)[٦٣].

٢٠. الدليل المكين في الرد على من كفّر المسلمين، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م)[٦٤].

٢١. دليل الموحدين في الرد على شبه المبشرين، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م)[٦٥].

٢٢. الروض العطر فيما يتعلق بسيدي أبي العباس الخضر، تأليف: أكرم عبد الوهاب محمد أمين آل ملا يوسف، المولود (١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م)[٦٦].

٢٣. رسالة في علم التوحيد المسمى بعلم الكلام، تأليف: رشيد بن صالح أفندي الخطيب[٦٧].

- **المحور الرابع: الفقه وأصوله:**

ولو انتقلنا إلى الفقه الإسلامي وأصوله فقد وجدنا الموصليين مهتمين بهذا الجانب الحيوي من علوم الشريعة الإسلامية الغراء، فقد كتبوا في هذا المجال (٢٨) مؤلفاً فقهياً وأصولياً، أنجزها (١٥) عالما موصليا، وكان الفقه الحنفي متصدراً عنايتهم واهتمامهم، ذلك أن مذهب المدينة الرسمي في العصور الأخيرة، كان يميل إلى تقليد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، فقد عكف الموصليون على تناول مسائله وفروعه المعتمدة، على الدليل والنظر والفحص الشديد للنقل، مما يكشف عن العقلية الموصلية، التي تميل إلى التمتع بالعقليات، وتهتم بالرأي والنظر أكثر من الاهتمام بالنقليات والنصوص، وإن كانت تلك الأنظار العميقة مبنية على روح النصوص وجوهرها العميق، كما اهتم الموصليون في التأليف بحاجة المجتمع الموصلي إلى التوعية، ببعض الأحكام الفقهية التي تمس الحاجة إليها، أو تنتشر بعض المفاهيم الخاطئة، أو يسود الاعتقاد بصحة بعض الآراء، وهي في الحقيقة مجانبة للصواب، فينهض الموصلي إلى التعريف بالمشكلة، والتنبيه إلى وجه الصواب فيها، كما أبدع الموصليون المنظومات الشعرية؛ لتسهيل حفظ القواعد الأصولية وأحكام الدين الفقهية، وقد أحصينا الأعمال الآتية:

١. الاختيار لتعليل المختار، تأليف: أبي الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت ٦٨٣هـ = ١٢٨٤م)[٦٨]، مؤلف في الفقه الحنفي، وتوجد منه خمس نسخ[٦٩].

٢. المختار للفتوى، تأليف: أبي الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت٦٨٣هـ = ١٢٨٤م)، وله إحدى عشرة نسخة[٧٠].

٣. المنهاج في بيان أحكام العشر والخراج، تأليف: عبد الله بن أحمد الربتكي الموصلي (ت١١٥٩هـ = ١٧٤٦م)، كتاب في الفقه، وتوجد منه أربع نسخ[٧١]، وقام بتحقيقه:

جاسم عبد شلال النعيمي[٧٢].

٤. رسالة تبحث في قتل المؤمن وغصب ماله، تأليف: عبد الله الربتكي الموصلي (ت١١٥٩هـ)[٧٣].

٥. رسالة في العبادات، تأليف: عبد الله الربتكي الموصلي (ت ١١٥٩هـ= ١٧٤٦م)[٧٤].

٦. هدي الحكم إلى خير الحكم، تأليف: عبد الله ابن أحمد الربتكي الموصلي، وهو مختصر كتابه هداية الحكام إلى خير الأحكام، وله نسختان (ت ١١٥٩هـ= ١٧٤٦م)[٧٥].

٧. رسالة في الفرائض، تأليف: محمد ابن مصطفى الغلامي (ت ١١٨٦هـ= ١٧٧٢م)[٧٦].

٨. فصل في قواعد المناسخة ومسائل فيها، تأليف: محمد بن مصطفى الغلامي (ت١١٨٦- ١٧٧٢م)[٧٧].

٩. فتاوى يحيى أفندي بن السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني (ت١١٨٧هـ= ١٧٧٣)[٧٨].

١٠. غاية المأمول (منظومة في أصول الفقه)، تأليف: مصطفى أفندي الضرير ابن الملا لطفي الحنفي الموصلي (ت١١٨٨هـ=١٧٧٤م)، ولها نسختان[٧٩].

١١. شرح منظومة في أصول الفقه، تأليف: مصطفى أفندي الضرير بن الملا لطفي الحنفي الموصلي(ت١١٨٨هـ= ١٧٧٤م)[٨٠].

١٢. مسلك الأبرار إلى نكات الدر المختار (منظومة في مجلدين)، تأليف: مصطفى أفندي الضرير بن الملا لطفي الحنفي الموصلي (ت١١٨٨هـ= ١٧٧٤م)[٨١].

١٣. الفتاوى النعمانية، تأليف: عصام الدين نعمان بن عثمان العمري الموصلي، كان حياً سنة (١٢٠٠هـ= ١٧٨٥م)[٨٢].

١٤. الفوائد المنثورة في الفتاوى المأثورة، تأليف: محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري (ت١٢٠٣هـ= ١٧٨٨م)، وله ثلاث نسخ[٨٣].

١٥. الزهر النضير على الحوض المستدير، تأليف: علي الوهبي الملقب بالجفعتري (ت١٢٠٢هـ)، وتوجد منه نسختان[٨٤].

١٦. كاشفة الضرر عمن نكح وكفر، تأليف: أبومحمد معين الدين ذنون بن جرجيس بن عبدالقادر ابن عثمان بن محمود الحنفي الموصلي (ت١٢٣٥هـ=١٨١٩م)، في الفقه الحنفي[٨٥].

١٧. نظم الغرر في علم الميراث، تأليف: محمود أفندي الفخري (فخري زادة) آل أمين الفتوى الموصلي(ت١٢٨٥هـ= ١٨٦٨م) وعليهما تقاريض لموصليين، وتوجد منها نسختان[٨٦].

١٨. التبصرة في أحكام الحيض، تأليف: صلاح الدين حسن بن إسماعيل بن عبد الله الدركزلي(ت ١٣٢٧هـ= ١٩٠٩م)[٨٧].

١٩. رسالة في الحيض والاستحاضة والنفاس، تأليف: حسن بن إسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصلي(ت١٣٢٧هـ= ١٩٠٩م)[٨٨].

٢٠. تبصرة الإخوان في الحيض على مذهب المجتهد المطلق النعمان، تأليف: حسن بن إسماعيل بن عبد الله الدركزلي الموصلي

(ت ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩) [٨٩].

٢١. المقايسة في أعمال المناسخة بالجدول، تأليف: سليم الفرضي الموصلي بن صالح المعماري، من رجال القرن الثالث عشر الهجري [٩٠].

٢٢. التحفة الندية في تحريم ذبائح أهل الشرك واليزيدية، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد الملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩١].

٢٣. الرسالة الكاشفة الوضحى عن نقاب الشوارب واللحى، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩٢].

٢٤. قصد السبيل ومختلف الدليل في الصلاة وما يتعلق بها من أحكام، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩٣].

٢٥. هداية الحائر في البينونة والفراق إلى معرفة الصواب في إيقاع الثلاث من الطلاق، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩٤].

٢٦. هداية المرتاب في جواز إهداء الثواب، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (ت١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩٥].

٢٧. كف الملام في مسألة الإفطار والصيام، تأليف: محمد أمين بن محمد سعيد آل ملا يوسف (١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م) [٩٦].

٢٨. فتح السلام في تحقيق رسالة كف الملام، تأليف: أكرم عبد الوهاب محمد أمين آل ملا يوسف، المولود سنة(١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م) [٩٧].

• المحور الخامس: التصوف والمواعظ والتربية:

وفي مجال التربية الروحية والموعظة الحسنة والتأملات الصوفية، أنجز الموصليون (٢٩) مؤلفا، يتناول قضايا السلوك وطرق الوصول إلى الله تعالى، عن طريق التأمل والاستغراق في الذات الإلهية، وقد كتب في هذا المجال (١٧) عالماً، مهتماً بالتصوف والتربية والروحية والسلوكية للمجتمع الموصلي، الذي كان أهل العلم فيه يطمحون إلى جعله مجتمعا صالحا، إلى الحد الأعلى من الأخلاق السامية والآداب الإسلامية العالية، كما أرادوا توجيه اهتمامه إلى القضايا الروحية، ودعوته إلى إشغال الوقت بالتأمل الروحي لتحقيق مكاسب عالية للنفس، بغية توفير السمو لها والترفع عما يسيئها أو ينقصها، والأعمال التي أحصيناها هي:

١. أنس المنقطعين إلى عبادة رب العالمين، تأليف: المعافى بن إسماعيل بن الحسين بن الحسن بن أبي البيان بن أبي سفيان الموصلي (ت ٦٣٠هـ = ١٢٣٢م) [٩٨].

٢. وسيلة الملهوف إلى أهل المعروف، تأليف: شعبان بن شمس الدين محمد ابن شرف الدين داود بن علي القرشي الآثاري زين الدين أبو سعيد الموصلي (ت٨٢٨هـ = ١٤٢٤م) [٩٩]، وقد طبع بعنوان: وسيلة الملهوف عند أهل المعروف، بتحقيق: هلال ناجي، ونشر في مجلة المورد العراقية، مج ٣، ع ١.

٣. زهر الزواجر مختصر الزواجر لابن حجر،

تأليف: عبد الله الربتكي (ت ١١٥٩هـ = ١٧٤٦م) [١٠٠].

٤. زواهر الزواجر، نقلها: عبد الله الربتكي الموصلي (ت ١١٥٩هـ = ١٧٤٦م) [١٠١]، وقام بتحقيقه: حمدي السلفي، وهو تحت الطبع في مكتبة الأصالة والتراث في الشارقة [١٠٢].

٥. القول العمدة في شهود الوحدة، تأليف: علي الوهبي الموصلي الجفعتري (ت ١٢٠٢هـ = ١٧٨٧م)، وتوجد منه نسختان [١٠٣].

٦. زهرة البستان في تجربة الخلان، تأليف: فتح الله بن عبد القادر الموصلي (ت ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م) [١٠٤].

٧. الجوهرة العمرية في الصلاة والسلام على الحضرة المصطفوية، تأليف: محمد بن أحمد ابن علي العمري (ت ١٢١٦هـ = ١٨٠١م) [١٠٥].

٨. الخطب السنية (خطب منبرية): محمد سعيد الموصلي (كان حياً سنة ١٢١٨هـ = ١٨٠٣) [١٠٦].

٩. تذكرة الألباب ونصيحة الأحباب، تأليف: محمود بن الشيخ عبد الجليل الخضري الكردي الموصلي (ت ١٢٣١هـ = ١٨١٥م) [١٠٧].

١٠. تعليقة على مقدمة علم الهدى وأسرار الاهتداء، تأليف: محمود بن الشيخ عبد الجليل الخضري الكردي الموصلي (ت ١٢٣١هـ = ١٨١٥م) [١٠٨].

١١. تحية الإسلام في آداب السلام والمصافحة والقيام، تأليف: أبو محمد معين الدين ذو النون بن جرجيس بن عبد القادر بن عثمان ابن محمود الحنفي الموصلي (ت ١٢٣٥هـ = ١٨١٩م) [١٠٩].

١٢. معدن السلامة في أحوال الدنيا والبرزخ والقيامة، تأليف: أبي محمد معين الدين ذو النون بن جرجيس بن عبد القادر بن عثمان ابن محمود الحنفي الموصلي (ت ١٢٣٥هـ = ١٨١٩م) [١١٠].

١٣. تحفة الواعظين وتذكرة السامعين، تأليف: يوسف بن عبد الجليل الخضري الكردي الموصلي (ت ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م) [١١١].

١٤. نقولات من كتاب الانتصار للأولياء، تأليف: يوسف بن عبد الجليل الخضري الموصلي (ت ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م) [١١٢].

١٥. فتح الفتاح في شرح مفتاح النجاح، تأليف: يوسف بن عبد الجليل الخضري الموصلي (ت ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م) [١١٣].

١٦. الانتصار للأولياء الأخيار، تأليف: يوسف ابن عبد الجليل الكردي الخضري الموصلي (ت ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م)، وعليه تقاريض لجملة من شيوخ الموصل وكبار علمائها [١١٤].

١٧. مفتاح الفلاح في شرح ورد الصباح لابن عربي، تأليف: يوسف ابن عبد الجليل الخضري الكردي الموصلي (ت ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م)، وعليه تقريضان: لجرجيس أفندي ومحمد أمين بك الشهير بياسين أفندي زادة (ت ١٢١٦هـ = ١٨٠١م) [١١٥]، وتوجد منه نسختان [١١٦].

١٨. الإلهام من الله العلام في مديح سيد الأنام، تأليف: يوسف بن الملا عبد الجليل الخضري

الموصلي (ت ١٢٤١هـ)[١١٧].

١٩. البدور الجلية فيما مسّت إليه حاجات الفقراء الصوفية، تأليف: الشيخ نور الدين البريفكاني (ت ١٢٦٨هـ = ١٨٥١م)[١١٨].

٢٠. منظومة للشيخ نور الدين البريفكاني (ت١٢٦٨هـ = ١٨٥١م)[١١٩].

٢١. رسالة في ذكر الشيخ نور الدين البريفكاني (ت١٢٦٨هـ = ١٨٥١م) تأليف: دباغ زادة صالح (ت ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م)[١٢٠].

٢٢. رسالة في كرامات الشيخ نور الدين البريفكاني، تأليف: دباغ زادة صالح (ت١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م)[١٢١].

٢٣. بستان الإخوان ومورد الضمآن، تأليف: محمد نوري بن جرجيس القادري الموصلي (ت١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م)[١٢٢] (مجلدان).

٢٤. قطف ثمار الكلام من كتاب زهر الأكمام، تأليف: محمد نوري بن جرجيس القادري) ت١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م)[١٢٣].

٢٥. الفوائد اللطيفة من النصائح، تأليف: محمد نوري بن جرجيس القادري الموصلي (ت١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م)[١٢٤].

٢٦. رسالة في الخلوة، تأليف: محمد الموصلي من خلفاء محمد البريفكاني[١٢٥].

٢٧. مجمع معالم السلوك في منهاج خدمة ملك الملوك، تأليف: محمد طاهر[١٢٦] بن عبد الله[١٢٧] أفندي النوري صايغ زادة (ت١٣٣٧هـ = ١٩١٨م)، وتقريض للشيخ محمد نوري القادري عليه[١٢٨].

٢٨. أحاديث وأدعية وأذكار، تأليف: محمد بن يونس بن حسين الحنفي، كان حيّاً في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الهجري[١٢٩].

٢٩. لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام، تأليف: شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن علي بن جعفر الموصلي الحنفي الشهير بالبلالي[١٣٠].

الحواشي

١. أصالة المعجمية العربية- بحث العلامة محمد بهجت الأثري، ندوة المعجمية العربية، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٢م: ١٠.

٢. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٧/ ١٥، وهو محمد بن أحمد ابن محمد الموصلي الحنبلي، المعروف بشعلة، ويقال له (ابن الموقع)، له علم بالقراءات وغيرها، توفي بالموصل، وله: الشمعة المضية بنشر قراءات السبعة المرضية، وشرح تصحيح المنهاج لابن قاضي عجلون، والتلويح بمعاني أسماء الله الحسنى الواردة في الصحيح، والفتح لمغلق حزب الفتح، وكنز المعاني في شرح حرز المعاني، ينظر الأعلام: ٥/ ٢٢١، معجم المؤلفين: ٨/ ٢١٥.

٣. م.ن: ٤/ ٢٠، هو أحمد بن يوسف بن الحسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي، موفق الدين أبو العباس الكواشي، عالم بالتفسير من فقهاء الشافعية، من كتبه: تبصرة المتذكر في تفسير القرآن، وكشف الحقائق، ويعرف بتفسير الكواشي، وتلخيص في تفسير القرآن العزيز، ينظر الأعلام: ١/ ٢٧٤، معجم المؤلفين: ٢/ ٢٠٩.

٤. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٥/ ٢٧٨، والشيخ سلطان بن ناصر بن أحمد الجبوري الخابوري عالم مشارك في بعض العلوم، ولد في لواء الموصل سنة ١٠٧٢هـ، وتتلمذ على الشيوخ الأعلام، ثم طاف البلدان، وحصل على إجازات علمية من الشيخ عبد الغني النابلسي(ت ١١٤٣هـ)، وأجيز في القراءات

السبع على الشيخ خليل الخطيب البغدادي، خطيب الحضرة القادرية (ت١١٢٦٠هـ)، وأجيز في القراءات العشر على الشيخ محمد بن عبد الباقي الدمشقي (ت١١٢٦٠هـ)، له القول المبين في التكبير، وكتاب في القراءات السبع، وكتاب في النحو، وتتلمذ عليه جمهرة من علماء الموصل منهم: الشيخ عبد الغفور بن عبد الله الربتكي المدرس، والشيخ إبراهيم الموصلي (ت١١٥٩هـ)، والشيخ سعد الله البصير بن أحمد بن مصطفى شيخ القرّاء(ت ١١٨٨هـ). ينظر الأعلام: ٣/ ١١٠، معجم المؤلفين: ٤/ ٢٢٨، المقتطف من إجازات العراقيين وأسانيدهم- الشيخ الدكتور أكرم عبد الوهاب الملا يوسف الموصلي، إصدارات دار النور للعلوم الشرعية، عمان، ١٤٢٨هـ: ٥٧، تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/ ٢٠٢.

٥. هو محمد بن عمر بن قاسم، فرضي مقرئ شافعي مصري، ينظر الأعلام: ٦/ ٣١٧.

٦. م.ن: ٦/ ١٣٤، ٦/ ٢٦٦، ٦/ ٢٧٤، ٦/ ٣٣٢، ٧/ ٢٠٢، ٧/ ٩١، ٧/ ٩٢.

٧. هو زبان بن عمار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة توفي عام (١٥٤هـ). ينظر الأعلام: ٣/ ٤١.

٨. ينظر: http://www.3lsooot.com/booksmal

٩. م.ن: ٦/ ٢٧٤، ٦/ ٢٧٤، ٨/ ١٦٥، ٧/ ٩١، الأعلام: ٣/ ١١٠، معجم المؤلفين: ٤/ ٢٢٨.

١٠. هو صالح بن زياد بن عبد الله السوسي، ثاني راويي أبي عمرو بن العلاء، ينظر معجم القراءات القرآنية: ١/ ٨٩.

١١. م.ن: ٦/ ٢٦٦، ٢٧٤.

١٢. م.ن: ٦/ ٢٧٤، وأظن أن الكتاب للجبوري.

١٣. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/٢٦٦،، وأظن أن الكتاب للجبوري.

١٤. م.ن: ٦/ ٣٣٢، ٧/ ٩٢، وهو شيخ سلطان بن ناصر الجبوري في القراءات، وتلميذ الشيخ خليل الخطيب، تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/ ٩٢، المقتطف: ٥٧.

١٥. م.ن: ٤/ ١٥٥، تنظر ترجمته في الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: ٢/ ٣١، منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء، محمد أمين ابن خير الله الخطيب العمري، تحقيق ونشر: سعيد الديوجي، الموصل، مطبعة الجمهورية، ١٩٦٧م: ١/ ٢٧٢، الفهرسة: ٦/ ١٧، المقتطف من إجازات العراقيين وأسانيدهم: ٢٤.

١٦. م.ن: ٥/ ٢٧٩، وهو محمد بن مصطفى الغلامي، شيخ علماء الموصل في عصره، له مؤلفات وشروحات، منها: شمامة العنبر، والعقد الثمين في مدائح الأمين، وتخميس الهمزية، وخلاصة المعارف، وغيرها، قال فيه الخطيب العمري: فاق في الشعر على أقرانه، وبرز فيه أمام أهله، ينظر الأعلام: ٧/ ١٠٠، في سلك الدرر ومعجم المؤلفين أن وفاته (١١٧٦هـ): ١٢/ ٣٢، الفهرسة: ١/٢٣٧، المقتطف في إجازات العراقيين وأسانيدهم: ٢١، ٢٢، ٢٦، ٢٩.

١٧. م.ن: ٦/ ٣٣٢، ٧/ ٩٢، تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/٩٢، المقتطف: ٤٦.

١٨. والشيخ سعد الله بن أحمد بن مصطفى شيخ القرّاء (سعد الدين) (ت١١٨٨هـ)، المعروف بالبصير، أخذ علمه في التجويد والقراءات عن الشيخ عبد الغفور بن عبد الله الربتكي، والشيخ إبراهيم الموصلي، والشيخ سلطان بن ناصر الجبوري، كان عالما في التاريخ الشعري، وله خبرة في العلوم الشرعية والعربية، تتلمذ عليه نخبة من العلماء منهم: محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري (ت ١٢٠٣هـ)، ترك ولدين هما: مصطفى ومحمد أمين، وبرزا في القراءات، وبرز من أحفاده: الملا سعدي بن محمد أمين. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٦/ ٧، ٧/ ٢٠٢.

١٩. لسعد الدين ثلاثة تلاميذ: محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، ونجلاه محمد أمين، ومصطفى، لكن الراجح أنه أبو بكر بن فتح الله الموصلي لما تقدم في الكتاب رقم (١٣). ينظر منهل الأولياء: ١/ ٢٦٥- ٢٦٦، المقتطف: ٥٤-٥٥، الفهرسة: ٧/ ٩٢.

٢٠. ينظر فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٧/٩٢، تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/ ٢٠٢، منهل الأولياء: ١/ ٢٨٠، المقتطف: ٥١، ٥٤.

٢١. م.ن: ١/ ١٨٥- ١٨٦، ٨/ ١٢٦، ينظر منهل الأولياء ومشرب الأصفياء: ١/ ١٤- ٤٠، الأعلام: ٦/ ٤١.

مؤلفات الموصليين المخطوطة في العلوم الشرعية (إحصاء ودراسة)

معجم المؤلفين: ٢/ ٧. المقتطف: ٢٩- ٣٠.

٢٢. م.ن: ٢/ ١٥١، ٦/ ٢٦٥. ولم نطلع على ترجمة له إلا أنه جاء في أول المخطوط ما يدل على أنه معاصر للوزير سليمان باشا بن محمد أمين باشا الجليلي، حيث قدّمه تحفة وهدية له.

٢٣. م.ن: ٥/ ٢٧٢. وهو أبو خليل صالح أفندي السعدي بن يحيى أفندي بن يونس أفندي بن يحيى أغا الموصلي الحنفي، ومن شيوخه: يوسف أفندي الرمضاني، وملا يحيى المزوري، ومن تلامذته: أحمد الخياط. ينظر المقتطف: ١٨.

٢٤. م.ن: ٥/ ٢٧٣. والراجح أنه العمري المتوفى (١٢٩٧هـ).

٢٥. ومعالم التنزيل تفسير للقرآن الكريم للبغوي المتوفى (٥١٦هـ).

٢٦. م.ن: ٢/ ٢٨٤، ٢/ ٣١٤. والشيخ السيد محمد نوري نور الدين أبو عبد الله بن السيد جرجيس بن السيد عبد الرحمن ابن السيد أسعد بن السيد سلمان بن السيد جعفر بن السيد عبد الله القادري، يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي (رضي الله عنهما)، عالم كبير توفي في الموصل (عام ١٣٠٥هـ)، ودفن في الجامع الكبير، وهو جد أسرة النوري، ولما تعطل التدريس وإقامة الشعائر في الجامع الكبير ومدرسته قام الشيخ محمد نوري بن جرجيس القادري بترميمهما وإعادة الشعائر فيهما. أخذ الطريقة القادرية من الشيخ نور الدين البريفكي، وأجازه الشيخ عبد الرحمن أفندي الكلاك مفتي الموصل إجازة عامة مطلقة، وأجازه في القراءات السبع مع إجازة عامة مطلقة الشيخ عبد الله أفندي الفيضي. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٢/ ١١٨، ٢٦٩، ٣١٤- ٣١٥. المقتطف: ٤٨.

٢٧. م.ن: ٤/ ٢٠٩- ٢١٠.

٢٨. ينظر المقتطف: ١٠- ١١.

٢٩. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/ ٢٦٤. وقد ولد محمد أمين أفندي زكي الدين بن محمد سعيد أفندي بن الملا يوسف في الموصل، عام ١٢٠٤هـ. قرأ القرآن الكريم على والده الشيخ محمد سعيد أفندي، وتتلمذ على شيوخ عصره منهم: عثمان أفندي الديوجي (ت ١٢٦٠هـ) وعبد الله أفندي النعمة (ت ١٢٦٩هـ) وأحمد الجوادي (ت ١٢٧٧هـ) وأحمد الديوجي (ت١٢٦٢هـ). وعن الأخير أجيز في العلوم العقلية والنقلية. له آثار مخطوطة كثيرة. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٦/ ٢٦١ وما بعدها. المقتطف: ٣- ٥.

٣٠. كذا ورد اسم الكتاب، والمعروف أن ابن الأثير صنّف كتاب جامع الأصول. فهل قام باختصاره؟

٣١. م.ن: ٥/ ٢٤٧.

٣٢. م.ن: ٧/ ١٢١.

٣٣. وأشار الدكتور ماهر ياسين الفحل من جامعة الأنبار بالقيمة العلمية للكتاب وأهميته في تخصصه. ينظر: http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.

٣٤. م.ن: ٩/ ١١.

٣٥. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/ ٥٣. ينظر الأعلام: ٧/ ٢٥٩. وهناك نسخة في إيران على الموقع: www.moshar.ir/books/alphabet.

٣٦. م.ن: ٢/ ٢٢٥. والشيخ محمد بن قاسم ابن محمد بن موسى العبدلي مولدا ثم البغدادي أصلا ومنشأ. ولد سنة ١٠٨٠هـ. كان من كبار العلماء، طاف البلدان، وقرأ مختلف العلوم، وأجيز من شيوخ مصر والشام وحلب وبغداد والموصل. وكان حاذقا في الطب، وانتهت إليه الرئاسة في هذا العلم في عصره. كما كان عالما بالرياضيات والفلك والجفر والزيج والإسطرلاب والحساب والمنطق والعلوم العربية والإسلامية. أخذ منه جمهرة من أهل العلم منهم: محمد أمين آل ياسين أفندي المفتي وخير الله الخطيب العمري. تنظر ترجمته في الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: ٢/ ٣٦، ومنهل الأولياء: ١/ ٢٦٧. الفهرسة: ٢/ ٩. المقتطف: ٤٧.

٣٧. م.ن: ٢/ ٣٠٠. ينظر المقتطف: ٩٨.

٣٨. م.ن: ٧/ ٢٠٦. ينظر المقتطف: ١٢٩.

٣٩. م.ن: ٥/ ٢١.

٤٠. م.ن: ٨/ ١٢٨.

٤١. هو عبد الله بن أحمد بن حسن بن أحمد الزبزي الربتكي، المدرس، العباسي، الشافعي، رئيس العلماء. ولد الشيخ عبد الله الربتكي سنة ١٠٦٠ هـ الموافق

١٦٥٠م. في قرية ربتك التابعة لقضاء الشيخان. وهو عباسي النسب. وأخذ يدرس في عدة مدارس منها مسجد المدرس في محلة عمو البقال. وكان هذا المسجد يجاور داره فكان يدرس به وغلب لقبه على المسجد فصار يعرف بمسجد المدرس. قال عنه عصام الدين العمري: احد الفحول المعول عليه في الفروع والأصول فهو إمام المتورعين ومرجع المتشرعين ورع الزمان عماد المعارف والإذعان ذو الفنون الغريبة والآثار المطربة العجيبة. من مؤلفاته وآثاره العلمية: المنهاج في بيان أحكام العشر والخراج. زبدة القواعد الفقهية في ضبط الأحكام الشرعية. ورسالة ما لابد منه من معرفة عقائد الإسلام. ورسالة في بيان أحوال الرافضة. وزواهر الزواجر. وهو مختصر كتاب الزواجر لابن حجر الهيتمي. وهدي الحكم إلى خير الحكم وهي مختصر كتابه هداية الحكام إلى خير الأحكام. ورسالة في خلق الأعمال. وكتاب نهج المنهج في فقه الشافعية. ومنظومة الأشكال ورسالة تبحث في قتل المؤمن عمدا وغصب ماله. ورسالة في العبادات. والزاجر بعد الكبائر. ورسالة في أصول الدين. وكان قد أصابه المرض وأقعده في داره عن التدريس. توفي الشيخ عبد الله الربتكي سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م في الموصل. ينظر الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: ٥ وما بعدها. منهل الأولياء: ١/ ٢٥٠. الفهرسة: ١/ ١٧٧ المقتطف: ٢٧. و: http://www.daralnawader.com

٤٢. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ١/ ١٧٨. ٦/ ٢٦٤. ٦/ ٢٧٠. ٨/ ١٧٨.

٤٣. م.ن: ٢/ ٢٨٧- ٢٨٨. ٥/ ٢٥٩. ينظر الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: ٢/ ٤٩. المقتطف: ٤٩.

٤٤. هذه التعليقة غير صحيحة وموهمة. فالرسالة وشرحها للملا يوسف الرمضاني. ولعل الأستاذ سالم وصفها بذلك لقول المحشي خالد الكردي: لما رأيت عقيدة ابن الشيرازي. يوسف زمانه... فقهم أنها للشيرازي. وليس ذلك مرادا كما لا يخفى.

٤٥. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ١/ ١٨٧. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٤/ ٩. المقتطف: ٣١.

٤٦. م.ن: ٦/ ٢٢٢. وورد في المقتطف: أنه: الشيخ أبو عبد اللطيف نور الدين علي أفندي بن عبد الله بك بن يونس أفندي بن يحيى أغا الحنفي الموصلي الشهير (ابن محضر باشي). ينظر: ١٧- ١٨.

٤٧. م.ن: ٦/ ٢٢٢. ومن شيوخه: علي المندلاوي. والملا يحيى المزوري. ينظر المقتطف: ١٧- ١٨.

٤٨. م.ن: ٨/ ١٢٧. ٨/ ٢٥٢. وهو أبو محمد معين الدين ذنون بن جرجيس بن عبد القادر بن عثمان بن محمود الحنفي الموصلي. كان عالما شاعرا مقرضا ناظما في التاريخ الشعري نساخاً. تنظر ترجمته في الفهرسة: ١/ ١٩٥. ٦/ ٢٧٢. المقتطف: ١٧.

٤٩. م.ن: ٢/ ٢٩.

٥٠. هو عبد السلام بن إبراهيم اللقاني. شرح جوهرة التوحيد لوالده. توفي عام (١٠٧٨هـ). ينظر الأعلام: ٣/ ٣٥٥.

٥١. م.ن: ٨/ ١٥٩. ينظر منهل الأولياء ومشرب الأصفياء: ١/ ٢٢٨.

٥٢. م.ن: ٨/ ١٥٩.

٥٣. هو محمد بن أسعد الصديقي. جلال الدين. يعد من المتكلمين الفلاسفة. ينظر الأعلام: ٦/ ٣٢.

٥٤. م.ن: ٦/ ٢٠١. وهو خير الله بن محمود بن موسى بن الحاج علي بن الحاج قاسم العمري. ولد سنة ١٠٩١هـ. وتوفي سنة ١١٨٢هـ. كان فقيها نحويا صرفيا. عارفا بأنواع العربية والحساب. كان نائبا على الفتوى. وتولى الخطابة في جامع العمرية. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٦/ ٢٠١. المقتطف: ٢٦- ٢٧.

٥٥. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٥/ ١٠٨. ٦/ ٢٢٦.

٥٦. م.ن: ٦/ ٢٠٤.

٥٧. ينظر الفهرسة: ٦/ ٢٠٤.

٥٨. م.ن: ٢/ ٢١٣. وهو سلطان أفندي بن حسن الصائغ الموصلي. كان من مشاهير علماء الموصل في القرن الثالث عشر. أخذ إجازته من الشيخ علي أفندي محضر باشي. وقرأ عليه العلامة الحاج عثمان أفندي الرضواني. وله إجازة في الفهرسة للشيخ محمد صالح الحسيني. وورد اسم جده (علي صايغ). تنظر ترجمته في الفهرسة: ٢/ ٢٩٢. ٦/ ٣٠٤. ٢/ ٢٩١. ٤/ ٢١٠.

مؤلفات الموصليين المخطوطة في العلوم الشرعية (إحصاء ودراسة)

٥٩. م.ن: ٥/ ٢٨. تنظر ترجمته في الفهرسة. والمقتطف: ١٢٩.

٦٠. م.ن: ٦/ ١٤٦.

٦١. م.ن: ٦/ ١٤٧. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٢/ ٨٩.

٦٢. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/ ٢٦٤. ينظر قراءة في مخطوطة (العمادية في مختلف العصور) على الموقع: م.ن: ٦/ ٣٦٥.

٦٣. http://taakhinews.org

٦٤. م.ن: ٦/ ٣٦٦.

٦٥. م.ن: ٦/ ٣٦٦.

٦٦. م.ن: ٦/ ٣٦٧.

٦٧. م.ن: ٧/ ٢٠٧. والشيخ رشيد الخطيب تتلمذ على شيوخ عصره، وحصل على إجازته العلمين من الشيخ محمد أفندي الرضواني، وله مؤلفات مخطوطة عدة، منها: أسنى الأرب في تاريخ الأدب، وأبسط الترتيب في تراجم الأدباء، وأوضح المناهج في تاريخ الأدب، والمفيد في أصول الفقه، وغيرها، وقد صدر له تفسير القرآن العظيم المسمى: أولى ما قيل في آيات التنزيل، كان خطيبا وواعظا وعضوا في المجلس العلمي. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/ ٢٠٧. المقتطف: ٧.

٦٨. ينظر الأعلام: ٤/ ١٣٥.

٦٩. م.ن: ١/ ٨٥، ٤/ ٦٧، ٥/ ٢٧، ٧/ ٢٨٠، ٨/ ٢٠٢.

٧٠. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٢/ ١٧٢، ٤/ ٨٧، ٦/ ٧٢، ٧/ ١٤٨، ٧/ ١٤٩، ٣/ ٢٨، ٧/ ٢٥٦، ٧/ ٢٥٧، ٨/ ١١٩، ٨/ ٢٢٥، ٨/ ٢٢٦.

٧١. م.ن: ١/ ١٧٧، ٥/ ٢٩٢، ٨/ ١٠٢، ٨/ ١٧٧، ومن شيوخه: يوسف النائب الموصلي، ومن تلاميذه: يحيى المفتي ابن الشيخ فخر الدين الأعرجي، والسيد عبد الله الفخري شقيق يحيى السابق، وياسين وعبد الغفور نجلا عبد الله الربتكي، والشيخ موسى الحدادي الموصلي، والشيخ محمد بن مصطفى الغلامي، والشيخ حمد الجميلي، ينظر المقتطف: ٢٧- ٢٨.

٧٢. ينظر:
http://mig33beta.ahlamontada.com/t5083-topic

٧٣. م.ن: ٢/ ٢٨٦.

٧٤. م.ن: ٨/ ١٦٣.

٧٥. م.ن: ٢/ ٢٨٦، ٦/ ٢٧٠.

٧٦. م.ن: ٥/ ٢٧٩. منهل الأولياء ومشرب الأصفياء: ١/ ٢٥٤.

٧٧. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٥/ ٢٧٩.

٧٨. م.ن: ٤/ ١٦٠. هو يحيى بن السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني مفتي الأحناف، أديب عالم شاعر فقيه عالم بالاصطرلاب، يتقن الفارسية والتركية، عرف بالسخاء والعطاء، ولد سنة ١١١٢هـ وتوفي سنة ١١٨٧هـ، له مواقف بطولية أيام حصار نادر شاه للموصل سنة ١١٥٦هـ. ومن شيوخه: حمد الجميلي الموصلي، وعبد الله الربتكي، ومن تلاميذه: محمد سليم الأردلاني ومحمد أمين بن خير الله العمري، تولى إفتاء الأحناف سنة سنة ١١٤٣هـ. ينظر منهل الأولياء: ١/ ٢٣٩، الفهرسة: ١/ ٢٠١، ٤/ ١٦٠، ٦/ ٢٤٨، المقتطف: ٤١.

٧٩. م.ن: ٨/ ٦٢، ٨/ ١١٥. تنظر ترجمته في الفهرسة: ٧/ ٣٢. وهو الشيخ مصطفى بن الحاج سلمان بن الشيخ أحمد الحنفي النعيمي الملقب (البصيري) المقري المتوفى ١١٢٤هـ، وإجازته عن شيخه ياسين المفتي (ت ١١٢٥هـ) وهو عن والده محمود المفتي بن عبد الوهاب الموصلي، ومن تلامذته الشيخ خير الله العمري (ت ١١٨٢هـ)، وعبد الباقي العمري ومراد العمري، ونجله الشيخ الملا محمد أمين البصيري ابن الشيخ مصطفى البصيري، له أراجيز في المعاني والبيان والمنطق والأصول ورسالة في النحو، ينظر منهل الأولياء: ٢/ ١٨٣، المقتطف: ٢٠، ٣٦، ٤٤، ٥٤.

٨٠. م.ن: ٧/ ٣٢.

٨١. م.ن: ٨/ ٧٣- ٧٤، ٧/ ٣٢.

٨٢. م.ن: ٥/ ١٦٤. تنظر ترجمته في الفهرسة، ومن شيوخه: الملا علي الوهبي الجعفري، ينظر المقتطف: ٤٨.

٨٣. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٢/ ١٧١، ٦/ ٢٢٧، ٨/ ٧٢، ومن شيوخه: موسى الحدادي والملا سليم الأردلاني وصبغة الله الحيدري وملا جرجيس الرشادي، ينظر المقتطف: ٢٩- ٣٠.

٨٤. م.ن: ٥/ ٢٥٣، ٢٦٠. تنظر ترجمته في منهل الأولياء: ١/ ٢٧٤.

٨٥. م.ن: ٢/ ٣٧.

٨٦. م.ن: ٦/ ١٣٥، ٧/ ١٥١. هو والد الشيخ السيد أحمد الفخري القاضي الموصلي، العالم الأديب الشاعر.

٨٧. م.ن: ٢/ ٢٧٣، ومن شيوخه: يونس أفندي الخطيب ونور الدين البريفكاني، ومحمد أفندي الموصلي المعمر، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن طه الصائغ، ينظر المقتطف: ٩- ١٠.

٨٨. م.ن: ٢/ ٢٨.

٨٩. م.ن: ٨/ ١٨٦.

٩٠. م.ن: ٦/ ١٢٩.

٩١. م.ن: ٦/ ٢٦٤.

٩٢. م.ن: ٦/ ٢٦٧.

٩٣. م.ن: ٦/ ٢٦٨.

٩٤. م.ن: ٦/ ٢٦٩.

٩٥. م.ن: ٦/ ٢٦٩.

٩٦. م.ن: ٦/ ٢٧٠.

٩٧. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/ ٢٧٠.

٩٨. م.ن: ٥/ ٢٢٤، وله نسخ مخطوطة على الموقع: http://www.almostafa.info/books/ht m/search

٩٩. م.ن: ٧/ ٩٠. هو شعبان بن محمد بن داود الموصلي الأصل، المصري، ويعرف بالآثاري، زين الدين، أديب شاعر مشارك في بعض العلوم، من آثاره: شرح الألفية في ثلاث مجلدات ولم يكمل، وأرجوزة في علم الكتابة، وأرجوزة في العروض، وغيرها، ينظر الأعلام: ٤/ ٣٠٠.

١٠٠. م.ن: ٢/ ٢٨٦.

١٠١. م.ن: ٨/ ١٦٣.

١٠٢. ينظر: www.daralnawader.com/pages/blogs.

١٠٣. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٥/ ٨٠، ٥/ ٢٥٧، والجعفتري علي بن عبد الوهاب، عالم شاعر أديب، خطيب، قرأ على شيوخ عصره، منهم: أحمد الجميلي وعليه أجيز، ومن طلابه: محمد بن مصطفى الغلامي، وعبد الرحمن بن سلطان الكلاك، وعصام الدين عثمان العمري، متصوف، درّس في مدرسة جامع خزام، تولى الخطابة في جامع العبدال، له مؤلفات وقصائد معتبرة، تنظر ترجمته في الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: ٢/ ٣٨٨، منهل الأولياء: ١/ ٢٧٤، الفهرسة: ٤/ ٢٠٠، ٥/ ٢٥٤، ينظر المقتطف: ٤٨.

١٠٤. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٦/ ٢٢٣، وهو فتح الله بن عبد القادر الموصلي، الحنفي متولي وقف جامعي النبي يونس والنبي جرجيس، عالم شاعر أديب، له مؤلفات وأراجيز عديدة، ومن تلاميذه: أولاده الثلاثة: سيف الله والحاج بكر وسعد الله، تنظر ترجمته في الفهرسة: ١/ ٢٠١، منهل الأولياء: ١/ ٢٦٥، المقتطف: ٢٤.

١٠٥. م.ن: ٨/ ٥٨، وهو ابن عم الشيخ محمد أمين ابن خير الله العمري، وهو من تلاميذ الشيخ محمد سليم الأردلاني الموصلي(ت ١٢٠٣هـ)، ينظر منهل الأولياء: ١/ ٣١٠، المقتطف: ٤٨- ٤٩.

١٠٦. م.ن: ٩/ ٢٠.

١٠٧. م.ن: ٥/ ٧١، وهو من شيوخ الحسن الحيار الدركزلي، ينظر المقتطف: ١٠.

١٠٨. م.ن: ٥/ ٧٩.

١٠٩. م.ن: ١/ ١٩٥.

١١٠. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٥/ ٢٤.

١١١. م.ن: ٥/ ٢٤، وهو العلامة الولي أبو حسين وأبو محمد أمين يوسف بن عبد الجليل بن مصطفى بن ملا صوفي الله ويس بن الملا ذي الفقار بن الملا خدر بن الملا قيماس بن عباس الخدري الشافعي القادري، والمشهور هو وأخوه محمود بـ(الجليلي) الخدري الموصلي، وأخذ العلم عن أبيه عبد الجليل ابن مصطفى خليفة الشيخ إسماعيل البرزنجي، وعن الشيخ إسماعيل البرزنجي،... وغيرهما، ينظر المقتطف: ١٢.

١١٢. م.ن: ٥/ ٢٤.

١١٣. م.ن: ٥/ ٩١.

١١٤. م.ن: ٥/ ١٠٥- ١٠٦، وهو عالم متصوف، عرف من مؤلفاته: الإلهام من الله العلام في مديح سيد الأنام، والانتصار للأولياء، وتحفة الواعظين، وأربعون حديثا جمعها وشرحها، تنظر ترجمته في الفهرسة: ١/ ١٩١.

١١٥. وهو محمد أمين بن إبراهيم بن يونس ابن ياسين المفتي، تلقّى علومه على أجلة علماء عصره، وبرز في الطب، وقد أخذه من كبير العلماء والأطباء محمد العبدلي، تنظر الفهرسة: ١/ ٢٢٦.

١١٦. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٧/ ٢٥٩، ٨/ ١٠٨.

١١٧. م.ن: ٥/ ٢٩.

١١٨. م.ن: ٢/ ٢٧٢، تنظر ترجمته في الفهرسة: ٢/ ٢٠٤.

١١٩. م.ن: ٧/ ٢٠٠.

١٢٠. م.ن: ٢/ ٣١٤.

١٢١. م.ن: ٢/ ٣١٤.

١٢٢. م.ن: ٢/ ٢٧٢، وهو من تلاميذ الشيخ عبد الرحمن ابن سلطان الكلاك، ينظر المقتطف: ٤٨.

١٢٣. م.ن: ٢/ ٢٠٤.

١٢٤. فهرس مكتبة الأوقاف المركزية في الموصل: ٧/ ٢٠٠.

١٢٥. م.ن: ٢/ ٢٨٧، لعله الشيخ محمد بشير البريفكاني، ينظر المقتطف: ٥٦.

١٢٦. من شيوخه والده عبد الله نور الدين وهو عن شيخه شهاب الدين أحمد بن محمد الخياط عن شيخه عبد الله العمري، ومن شيوخه أيضا عبد الوهاب الجوادي وصالح الخطيب، ينظر المقتطف: ٦- ٧، ١٢٦.

١٢٧. وأما والده عبد الله نور الدين بن محمد الشهير بالصائغ، درس على أحمد أفندي الخياط، ونال الإجازة عليه، وأخذ يدرس في المدرسة التي أنشأها له أخوه عبد الرحمن (مدرسة الصائغ)، وكان مولعا بالتاريخ والسير والأدب والحديث والشعر، فضلا عن علومه الدينية، له تعليقات وحواش مختلفة، وقد عرف بحسن خطه الذي أخذه عن الشيخ صالح أفندي السعدي آل محضر باشي، الفهرسة: ٧/ ١٩٣.

١٢٨. م.ن: ٧/ ٢٠٠.

١٢٩. م.ن: ٧/ ٣١٥.

١٣٠. م.ن: ٨/ ٦١.

فهرس المصادر والمراجع

١. أصالة المعجمية العربية- بحث العلامة محمد بهجت الأثري، ندوة المعجمية العربية، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٩٢م.

٢. الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٦، ٢٠٠٥م.

٣. الروض النضر في ترجمة أدباء العصر: عصام الدين العمري، عثمان بن علي، تحقيق: الدكتور سليم النعيمي، المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٤م.

٤. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: المرادي، محمد خليل بن علي، دار الكتاب الإسلامي.

٥. فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل: سالم عبد الرزاق، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ط٢، ١٩٨٢م.

٦. معجم القراءات القرآنية: د. أحمد مختار عمر، ود. عبد العال سالم مكرم، مطبوعات جامعة الكويت، ط٢، ١٩٨٨م.

٧. معجم المؤلفين: كحالة، عمر رضا، بيروت، ١٩٥٧م.

٨. المقتطف من إجازات العراقيين وأسانيدهم- الشيخ الدكتور أكرم عبد الوهاب الملا يوسف الموصلي، إصدارات دار النور للعلوم الشرعية، عمان، ١٤٢٨هـ.

٩. منهل الأولياء ومشرب الأصفياء من سادات الموصل الحدباء، محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، تحقيق ونشر: سعيد الديوجي، الموصل، مطبعة الجمهورية، ١٩٦٧م.

• مواقع الإنترنت

10. http://www.3lsooot.com/booksmal

11. http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.

12. www.moshar.ir/books/alphabet

13. http://www.daralnawader.com

14. http://taakhinews.org

15. http://mig33beta.ahlamontada.com/t5083-topic

16. http://www.al-mostafa.info/books/htm/search

17. www.daralnawader.com/pages/blogs

مقالات

القَمَاعِيلُ فِي مَدْحِ شَيْخِ العَرَبِ إسْمَاعِيل

تَأْلِيف

السَّيد محمَّد مرتَضَى الزَّبيدي

المتوفَّى سنة ١٢٠٥هـ

القَماعِيلَ فِي مَدْح شَيْخ العَرب إسْماعِيل

تَحْقِيقُ ودِراسَة

مُحَمَّد فَتْحِي عَبْد الْفَتَّاح الأعْصَر

البَاحِث بِمَرْكَزِ تَحْقِيقِ النُّصُوصِ - جامعة الأزهر الشَّرِيف

مقدمة

نعلمُ أنَّ التُّراثَ العَربي في العَصر العُثماني بحَاجةٍ مَاسةٍ إلى الكَشْف عن كُنُوزه المخْطُوطة، ومحَاولة تحْقِيقه، ونَشْرِه؛ وَفْق المنْهَجيَّة العِلْمية الدَّقيقة في التَّحْقيق.

ومن خِلال البَحْثِ في مكتبة الأزهر الشَّريف بالقاهرة، وجدتُ مخْطُوطةً نَفِيسة لمحمَّد مُرتضى الزَّبيدي المتوفى سنة ١٢٠٥هـ، كُتبت في حياته سنة ١١٨٤هـ.

وهي عبارة عن مَقامَة في مَدْح شَيخ العَرب مَجْد الدِّينِ إسماعيل بْن عبد الله بْن عِيسَى بْن أَحْمَد بْن مُحَمَّد بْن هَمَّام بن سِيدَة الْهَوَّارِيّ الزُّغَيْبِيّ الْحِمْيريّ، الذي يتصل نسبه بقبيلة هوَّارة، وبآل البيت الأشراف.

والمَقامةُ تُعدُّ من المقَامات الجيدة التي تُعبِّر في ثناياها عن واقِع اجتِمَاعي مَعِيش، وتُبرهِنُ على قُدرةِ الزَّبيدي في تأليفِ المقَامات البديعة ذاتِ الأسْلُوب البَلِيغ الَّذي إنْ دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على قُدرة عُلماء العَصر العُثْماني على التَّأليف والإبْدَاع، وليس التَّقْليد كما شاع هذا الخَطَأ[1]. وأيضًا تحتوي على قصيدتِه الميميَّة الرَّائعة في مَدْح شَيخ العَرب إسماعيل، وقَصيدةً أُخْرى في طلبِ العَطَايا والمنَح والهِبات التي تعينُ على العَيْش. ويجدر بنا أنْ نَتَناولَ في هذِه المقدِّمة التَّمهيديَّة: التَّعريفَ بـ «رِسالة **القَمَاعِيل**»، وتوثيق نِسْبتها إلى مؤلِّفها، وأهميتها العِلميَّة، ومؤلِّفها ومؤلفاته العلْمية، والنُّسخ الخطِّية التي اعتمدتُ عَلَيها في التَّحقيق، ومَنْهجي في ذلك.

العلَّامة محمَّد مرتضى الزَّبيدي

المولد والنَّشأة

اسْمهُ :

يعدُّ العَلامة اللّغوي والأديب الشَّهير السَّيد محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن عَبْد الرَّزاق الشَّهير بمرتضى

(١) انظر في ذلك ما قاله جورجي زيدان عن انحطاط الآداب العربية وفساد ملكة اللسان وتجميد القرائح في العصر العثماني ٢: ٢٩١ - ٢٩٢، تاريخ آداب اللغة العربية، راجعها وعلق عليها د. شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، (د.ت).

الحسيني الزَّبيدي الحنفي[1] - الذي يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين - إمام أهل اللّغة قاطبة في العصر العثماني، ومن أدبائها العظام رغم قلة ما وصلنا من أشعاره.

فلم يكن هناك أعظم منه اطّلاعًا ورواية وشهرةً . نعته تلميذه الجبرتي بكثير من الخصال؛ فهو «العَلَم الموصوف، العمدة الفهّامة، الرُّحلة النّسابة، الفقيه المحدث اللّغوي النّحوي الأصولي النّاظم النّاثر»[2] خاتمة الحفّاظ.

مولده :

ولد الزَّبيدي سنة خمس وأربعين ومئة وألف من الهجرة النبوية ١١٤٥هـ، كما أورد ذلك الجبرتي في «**تاريخه**»، ولم يحدّثنا الزَّبيدي عن البلد التي ولد بها، إلاّ أن أصله من «واسطَ»؛ بلدة من أعمال العراق، وكان مولده بالهند في بلدة «بلجرام» – وهي إحدى ولايات الهند التي لعبت دورًا مهمًا في تاريخ الثّقافة الإسلامية ونشأ باليمن.

رحلاته العلمية :

القارئ في المصادر التي ترجمت الزَّبيدي يجدُ أنّها أبْرزَت رِحلاته في طَلبِ العِلم والتَّلمذة على يدِ كِبَار شُيوخ عَصْره في أنْحَاء العَالم الإسلامي كافة، فقد ذكر المؤرخون أنّه «اشتغل على المحدّث محمد فاخر ابن يحيى الإلهابادي، والشاه ولي الله الدّهلوي، فسمع عليه الحديث وأجازه. ثم ارتحل لطلب العلم فدخل «زَبيد»، وأقام بها مدة طويلة حتى قيل له الزَّبيدي».

وبعد ذلك ارتحل الزَّبيدي إلى مصر وغيرها من البلدان طالبًا العلم، ومحصلاً له على يد شيوخ عصره، وفي ذلك يقول تلميذه **الجبرتي**: «ارتحل في طلب العلم وحجَّ مرارًا، واجتمع بالشيخ عبد الله السّندي، والشيخ عمر بن أحمد بن عَقيل المكي، وعبد الله السّقاف، والمسنِد محمد بن علاء الدين المزجاجي، وسليمان بن يحيى، وابن الطيب.

واجتمع بالسيد عبد الرحمن العَيْدَروس بمكة، وبالشيخ عبد الله ميرغني الطائفي في سنة ثلاث وستين،

---

(١) انظر في ترجمته الجبرتي: عجائب الآثار ٢ : ٢٠٢ – ٢٢١، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٩٨م؛ عبد الرازق البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٢ : ١٤٩٢ – ١٥١٦، تحقيق: محمد بهجت البيطار، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م؛ الزَّبيدي: تاج العروس (انظر مقدمة التحقيق للدكتور عبد الستار فراج، التي استفدت منها كثيرًا)، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، سنة ١٩٦٥م؛ القنوجي: أبجد العلوم ٢ : ١٢–٢٨، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٢ : ٩٤ – ٩٦ طبعة بولاق، مصر، ١٢٠٥هـ؛ جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٢: ٢١٠ – ٢١١، مراجعة وتعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، د.ت؛ عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس١ : ٥٢٦ – ٥٤٢، باعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م ؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٨: ٦٢ – ٦٤، ترجمة: عمر صابر عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥م؛ الزركلي: الأعلام ٧: ٧٠، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، سنة ٢٠٠٢م ؛ محيي الدين الطعمي: النور الأبهر في طبقات الجامع الأزهر ١٢٧ – ١٢٨، دار الجيل، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٢م.

(٢) انظر: عجائب الآثار ٢ : ٢٠٢.

ونزل بالطائف بعد ذهابه إلى اليمن ورجوعه في سنة ست وستين؛ فقرأ على الشّيخ عبد الله في الفقه ، وكثيرًا من مؤلفاته وأجازه.

وقرأ على الشّيخ عبد الرحمن العَيْدَروس «**مختصر السّعد**»، ولازَمه ملازمة كلية، وألبسه الخِرْقة وأجازه بمرويّاته ومسموعاته. قال: وهو الذي شوّقني إلى دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها، وما فيها مِنَ المشاهد الكرام؛ فاشتاقت نفسي لرؤياها وحضرت مع الرَّكب وكان الذي كان ، وقرأ عليه طرفًا من «**الإحياء**» وأجازه بمرويّاته.

ثم ورد إلى مصر في تاسع صفر سنة سبع وستين ومئةٍ وألفٍ، وسكن بخان الصّاغة ، وأول من عاشره، وأخذ عنه السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر، وحضر دروس أشياخ الوقت كالشيخ أحمد الملّوي والجوهري والحفني والبُلَيْدي والصّعيدي والمدابغي وغيرهم، وتلقّى عنهم، وأجازوه وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه.

ولم يكتفِ الزّبيدي بما حصّله من علم؛ فجاب البلاد طالبًا المزيدَ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات، واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه، وأكرمه شيخُ العرب همامُ وإسماعيلُ أبو عبد الله وأبو علي وأولاده نصير وأولاد وافي وهـادوه وبَرُّوه . وكذلك ارتحل إلى الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة، وباقي البنادر العظيمة مرارًا حين كانت مزيّنة بأهلها عامرة بأكابرها وأكرمه الجميع، واجتمع بأكابر النّواحي. وأرباب العلم والسُّلوك وتلقّى عنهم وأجازوه وأجازهم .

الزّبيدي معلمًا :

طارت شُهرة الزّبيدي في الآفاق وأقبلَ عليه الخاص والعام من كلّ حدبٍ وصوب، وذلك بعدما شرع في إملاء الحديث على طريق السّلف في ذكر الأسانيد والرُّواة المخرّجين من حفظه على طرق مختلفة. وكل من قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث الرحمة بِرُواتِه ومخرّجيه ويكتب له سندًا بذلك وإجازة وسماع الحاضرين، فيعجبون من ذلك.

ووصلَت درجة شُهرته إلى أنّ مُعظَم عُلماء الأزهر الشريف آنذاك سَعوا إلى حُضورِ دروسه والاستِماع إليه والإجازة منه. وزادَ من شُهرة الزّبيدي أن تناقلَ في النّاس سعي مشايخهم من عُلماء الأزهر مثل: الشّيخ أحمد السُّجاعي، والشّيخ مُصْطفى الطّائي، والشّيخ سُليمان الأكراشي وغيرهم، للأخذ عنه. فازداد شأنه وعظم قدره، واجتمع عليه العامة والأكابر والأعيان.

وفاة الزّبيدي :

ذكر تلميذه الجبرتي في «**تاريخه**»: أنّ مرض الطّاعون قد زاد وانتشر انتشارًا فاحشًا في عام ١٢٠٥هجرية، ونال من العام والخاص؛ فأصيب الزّبيدي به (أي بالطاعون) في شهر شعبان. وذلك بعد صلاة الجمعة في مسجد الكردي المواجه لداره، ودخل بيته واعتُقل لسانُه.

وبعدَ حياة حافلة بالجدّ في تحصيل العلم والتدريس توفّي يوم الأحد من ذلك الشهر، ومن تلك السّنة، أي يوم الأحد من شهر شعبان سنة ١٢٠٥ هجرية.

وكان قد تزوج من امرأة أخرى غير زوجته الأولى **زُبيدة** - التي ماتت في حياته - لعله يرزق بالولد منها؛ ليرث ثروته وكتبه التي بلغت من كثرتها الشيء الكثير. فأخفت زوجته وأقاربها نبأ موته، وانشغلوا بنقل الأشياء النّفيسة والمال والذّخائر والأمتعة والكُتب المكلفة، ثم أشاعوا موته يوم الاثنين. فشُيِّعت جنازته وصلّوْا عليه ودفن بقبر أعده لنفسه بجانب زوجته الأولى **زُبيدة** - التي رثاها رثاءً بليغًا ينبض بإحساس مرهف، يدلُّ على قوة شاعريته - بالمشهد المعروف بالسيدة رُقَيَّة. ولم يعلم بموته أهل الأزهر؛ وذلك لاشتغالهم بأمر الطاعون. ولهذا السبب لم يَرْثِه أحد من شعراء عصره أو تلاميذه.

ترك لنا مرتضى الزّبيدي الكثير من المؤلفات التي تخلّد ذكره في الآفاق، وفي مقدمتها معجمه «**تاج العروس من جواهر القاموس**»، الذي يعدُّ علامةً بارزةً في تاريخ التراث العربي والإسلامي على وجه العموم، وتاريخ التراث في العصر العثماني على وجه الخصوص. ويرد على كثير من الادعاءات التي تقول بأن العصر العثماني عقِم عن إنجاب العلماء والموسوعيين، أسوة ببقية العصور المنصرمة[1].

مؤلفات الزّبيدي[2]

ترك لنا مرتضى الزَّبيدي مؤلفات عديدة نذكر منها ما يلي:

١. إتحاف الإخوان في حكم الدُّخان.

٢. إتحاف بني الزمن في حكم قهوة اليمن.

٣. إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين.

٤. أربعون حديثًا في الرَّحمة.

٥. إرشاد الإخوان إلى الأخلاق الحسان.

٦. الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة.

٧. إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام.

٨. إقرار العين بما نُسِب إلى الحسن والحسين.

٩. الأمالي الحنفية.

١٠. الأمالي الشَّيْخونية.

---

(١) يقول جورج زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ٣: ٢٩١، أما الآداب العربية على الإجمال، فأصبح في أحط أدوارها، وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها. وأكثر ما كتب في هذا العصر، إنما هو من قبيل الشروح والحواشي، والتعاليق، وشروح الشروح ونحوها، ومما لا شك فيه أن هذا الحكم هو خطأ بيِّن لتعميم الحكم على عصر بأكمله امتد لعدة قرون، هو جزء من تاريخ ثقافتنا وتراثنا المجيد.

(٢) استفدت في معرفة مؤلفات الزُّبيدي من كتب التراجم والتاريخ التي ترجمت له ولمؤلفاته، وكذا فهارس المخطوطات أمثال: الجبرتي: عجائب الآثار ٢ : ٢٠٢ - ٢٢١؛ ابن البيطار: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٢ : ١٤٩٢ - ١٥١٦؛ عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس ١ : ٥٢٦ - ٥٤٢؛ الزركلي: الأعلام ٧ : ٧٠؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٨ : ٦٢ - ٦٤.

١١. إيضاح المدارك عن نَسبِ العواتك .

١٢. بُلْغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب .

١٣. تاج العروس من جواهر القاموس.

١٤. ترويح القلوب بذكر ملوك بني أيوب .

١٥. التفتيش في معنى لفظ «درويش» .

١٦. تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير .

١٧. حسن المحاضرة في آداب البحث والمناظرة .

١٨. حكمة الإشراق إلى كُتّاب الآفاق .

١٩. رسالة تحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل(وهي الرسالة موضوع التحقيق) .

٢٠. رسالة في تحقيق لفظ الإجازة .

٢١. رسالة في طبقات الحفاظ .

٢٢. رشف سُلاف الرَّحيق في نسب حَضْرة الصِّدِّيق .

٢٣. رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفا وأبي الوفا .

٢٤. شرح الصَّدْر في أسماء أهل بدر .

٢٥. شرح صيغة السَّيد البَدَوي .

٢٦. عقد الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة .

٢٧. العقد المكلَّل بالجواهر الثَّمين في طرق الإلباس والذكر والتَّلقين .

٢٨. العقد المنظم في أمهات النبي صلى الله عليه وسلم .

٢٩. القول الصحيح في مراتب التعديل والتجريح .

٣٠. القول المثبوت في تحقيق لفظ التابوت .

٣١. كشف الغطا عن الصلاة الوسطى .

٣٢. كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام .

٣٣. المعجم الأكبر .

٣٤. المعجم الصغير .

٣٥. معجم شيوخ السجادة الوفائية .

٣٦. معجم شيوخ العلامة عبد الرحمن الأجهوري شيخ القرَّاء بمصر .

٣٧. المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية .

٣٨. مناقب أصحاب الحديث .

٣٩. المواهب الجلية فيما يتعلق بحديث الأولية .

٤٠. نشق الغوالي من تخريج العوالي (عوالي شيخه علي بن صالح الشاوري) .

٤١. نشوة الارتياح في حقيقة المَيْسِر والقِداح .

٤٢. النّفحة القدسية بواسطة البُضْعة العيدروسية .

رسالة القماعيل توثيق نسَبَتها للزَّبيدي، وأهميَّتها:

قبلَ التحَقُّق من نسْبةِ رسَالة "القَماعِيل» للزَّبيدي، ومعرفة أهميتها ، يجبُ عَلينا التَّعرض لمفهوم لَفْظ القَماعِيل.

مفهوم « القَماعِيل « :

ذكر الزَّبيدي في تاج العَرُوس [١] أنَّ : القِمْعَال بِالكَسْرِ : سَيِّدُ القَوْمِ ، والجَمْعُ : قَمَاعِيْلُ ... قَالَ ابن بَرِّيّ : القِمْعَالُ : رَئِيسُ الرِّعاءِ ... وقد قَمْعَلَ وخَرَجَ مُقَمْعِلا : إذا كَانَ عَلى الرَّعَايا يَأمُرُهُمْ ويَنْهَاهُم.

توثيق نِسْبتها إلى الزَّبيدي:

من خلال البحْث في كتب الطَّبقات والتَّاريخ وفهارس المخطوطات المحفوظة بدور المكتبات[٢]، ومعاجم المطبوعات وجدتُ أنَّ للعلامة مُرتَضى الزَّبيدي رسالة سماها «القَماعِيل في مَدحِ شَيْخ العَرب إسماعيل». وشَيْخ العَرَب إسماعيل هذا واحدٌ من الشَّخصيَّات التي اشتهرت بها قبيلة الهوارة في صَعيدِ مصر في أواخِر العَصر العُثماني. وقد ذكر الجبرتي في «تاريخه»[٣] علاقة الود والتقدير التي كانت قائمة بين الزّبيدي وإسماعيل أبي عبد الله في أواخر العصر العثماني . ولذلك ألَّف الزَّبيدي رسالته مدحًا وتكريمًا لممدوحه وبيانًا لنسبه الشَّريف .

أهميتها :

تكمن أهمية «**رسالة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل**» فيما يلي :

أولاً: تحدَّث الزَّبيدي في مقدمته عن أهمية الأدب.

ثانيًا: تعدُّ هذه الرِّسالة بمثابة أنموذج حقيقي على قدرة أدباء العصر العثماني ومؤلِّفيه على إنشاء فن المقامات الجيدة، وإن صاحَبَها بعضُ التَّقليد والتَّأثر بمن تقدمهم .

ثالثًا: هذه الرِّسالة تؤرخ لنَسَب شيخ العرب إسماعيل، واتصاله بقبيلة الهوارة، وتذكر ما قيل عن أصل قبيلة الهوارة، وترحالها واستقرارها، معتمدًا في ذلك على ما رواه المقريزي في كتابه «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، فهي بذلك مصدر مهم لمعرفة أصول قبيلة الهوراة إلى أن استقرت بصعيد

---

(١) ٣٠ : ٢٨٦ .

(٢) انظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٨ : ٦٢ – ٦٤؛ الزركلي: الأعلام ٧ : ٧٠ ؛ جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٣١٠ – ٣١١؛ فهرس المكتبة الأزهرية رقم خاص ٥٦٧ أدب – عام ٧١٦٢ مكتبة أباظة؛ فهرس دار الكتب المصرية ٦١٦ أدب تيمور.

(٣) ٢ : ٣٠٣ – ٣٢١ .

مصر، وسطوع نجمها في العصر العثماني .

رابعًا: يرجع نسب شيخ العرب إسماعيل - أبو عبد الله - إلى آل البيت الأشراف الذين ينتهي نسبهم إلى سيدنا الحسن والحسين معا ابني سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم أجمعين، وهي بذلك تؤكد على عراقة النسب لقبيلة الهوارة، والتي يمتد إلى آل البيت الأشراف .

خامسًا: تبرز مجد آباء شيخ العرب إسماعيل، وأنّ السلطان سليم بن أبا يزيد العثماني عقد لجده شيخ العرب همّام بن سيبة - إمارة العرب بوادي جَرْجا .

سادسًا: تظهر مدى قوة شعر مرتضى الزّبيدي وسهولته وموسيقاه العذبة، وتبين الكثير من خصائصه، وذلك من خلال قصيدته الميمية التي مدح بها شيخ العرب إسماعيل، وكذا من خلال أشعاره الأُخْرى الواردة في ثنايا رسالته .

سابعًا: تكشف النّقاب عن اللُّغة السّائدة آنذاك، وكيفية توظيفها في التّأليف الأدبي، وتبرز ثقافة أهل العصر.

مخطوطات رسالة القَمَاعِيْل :

يوجد من رسالة القماعيل نسختين: الأولى محفوظة بمكتبة الأزهر الشّريف، والثانية محفوظة بدار الكتب المصرية.

أولاً : نسخة مكتبة الأزهر الشّريف :

وهي النُسخة التي اعتمدتُ عليها في إخراجِ هذه النشرة، وتقع تحت رقم خاص ٥٦٧ أدب، ورقم عام ٧١٦٢ مكتبة أباظة.

وتقع في ٩ ورقات، ومسطرتها ٢١سطرًا ماعدا الجانب الأيمن من الورقة الأخيرة، ومسطرتها ١٠ أسطر. وطولها ٢٣,٥ سم، وعرضها ١٥سم . كُتب العنوان الرئيس بالأسود ، والعناوين الفرعية بالأحمر . وكتب المتن بالأسود والأحمر.

وخطها نسخي، وبها أكل أرَضَة. وبها نظام التّعقيبة. وهي نسخة جيدة واضحة المتن، غير مشكولة سهّل النّاسخ الهمزة في كثير من الأحيان.

وهي من وقف من ورثة سليمان باشا أباظة على الجامع الأزهر. ولا يعرف اسم ناسخها، ولكنها نسخت في حياة مؤلفها محمد مرتضى الزّبيدي عام ١١٨٤ هـ.

وجاء على لوحة الغلاف: «هذه رسالة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل . تأليف الإمام العالم العلامة البحر الفهامة السيد محمد مرتضى الزّبيدي - نفعنا الله بعلومه آمين - والحمد لله على كلّ حالِ آمين».

القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل

أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وَبِهِ ثِقَتِي، حَمْدًا لِمَنْ أَطْلَعَ شُمُوسَ اللَّطَائِفِ مُشْرِقَةً في سَمَاءِ الآدَابِ، وأَوْدَعَ رَقَائِقَهَا في كنوز ...».

وآخرها: «وَسَمَتْ – وقَدْ عزَّتْ - بتَارِيخٍ زُهِي لِمَقَامَةٍ أَبْدَتْ بَدَائعَ مَدْحه، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّد، وعَلَى آله وصَحْبِهِ وسلم آمين»١١٨٤هـ .

ثانيا : نُسخةُ دار الكتب المصرية:

وهي نسخة محفوظة تحت رقم ٦١٦ أدب تيمور، وتقع في ٩ ورقات ، ومسطرتها ١٩ سطرًا، ماعدا الجانب الأيمن من الورقة الأولى. فإنها تبدأ من الثُّلث الثَّاني من الجانب الأيمن. وبها نظام التَّعقيبة. جاء على لوحة غلافها: «هذه رسالة تحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل. تأليف العَالم العَلامة البَحْر الفَهَّامة أبي الفيض السَّيد محمَّد الشَّهير بمرتضى الحسيني الزَّبيدي».

وناسخ هذه النُّسخة هو: محمود صدقي النَّسَّاخ بدار الكُتب السُّلطانية.

وتاريخ نسخها هو يوم الاثنين ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ميلادية، الموافق محرم ١٣٣٦هجرية.

وهي منقولة من نسخة مكتبة الأزهر الشريف، المحفوظة تحت رقم خاص ٥٦٧ أدب، ورقم عام ٧١٦٢ مكتبة أباظة. ومقابلة عليها في يوم الاثنين ٣ ربيع الأول سنة ١٣٣٦ميلادية.

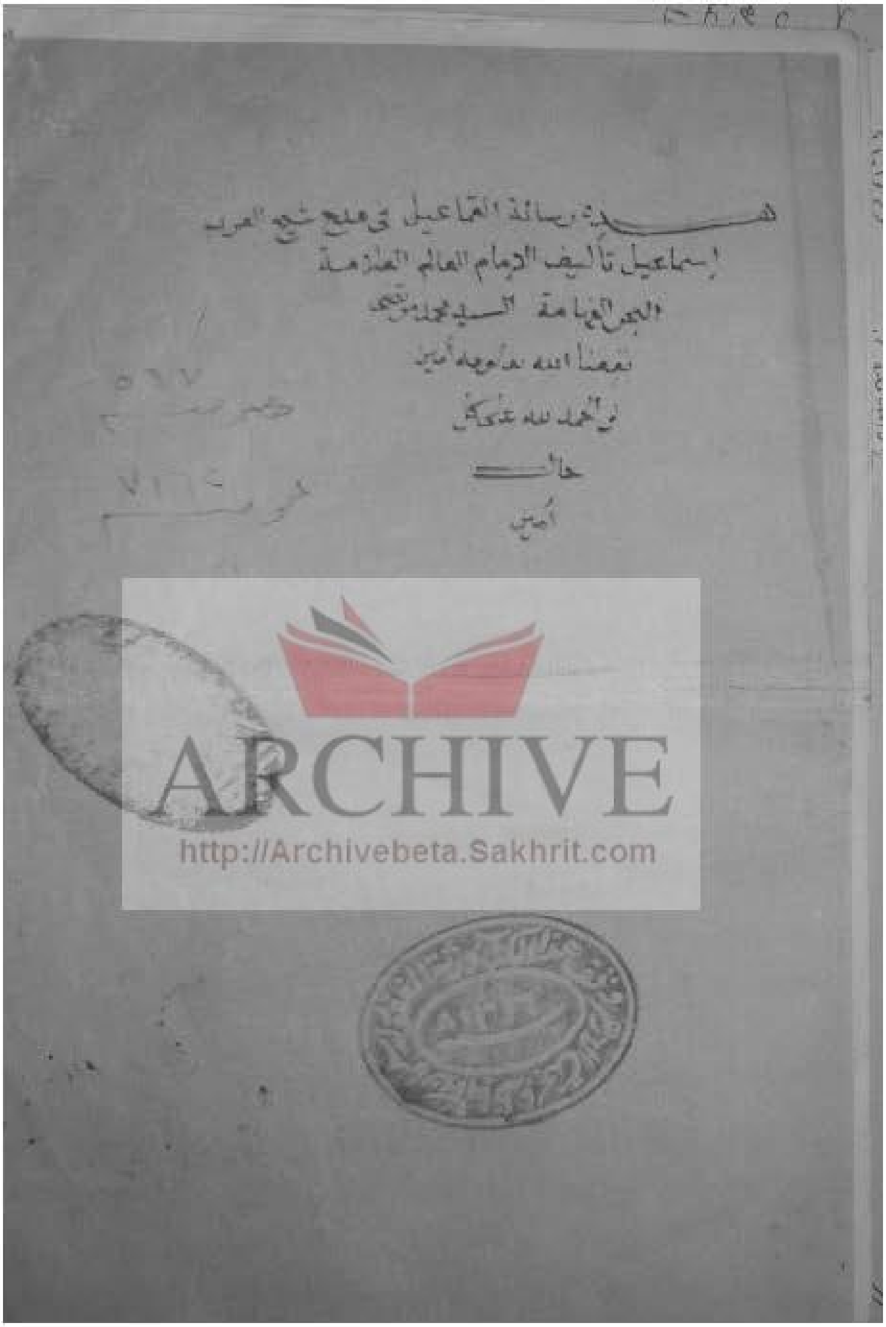
ولم أعتمد هذه النسخة في التحقيق؛ لكونها نقلت وقوبلت من الأصل الموجود بمكتبة الأزهر الشَّريف.

مَنْهجي في التَّحقيق

قمتُ بتحقيق النَّص وضَبْطِه وتفْسِير الغَريب من ألفاظِه بِالرُّجُوع إلى مَعَاجم اللُّغة، وترجمتُ للأعلام الواردة بالنَّصّ، وعَزوت الأشْعَار المضمَّنَة إلى قائليها، وعرَّفت بالأماكن والبُلدان والقَبَائل وأسْمَاء الحَيوان الوارِدَة، ووثَّقتُ الأحاديث النَّبوية من مصَادِرها.

ووضعت بعض الزيات بين معكوفتين [ ]، وذيلت العمل بكشَّاف للأشعار ، والأعلام، والأماكن والبلدان، والحديث النَّبوي الشَّريف، والقبائل، وأنواع الحيوان.

وفي النِّهايةِ أرْجُو أنْ يكونَ عَمَلي هذا خدمة للعربيةِ وأهلها وتُراثها المجِيد، واللهُ المستَعان.



هذه رسالة القماعيل في مدح شيخ العرب
إسماعيل تأليف الإمام العالم العلامة
البحر الفهامة السيد محمد مرتضى
نفعنا الله به وبعلومه آمين
والحمد لله على كل حال
آمين

لوحة رقم ١

صفحة عنوان رسالة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل. مخطوط مكتبة الأزهر الشريف



لوحة رقم ٢

الورقة الأولى من رسالة القماعيل . مخطوط مكتبة الأزهر الشريف


وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله
وصحبه
وسلم
آمين
آمين
آمين

لوحة رقم ٣

الورقة الأخيرة من رسالة القماعيل. مخطوط مكتبة الأزهر الشريف

هَذِهِ رِسَالَةُ القَمَاعِيلِ فِي مَدْحِ شَيْخِ العَرَبِ إِسْمَاعِيل

تَأْلِيفُ الإمامِ العَالِمِ العَلَّامَةِ البَحْرِ الفَهَّامَةِ

السَّيِّد مُحَمَّد مُرْتَضَى

نَفَعَنَا اللهُ بِعُلُومِهِ آمين

والحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي

حَمْدًا لِمَنْ أَطْلَعَ شُمُوسَ اللَّطَائِفِ مُشْرِقَةً فِي سَمَاءِ الآدَابِ، وأَوْدَعَ رَقَائِقَهَا في كُنُوزِ أَذْهَانِ الأَذْكِيَاءِ الأَنْجَابِ، وطَبَعَ فِي مِرْآةِ قُلُوبِهِم الدَّرَّاكَةِ صُوَرَ حَقَائِقِهَا، وأَبْرَزَهَا في نُفُوسِهِم النَّاطِقَةِ، إلَى مَنَاهِلِ أَلْسِنَتِهِم الفَائِقَةِ، تَخْتَالُ[1] في حُلَلِ دَقَائِقِهَا تَحُثُّهَا مَلائِكَةُ الثَّنَاءِ والمَدْحِ المُسْتَطَابِ إِلَى مَنْ حَلَّاهُ بِأَحَبِّ الصِّفَاتِ العَلِيَّةِ بَيْنَ ذَوِي الأَحْسَابِ.

وصَلاةً وسَلامًا عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَفْوَةِ العِبَادِ وزَيْنِ العُبَّادِ، القَائِلِ: «**اطْلُبُوا الحَوَائِجَ عِنْدَ حِسَانِ الوُجُوهِ**»[2]. في حَدِيثٍ صَحِيحِ الإسْنَادِ، وعَلَى آلِهِ الأَمْجَادِ، وأَصْحَابِ الأَنْجَادِ، مَا لَبَّى الكَرِيمُ دَعْوَةَ الوُفُودِ والقُصَّادِ[3]. وأَتْحَفَهُم بِبُلُوغِ المُنَى، وحُصُولِ المُرَادِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فالأَدَبُ أَشْهَى مَشْرَبٍ بِهِ القَلْبُ يَرْتَاحُ، وأَسْنَى بِضَاعَةٍ تُشْتَرَى بالأَنْفُسِ والأَرْوَاحِ، وأَشْرَفُ حِلْيَةٍ تَتَحَلَّى بِهَا البَلاغَةُ، وأَثْمَنُ دُرَّةٍ تُفْرَغُ في قَلْبِ الصِّيَاغَةِ، لَكِنَّهُ لِكَسَادِ[4] سُوقِ أَرْبَابِهِ قَلَّ أَنْ يَجِدَ طَارِقًا لِبَابِهِ.

ولاشْتِغَالِ النُّفُوسِ بِحُظُوظِهَا عَنِ اكْتِسَابِ المَحَامِدِ، لَمْ يَكَدْ يَظْفَرُ مِنَ الزَّمَانِ بِمَاجِدٍ مُسَاعِدٍ. ولَمْ يَزَلْ

---

(١) تختال: أي تتبختر.

(٢) أخرجه بن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج، باب أطلبوا الحوائج إلى حسان الوجوه، ص٥٠ (حديث رقم ٥٢) من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما، تحقيق ودراسة: محمد عبد القادر. وأحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م.

(٣) القُصَّاد: هم أهل السؤال والحاجة.

(٤) الكَسَادُ: خلاف النَّفاق ونقيضُهُ، والفعل: يَكْسُدُ، وسوق كاسدة: بائرة. انظر الأزهري: تهذيب اللغة ١٠: ٤٥، تحقيق: علي حسن هلالي – ومراجعة محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، د.ت؛ ابن منظور: لسان العرب ٢: ٢٨٠، دار صادر، بيروت، ط١، د.ت.

مُخْتَفِيًا في الصُّدُورِ، كَامِنًا في خَبَاهَا[1] كُمونَ نَفْثَةِ المَصْدُورِ، إلَى أنِ افْتَرَّ[2] ثَغْرُ الزَّمَانِ عَجَبًا، واهْتَزَّ عِطْفُ المَعَالي طَرَبًا، وأَجْرَتْ أمْوَاجُ المَواهِبِ مِنْ تَيَّارِهَا سُحُبًا، واتَّخَذَ الأمَلُ سَبِيلَهُ فِي بِحَارِهَا سَرَبًا، ورنَّحَتْ نَسَمَاتُ النَّدَى مَعَاطِفَ العُفَاةِ، وتَنَاثَرتْ فَرَائِدُ المَدْحِ والثَّنَاءِ مِنْ عَقَائِقِ[3] الشِّفَاهِ، وغَدَا وَجْهُ السُّعُودِ مُتَهَلِّلاً بَعْدَ عُبُوسِهِ، وتَزَيَّنَتْ سَمَاءُ الدُّنْيَا بِأَهِلَّةِ الكِرَامِ وشُمُوسِهِ، حِينَ ظَهَرَ بِطَالِعِ المَجْدِ الأسْعَدِ، أوْحَدُ الزَّمَانِ وعَلَمُهُ المُفْرَدُ، الَّذي فَاحَتْ رِيَاضُ مَجَالِسِهِ بِنَشْرِ سِيَادَتِهِ، وذَلَّتْ أُسُودُ الدَّهْرِ خَاضِعَةً لإمَارَتِهِ، وافْتَخَرَتْ بِهِ الدُّنْيَا ودَانَ[4] لَهُ الدَّهْرُ، ونَادَى لِسَانُ عِزِّهِ أنَا سَيِّدُ أَبْنَاءِ جِنْسِي ولا فَخْرَ، وأَبْنَاءُ مَنْ عَلاهُ لِسَانُ سَعْدِهِ، وأحَاطَ بِمَرْكَزِ سَبْقِهِ خُطُوطُ مَجْدِهِ، وأَهْدَاهُ الأُنْسُ والسُّرُورُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابٍ، وحَازَ قَصَبَ السَّبْقِ[5] الأتَمَّ فِي مِضْمَارِ الآدَابِ وتَجَارَى إلَى جُلَّتِهِ المَنَاقِبُ، فَبَلَغَ أَقْصَاهَا، وارْتَقَى إلَى ذُرْوَةِ المَفَاخِرِ حتَّى تَسَنَّمَ أعْلاهَا[6].

مَاجِدٌ شَدَّتِ الجَوْزَاءُ[7] لِخِدْمَتِهِ مَنَاطِقَهَا، وَمَدَّتِ العَلْيَاءُ عَلَى هَامَتِهِ سُرَادِقَهَا، جَوَادٌ أزْرَى بِالغَمَامِ قَطْرُ نَوَالِهِ، رَئِيسٌ خَضَعَتِ الرُّؤَسَاءُ هَيْبَةً لِجَلالِهِ، حَلِيمٌ اسْتَرَقَتْ نَسَمَاتُ الصَّبَا اللُّطْفَ مِنْ طِبَاعِهِ، كَرِيمٌ تَقِفُ السَّحَائِبُ دُونَ أدْنَى اصْطِنَاعِهِ: [الخفيف]

لَوْ دَرَى الدَّهْرُ أنَّهُ مِنْ بَنِيهِ ... لازْدَرَى[8] فَلْزَ سَائِرِ الأَوْلادِ

أيُّهَا الآمِلُونَ حُثُّوا سَرِيعًا ... لِرَفِيعِ العِمَادِ وَارِي الزِّنَادِ[9]

---

(١) خباها: من الفعل خبأ، وهو يدل على المنع وستر الشيء، انظر ابن فارس: مقاييس اللغة ٢ : ٢٤٤، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٩م.

(٢) افْتَرَّ: أي ضَحِكَ ضَحِكاً حَسَناً، انظر الفيروز آبادي: القاموس المحيط ٢ : ١٠٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م.

(٣) عقائق: مفرد عقيقة، والعقيقة : خَرَزٌ أحْمَر تُتَّخذُ منه الفُصوصُ... وعقائق الشّفاه: كناية عن حمرة الشفاه وتلألئها، انظر الزَّبيدي: تاج العروس ٢٦ : ١٦٧ .

(٤) دان له الدهر: أي انقاد وطَاعَ وخضعَ له الدهر، وهو نوعٌ من الذُّلِّ، انظر ابن فارس : مقاييس اللغة ٢ : ٢١٩ .

(٥) حاز قصب السبق: أي أصبح سابقًا إليها ومنفردًا بها ولم يكن له لاحق، انظر الفيومي: المصباح المنير ١ : ٢٦٠، طبعة الأميرية، القاهرة، ط٥، سنة ١٩٢٢م.

(٦) تسنم أعلاها: يعني علا شأنه وارتقع.

(٧) الجوزاء: نجم في السماء .

(٨) الازدراء: الِاسْتِخْفَافُ افْتِعَالٌ مِنَ الزِّرَايَةِ، وَيُقَالُ: أَزْرَى بِهِ وَازْدَرَاهُ إذَا احْتَقَرَهُ، انظر المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب ١: ٣٦٢.

(٩) واري الزِّنَاد: أي كريم.

فَهُوَ إِنْ جَادَ ضَنَّ حَاتِمُ طَيٍّ[1] وَهُوَ إِنْ قَالَ قَلَّ قُسُّ إِيَادِ[2]

وإذا مَا ارْتَأَى فَأَيْنَ زِيَادُ[3] مِنْ عُلاهُ وأَيْنَ آلُ زِيَادِ

الصَّدْرُ الأَوْحَدُ السَّبِيل، فَاقِدُ النَّظِيرِ عَادِمُ الأَشْبَاهِ، الأَجَلُّ المُحْتَرَمُ شَيْخُ العَرَبِ إسماعيل أبو عبد الله[4]، لا زَالَ سَعْدُهُ قَائِمًا عَلَى طُولِ المَدَى، ولا بَرِحَتْ آرَاؤُهُ مُسَدَّدَةً بِالتَّوْفِيقِ والهُدَى آمِينَ؛ فإنَّهُ عَيْنُ المَكَارِمِ وقُرَّتُهَا، وضِيَاءُ جَبْهَةِ المَعَالِي وغُرَّتُهَا. التَّالِي لِسَانُ حَالِهِ لِمَنْ يُبَاهِي أَوْ يُنَاضِلُ: تَأَخَّرْ؛ فَأَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ المُتَنَاوِلِ. وحِينَ رَأَيْتُ أَلْسِنَةَ الأَكْوَانِ بِمَدْحِهِ نَاطِقَةً، وفُرْسَانَ البَلاغَةِ إِلَى مَيَادِينِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مُتَسَابِقَةً. أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْدَرِجَ فِي رَهْطِهِم[5]، وأَنْتَظِم في سِمْطِهِمْ مُتَطَفِّلاً عَلَى ذَلِكَ الجَنَابِ الأَسْمَى بِمَقَامَةٍ عَرَبِيَّةٍ وقَصِيدَةٍ مِيمِيَّةٍ، لِسَانِ جُودِهِ آمِلاً مُصَرِّحًا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ بِخُلُوصِ نَسَبِهِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ مُتْبِعًا بَعْدَهُ إِثْبَاتَ السِّبْطِيَّةِ[6] لَهُ مِن سَيِّدِنَا الحسن والحسين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وعَنَّا بِهِمَا آمِين.

---

(١) كذا بالتخفيف للوزن. وحاتم طيْئ هو الشاعر المتوفى عام (٤٦ ق هـ/ ٥٧٨م) وكان فارسًا، جوادًا، جاهليًا، يضرب المثل بجوده، وشعره كثير، ضاع معظمه، وبقي منه ديوان صغير طبع. انظر حاتم الطائي: ديوانه ٢، شرح وتقديم: أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٦م؛ الزركلي: الأعلام ٢ : ١٥١.

(٢) هو قس بن ساعدة بن عمرو بن إياد، خطيب العرب، وشاعرها، وحليمها، وحكيمها في عصره، وأدركه رسول الله ﷺ قبل النبوة ورآه بعكاظ فكان يأثر عنه كلامًا سمعه منه، وسئل عنه، فقال: يحشر أمة وحده. انظر أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٥ : ٢٢٦، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، د.ت؛ المفضل الضبي: أمثال العرب، تقديم وتعليق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م ١١٢؛ الجاحظ: البيان والتبيين ١ : ٣٠٨، ٣٠٩، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، سنة ١٩٩٨م.

(٣) هو زياد بن أبيه المتوفى عام ٥٣هـ : أمير ووالٍ من كبار القادة الفاتحين من أهل الطائف، وخطيب من خطباء العرب المفوهين، قال الشعبي: ما رأيت أحدًا أخطبَ من زياد. انظر أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال ١ : ٢٥١، تحقيق: عبد المنعم عامر، ومراجعة: جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت؛ ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٢٥٤، ٢٥٧، تصحيح: عادل مرشد، دار الأعلام، عمان، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٢م؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٢ : ٦٤٠، تحقيق وتعليق: محمد نعيم بن علم خان، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، سنة ١٤١٩هـ؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى ٩: ٩٨ – ٩٩، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م.

(٤) هو الشخصية التي نالت تقدير الزَّبيدي وحبه؛ فألف فيها هذه الرسالة موضوع التحقيق والدراسة، وهناك الكثير من الأحداث التي يرد فيها ذكر شيخ العرب إسْمَاعِيل أبي عَبْد الله، عند الجبرتي في «تاريخه». انظر بعض هذه الأحداث ١ : ٥٢٧، ٢ : ٧٢، ٧٣، ٢٠٢.

(٥) الرَّهْطُ: العِصابة من ثلاثة إلى عشرة، قال الخليل: ما دون السَّبعة إلى الثلاثة نفرٌ، وتخفيف الرَّهط أحسن من تثقيله. انظر ابن فارس: مقاييس اللغة ٢ : ٤٥٠.

(٦) السِّبْطُ: ولد الولد، والجمع : أَسْبَاطٌ.

[المقامة]

فَقُلْتُ: حَدَّثَنَا مَيْسَرَةُ بْنُ غَالِبٍ عَنْ أَبِي الْمِقْدَامِ ظَفَرِ بْنِ أَبِي الْفُتُوحِ [1]، **قَالَ:** خَرَجْتُ مُمْتَرِيًا[2] إِلَى الصَّعِيدِ، وأَنَا فِي ظِلٍّ مِن النِّعْمَةِ مَدِيدٍ، مُتَعَسِّفًا ذَاتَ الْيَسَارِ، مُعْتَمِلاً شَدَّ الأَوْكَارِ[3]؛ فَسَرَتْ سَحَابَةَ يَوْمِي أَخْتَبِطُ وَرَقَ النَّهَارِ بِعَصَى التَّسْيَارِ، وَأَجُوبُ الْمَهَامِهَ[4] والْقِفَارَ؛ فَأَفْضَيْتُ إِلَى بَيْدَاءَ دَاوِيَةٍ، فِي لَيْلَةٍ طَخْيَاءَ[5] غُدَافِيَّةٍ[6] يَضِلُّ بِهَا الْغَطَاطُ[7] ولا يُبْصِرُ بِهَا الْوَطْوَاطُ[8] كَأَنَّنِي لَبِسْتُ مِن الْمَوَاهِقِ[9] إِهَابًا، وَادَّرَعْتُ مِن اللَّيْلِ جِلْبَابًا، وَلا سَانِحَ[10] إِلاَّ السَّبُعُ، ولا بَارِحَ إِلاَّ الضَّبُعُ، فَبَيْنَمَا أَخُوضُ بَطْنَ اللَّيْلِ بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ، إِذْ عَصَفَتْ رِيحٌ شَدِيدَةُ الإِسْهَابِ، أَطْبَقَتْ بِهَا الظَّلْمَاءُ ودَنَا السَّحَابُ. فَبَقِيتُ يَا أَخَا الْعَرَبِ. لا أَسْمَعُ لِوَاطِئٍ هَمْسًا، ولا لِنَابِحٍ جَرْسًا، قَدْ تَكَأْكَأَتْ[11] تُخُومُهَا[12] وَتَوَارَتْ عَنِّي نُجُومُهَا فَمَا أَهْتَدِي بِنَجْمٍ طَالِعٍ، وَلا بِعَلَمٍ لامِعٍ أَقْطَعُ مَحَجَّةً[13] بَعْدَ مَحَجَّةٍ، وأَهْبِطُ لُجَّةً بَعْدَ لُجَّةٍ فِي دَيْمُومَةٍ قَفْرٍ مُجْحِفَةٍ[14] بِالسَّفْرِ الرِّيحُ تَخْطَفُنِي، وَالسُّيُولُ تَخْبِطُنِي، كَأَنَّهُ واللهِ مِنْ تَكَاثُفِ الْغَبَشِ[15] مَوْكِبُ الْحَبَشِ، وَافِي الذَّوَائِبِ طَامِي الْغَوَارِبِ[16] فِي رَعْدٍ قَاصِفٍ، وبَرْقٍ خَاطِفٍ قَدْ أَوْحَشَتْنِي آكَامُهَا[17]، وقَطَعَتْنِي سِلامُهَا. فَبَيْنَا أَنَا كَذَلِكَ، وقَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ مَفَارِجِي، وسُدَّتْ مَخَارِجِي. كَأَنِّي لِلظَّلامِ نَقِيبٌ أَوْ عَلَى النُّجُومِ رَقِيبٌ؛ إِذْ بَدَا نَجْمٌ لائِحٌ، وبَيَاضٌ وَاضِحٌ. وأَعْرَضَ الظَّلامُ وتَوَلَّى وَعُنْقُودُ الثُّرَيَّا تَدَلَّى، وَخَلَعَ اللَّيْلُ ثِيَابَهُ، وحَدَرَ الصُّبْحُ نِقَابَهُ، وأَشْرَقْتُ خِلالَ الْجَوِّ؛ فَإِذَا أَنَا بِطَرَفِ الدَّوِّ، وقَدْ

---

(١) جرى العرف في تأليف المقامات أن يقوم مؤلفوها باتخاذ راوية لها يتحدثون باسمه، وقد اتّخذ مرتضى الزَّبيدي راويه ميسرة ابن غالب. وكان من المألوف أن يتخذوا بطلاً لمقاماتهم، فاتخذ من أبي المِقْدَام ظَفَر بن أبي الفُتُوح بطلاً لمقامته.

(٢) ممتريًا: أي شاكًا في أمري. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٥ : ٢٧٥.

(٣) الوَكْرُ: عُشُّ الطَّائِر. انظر الزَّبيدي: تاج العروس ١٤ : ٢٨٢.

(٤) المهامه: المفازة البعيدة.

(٥) ليلة طخياء: شديدة الظلمة. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٥ : ٥.

(٦) غدافية: أي مظلمة.

(٧) الغطاطُ: طَيْرٌ أمثالُ القَطَا، ويقال: الغَطَّاط. انظر الفراهيدي: العين ٤ : ٣٤٢. تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السّامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

(٨) الوَطْواطُ: الخفّاشُ. انظر ابن منظور: لسان العرب ٧ : ٤٢٢.

(٩) الموهق: لونٌ كلون السماء مُشْرَبٌ سوادًا. انظر الأزهري: تهذيب اللغة ١ : ١٢٤.

(١٠) السّانح: ما أتاكَ عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك. انظر ابن منظور: لسان العرب ٢ : ٤٩٠.

(١١) تَكَأْكَأَ: أي جَبُنَ وضَعُفَ ونَكَصَ، مثل: تَكَعْكَعَ. والمتكأكئ: القصير. والتكأكؤ: التجمُّع.

(١٢) تخومها: حدودها.

(١٣) المحجّة: الطريق الواضح البيّن.

(١٤) المُجْحِفَةُ: التي تُجْحِفُ بالقَوْمِ قَتْلاً وإفساداً لِلأَمْوالِ. انظر الزبيدي: تاج العروس ١٢ : ٢٩.

(١٥) الغَبَشُ: شدة الظلمة. انظر الفراهيدي: العين ٤ : ٣٦١.

(١٦) الغَوارِبُ: جمع غارب، وهي أعلى كلّ شيء. انظر الفيومي: المصباح المنير ٢ : ٤٤٤.

(١٧) الآكام: جمع أكم، وهي تجمُّعُ الشيء وارتفاعُه قليلاً. انظر ابن فارس: مقاييس اللغة ١ : ١٢٥.

كَانَتْ الْمَهْرِيَّةُ الَّتِي امْتَطَيْتُهَا، والْمَطِيَّةُ الَّتِي انْتَقَيْتُهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[1]:

فَبِتْنَا عَلَى حَرْفٍ كَأَنَّ بُغَامَهَا[2] ... وَقَامَتْ تَصَدَّى فِي الْعِقَالِ فَوَاجَهَتْ

فَمَا قُمْتُ حَتَّى رَاعَنِي ثُؤَبَاؤُهَا ... أَجِيجُ ابْنِ مَاءٍ فِي يَرَاعٍ مُفَجَّرِ[3]

مِنَ الصُّبْحِ وَرْدًا كَالرِّدَاءِ الْمُحَبَّرِ ... وَصَوْتُ مُنَادٍ بِالصَّلاةِ مُبَكِّرِ[4]

وافْتَرَعْتُ عُذْرَةَ النَّهَارِ قَبْلَ ذُرُورِ الشَّمْسِ عَلَى الدِّمَنِ والآثَارِ، واسْتَبَقْتُ انْتِشَارَ الضَّوْءِ فِي الجَوِّ مُلِحًّا عَلَى التَّسْيَارِ، أَبِيتُ فِيهِ إِجْمَامًا لِلرَّوَاحِلِ، وتَعْرِيجًا عَلَى الْمَنَازِلِ، ووُقُوفًا عَلَى الْمَنَاهِلِ، إِلَى أَنْ وَرَدْتُ أَبْرَقَ الخَرْجَا، وَهَضَبَاتِ تَنَاوُحِ جِرْجَا، فَأَنَخْتُ بِهَا فُوَاقًا كَلَّا وَلَا، رَيْثَمَا نَضَوْتُ عَنِّي كِلَالَ الفَلَا، وعَاطَيْتُ مِن القِدَاحِ مَثْنَى وَثُلَا، ثُمَّ ارْتَحَلْتُ فِي ثُرَيْقَةٍ مَسْجُورَةٍ[5]، وظَهِيرَةٍ هَاجِرَتُهَا مَسْعُورَةٌ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ[6]:

[الطويل]

وَيَوْمٍ مِنَ الشِّعْرَى[7] يَذُوبُ لُعَابُهُ[8] ... أَفَاعِيهِ[9] فِي رَمْضَائِهِ[10] تَتَمَلْمَلُ[11]

---

(١) هو عُتَيبةُ بن مِرداس: من بني كعب بن عمرو بن تميم: شاعر هجاء مقل، من مخضرمي الدولتين، أدرك الجاهلية والإسلام، وشهد حنينا مع المشركين، وأسلم بعدها. انظر في ترجمته ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١: ٢٦٩، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨٢م؛ وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني٢٢: ٢٢٨؛ والصفدي: الوافي بالوفيات ١٩: ٢٩٤، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٠م.

(٢) البغام: صوت تختلسهُ ولا تُتمُّه. انظر الأخفش الأصغر: الاختيارين ٢٧٧، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٤م.

(٣) ابن ماء: كُركيّ. وإنما أراد رقّة صوتها، وذاك أعتق لها. واليراعة: الأَجَمَةُ كلُّها. فأراد أنّ صوتها كصوت كُركيّ في أجمة. المفجر: الماء الجاري. انظر الأخفش الأصغر: الاختيارين ٢٧٧.

(٤) الأبيات الشعرية الثلاثة موجودة عند الأخفش الأصغر: الاختيارين ٢٧٧ براوية:

فَبَاتَتْ عَلَى خَوْفٍ كَأَنَّ بُغَامَهَا ... أَجِيجُ ابنِ مَاءٍ فِي يَرَاعٍ مُفَجَّرِ

فَقَامَتْ تَصَدَّى فِي العِقَالِ فَوَاجَهَتْ ... مِنَ الصُّبْحِ وَرْدًا كَالرِّدَاءِ المُحَبَّرِ

فَمَا قُمْتُ حَتَّى رَاعَنِي ثُؤَبَاؤُهَا ... وَصَوْتُ مُنَادٍ بِالصَّلاةِ مُكَبِّرِ

(٥) مسجورة: أي مملوءة.

(٦) هو الشنفري: عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان. شاعر جاهلي، يماني، من فحول الطبقة الثانية. كان من فتاك العرب وعدائيهم، وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم. انظر في ترجمته أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٠: ١٨٥؛ عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب ٢: ٢٤٢- ٢٤٥؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٢: ٥٨٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٣م؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ١: ١٠٥- ١٠٧.

(٧) يوم من الشعري: أي يوم من الحرِّ الشديد. انظر الشنفري: ديوانه ٧١.

(٨) اللعاب: المقصود به ما ينتشر في الحر كخيوط العنكبوت في الفضاء، وإنّما يكون ذلك حين يكون الحر مصحوبًا بالرطوبة. انظر الشنفرى: ديوانه ٧١، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.

(٩) الأفاعي: هي الحيّات.

(١٠) الرمضاء شدة الحرّ. انظر الشنفرى: ديوانه ٧١.

(١١) البيت للشنفرى، وموجود في ديوانه ٧١.

يَا أَخَا الْعَرَبِ وَلَوْ رَأَيْتَنَا وقد: [الوافر]

هَبَطْنَا مِنْ هُنَالِكَ بَطْنَ غَيْبٍ ... تَظَلُّ حَمَامُهُ مِثْلَ الْخُصُومِ

كَأَنَّ غَرِينَ أَيْكَتِهِ تَلاقَى ... بِهَا جَمْعَانِ مِنْ نَبَطٍ وروم[1]

نُبَاحُ الْهُدْهُدِ الْحَوْلِيِّ فِيهَا ... كَنَبْحِ الذِّئْبِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ

تَرَى جُثَثَ الْمَطِيِّ بِجَانِبَيْهَا ... كَأَنَّ عِظَامَهَا نَبْتُ الْهَشِيمِ

[الوافر]

إِذَا رَأَيْتَ، وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ، رَكْبًا كَأَمْثَالِ الأَسِنَّةِ رُكْبَانًا. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

[الطويل]

خَبَطْنَ الْفَلا حَتَّى رَكَمْنَ أُنُوفَهُ ... لِصَوْتِ الْحَصَا مِنْ وَقْعِهِنَّ تَنَاوُحُ

[الطويل]

خَبَطْنَ الْفَلا حَتَّى رَكَمْنَ أُنُوفَهُ ... لِصَوْتِ الْحَصَا مِنْ وَقْعِهِنَّ تَنَاوُحُ

فَمَا زِلْتُ أُكَابِدُ أَهْوَالَ السَّيْرِ عَلَى تَفْرَةٍ[2] حَتَّى أَصْعَتْتُ إِلَى فَضَاءٍ فَضْفَاضٍ فِي مَقَاطٍ. فَوَجَدْتُ بِهَا صِلالاً مِنَ الرَّبِيعِ فِي رِيضَةِ الْحَرَّةِ، مِنْ صِلِّيَانٍ[3] وَقَرْمَلٍ[4] وَحَمِيضَةٍ[5] وَوَجَدْتُ الصَّفْرَاءَ وَالْخُزَامَى[6] يَضْرِبَانِ نُحُورَ الإِبِلِ الْهَيَامَى تَحْتَهُمَا قَفْعَاءُ[7] وَحُرْبُثٌ[8] وَزِجْرِجٌ[9] وَتَنْضُبٌ وَتَرَكْتُ الْحَوْذَانَ[10] بَاقِعَةً فِي الأَجَارِعِ، وَالسُّطَّاحَ مُسْتَلْقِيَةً فِي الْمَشَارِعِ، وَرَأَيْتُ فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مَاءً عَلَلاً يَسِيلُ سَيْلاً وَأَغْصَانَ تَمِيلُ مَيْلاً، يَحْسَبُهَا

---

(١) في الأصل: وردم.

(٢) التفرة: الدائرة التي تحت الأنف في وَسَط الشَّفَةِ العُلْيا. قال أبو عبيد: التَّفرةُ من الإنسان، وهي من البعير الثُّنو. انظر ابن فارس: مقاييس اللغة ١: ٣٥٠.

(٣) الصِّلِّيان: شَجَرٌ له جِعْثِنٌ ضخمٌ، رُبَّما جَرِدَ وَسَطه ونَبَت ما حَوالَيْه. وجِعْثِنُه: اجتِماعُ أُصُوله. والصِّلِّيانُ من أفضل المَراعي، وهو خُبْزةُ البعير. انظر الفراهيدي: العين ٧: ٨٥.

(٤) القَرْمَلُ: شجرٌ ضعيفٌ لا شَوْكَ لَهُ. انظر الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٥: ١٨٠١". تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. دار العلم للملايين. بيروت. ط٢. سنة ١٩٧٩م.

(٥) الحَمْضُ من النبات: كل نبت مالح أو حامض يقوم على ساق ولا أصل له. وقال اللِّحياني: كل ملح أو حامض من الشجر كانت ورقته حية إذا غمزتها انفقأت بماء ... وإبل حَمْضِيَّةٌ وحَمَضِيَّةٌ: مقيمة في الحَمْضِ. الأخيرة على غير قياس ... وحميضةٌ: من أرضين حُمُضٍ: كثيرة الحَمْضِ. انظر ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم ١: ٤٥٨.

(٦) الخُزامى: خِيريُّ البَرِّ. انظر الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٥: ١٩١٠.

(٧) القَفْعاء: حَشيشةٌ خَوّارة خَشْناءُ الوَرَق من نبات الرَّبيعِ لها نَوْرٌ أحمرُ مثل الشَّرارِ، صِغارٌ وَرَقُها مُسْتَعْلياتٌ من فوق وثَمَرَتُها مُتَقَفِّعَةٌ من تحت. انظر الفراهيدي: العين ١: ١٧٥.

(٨) الحرثب: من النَّباتات الخشنة الأوراق.

(٩) الزِّجرِجَةُ: بالكسر بقيّة الماء في الحوض الكدرة المختلطةُ بالطين؛ والثَّريدة المُلَبَّقة. والزِّجْرِجُ أيضاً: نبتٌ.

(١٠) الحَوذانُ: نبتٌ نَوْرُهُ أصفرُ.

الرَّائِدُ لَيْلاً، ورَأَيْتُ هُنَاكَ عَجَبًا، رأَيْتُ بِرَابِيَةِ الْكُلُوحِ[1]، عَنْ أَيْمَنِ ذَاتِ السُّفُوحِ، عَطَّارًا عَارَضَنَا مِنَ الْبُطْنَانِ، يسَاوِمُنَا بِنَوَافِجِ[2] المِسكِ وَالأَدْهَانِ، فَبَقِيتُ مسْتَعْجِبًا، وقُلْتُ مسْتَغْرِبًا: [الطويل]

عَجِبْتُ مِنَ الْعَطَّارِ جَاءَ يَبِيعُنَا ... بِرَابِيَةِ الأَكْلاحِ دُهْنَ الْبَنَفْسَجِ

أَلا أَيُّهَا الْعَطَّارُ هَلاَّ أَتَيْتَنَا ... بِجُرْزَةِ شِيحٍ أَوْ بِخُوصَةِ[3] عَوْسَجِ[4]

ولَسْتُ بِنَاسٍ وقَدْ عَبَرتُ عَلَى السَّاحِلِ، وهُوَ مَعْمُورٌ آهِلٌ، فَرَأَيْتُ في سَاحَةِ الْحَيِّ فَارِسَيْنِ مُتَطَارِدَيْنِ، مَنْ لَمْ يَرَهُمَا لَمْ يَرَ بَبْرَيْنِ مُتَهَارِشَيْنِ، يَتَمَارَسَانِ وَيَتَجَاوَلانِ، وَلا أَسَدَيْنِ غَضْبَانَيْنِ يَتَعَاوَرَانِ وَيَتَصَاوَلانِ، ولا فِيلَيْنِ سَكْرَانَيْنِ يَتَصَادَمَانِ ويَتَرَاكَلانِ، ولا فَحْلَيْنِ حَامِيَيْنِ يَتَكَادَمَانِ وَيَتَزَاحَمَانِ، ولا نَمِرَيْنِ مُتَهَايِجَيْنِ يَتَوَاثَبَانِ وَيَتَسَاوَرَانِ، ولاَ تِنِّينَيْنِ[5] مُتَكَافِحَيْنِ يَتَلاوَيَانِ وَيَتَنَاهَشَانِ هُنَاكَ. وَاللهِ يَا أَخَا الْعَرَبِ خَشَعَ رَزِّي، وَخَضَعَ عِزِّي. ثُمَّ صِرْتُ إِلَى زَامَةَ فَرَاعَنِي أَمْرٌ مِنَ الْخِصْبِ عجيبًا أشرب رشئة تجرُّها الشُّفتان، وقَارِصًا قُمَارِصًا[6]، يَجْدَعُ أَنْفَ الإِنْسَانِ، ورَأَيْتُ الْكَمْأَةَ[7] تَدَلَّسُهَا الإِبِلُ بِمَنَاسِمِ الإِقْبَالِ، وخُلاصًا يَشُمُّهُ السَّلْهَابُ[8] فَيَعْطَسُ في الْحَالِ. ثُمَّ أَشْرَقْتُ عَلَى الْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ الزَّهْرَا مِنْ سَوْحٍ بِهَا مَهْجُورَةِ الْغَرَّا، فَرَأَيْتُ مَنْظَرًا آنَقَ مِمَّا فَارَقْتُهُ وَمَسَارِحَ أَخْصَبَ مِمَّا وَجَدْتُهُ، رَأَيْتُ مَسَارِحَ قَدْ أَخْلَعَ شِيحُهَا، وَأَبْقَلَ رِمْثُهَا[9] وخَصَبَ عَرْفَجُهَا[10] وَانْشَقَّ نَبْتُهَا، وَاخْضَرَّتْ قُرْيَانُهَا[11]، وَأَخْوَصَتْ بُطْنَانُهَا، وَأَجْلَسَتْ أَكْمَامُهَا، وَاغْتَلَّ نَبْتُ جَرَائِمِهَا، وَأَجْزَتْ بَقْلَتُهَا، وَشُكِرَتْ حَلُوبَتُهَا، وسَمِنَتْ قُتُوبَتُهَا، وحُمِدَ ثَرَاهَا، وعُقِدَتْ تَيَاهِيهَا، يَا أَخَا الْعَرَبِ وَلَوْ حَدَّثْتُكَ بِمَا شَاهَدْتُهُ مِنْ مَحَاسِنِ أَهْلِهَا لَقَضَيْتَ عَجَبًا، وَوَجَدْتَ طَرَبًا، أَحْدَاثٌ قَادَةٌ وشَبَابٌ سَادَةٌ وكُهُولٌ زَادَةٌ، لَهُمُ الْمَجْدُ الشَّامِخُ والْعِزُّ الْبَاذِخُ، والْكَرَمُ الصَّرِيحُ، والْعُنْصُرُ الصَّحِيحُ، بِهَا لِيلُ اسْتحياء غَطَارِفَةٌ أَغْنِيَاءُ، كِرَامٌ أَعِفَّاءُ،

(١) الكُلوحُ: تكشُّرٌ في عبوس.. والكُلاحُ بالضم: السَّنة المُجدبة، انظر ابن منظور: لسان العرب ٢ : ٥٧٤.

(٢) النَّوافِجُ: مؤخَّراتُ الضلوع، الواحدة نافِجَةٌ، وكانت العرب تقول في الجاهلية إذا وُلِدَ لأحدهم بنتٌ: هنيئاً لك النافجة، أي المُعَظِّمَةُ لمالِكَ، لأنك تأخذ مهرها فتضمُّه إلى مالك فيَنْتَفِج، انظر ابن منظور: لسان العرب ٢ : ٣٨١.

(٣) الخُوصُ: ورق النخل، الواحدة خُوصَةٌ.

(٤) العَوسج: ضربٌ من الشَّجر له شوكٌ، انظر ابن دريد: الاشتقاق ٢١٥، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، سنة ١٩٩١م.

(٥) في الأصل: تِنِّين، وأعتقد أنَّ الصواب ما أثبته.

- والتِّنِّينُ: ضرب من الحيات من أعظمها، انظر الأزهري: تهذيب اللغة ١٤ : ٢٥٤.

(٦) القُمارِصُ: الشَّدِيدُ القَرْصِ بِزِيَادَةِ الميم أرادَ اللَّبَنَ الَّذِي يَقْرُصُ اللِّسَانَ من حُمُوضَته، وقال الخَطَّابِيّ: القُمَارِصُ إِتْبَاعٌ وإِشْبَاعٌ أرادَ لَبَناً شَدِيدَ الحُمُوضَة يُقَطِّر بَوْلَ شارِبِه لِشِدَّةِ حُمُوضَتِه، انظر الزَّبيدي: تاج العروس ١٨ : ١٢٦.

(٧) الكَمْأَةُ: نبات ينقض الأرض، فيخرج كما يخرج الفطر، واحدها: كَمْءٌ، والجميع: الكَمْأَةُ، انظر الفراهيدي: العين ٥ : ٤٢٠.

(٨) السَّلْهاب: المرأة الجريئةُ.

(٩) الرِّمْثُ: بالكسر مَرْعًى للإبل من الحَمْضِ وشَجَرٌ يُشْبِهُ الغَضَا، انظر الفيروز أبادي: القاموس المحيط ١ : ١٦٦.

(١٠) العَرْفَجُ: العَرْفَج والعِرْفج نبت، وقيل: هو ضرب من النبات سَهْلِيٌّ سريع الانقياد، واحدته عَرْفَجَة.. وقيل: هو من شجر الصيف، وهو لَيِّن أغبرُ له ثمرة خَشْناء.. وهو طَيِّب الرِّيح أغبرُ إلى الخضرة، وله زَهْرة صفراء، وليس له حب ولا شَوْك، انظر ابن منظور: لسان العرب ٢ : ٣٢٢.

(١١) القَريانُ: مُسْتَجْمَعُ ماءٍ كثيرٍ في شِبْهِ وادٍ صَغِيرٍ.

لَهُمْ الأَخْلاقُ الطَّاهِرَةُ والأَلْبَابُ الحَاضِرَةُ، والوُجُوهُ النَّاضِرَةُ، بِحَارُ النَّيْلِ، وأَحْلاسُ الخَيْلِ، يَحْتَمِلُونَ المَغَارِمَ والأَثْقَالَ، ويُجَدِّلُونَ الكُمَاةَ والأَبْطَالَ، لَهُمْ العِزُّ وَالجَلَدُ، والقُوَّةُ والعَدَدُ، شُمُوسُ البِلادِ، وأَقْمَارُ العِبَادِ، ونُجُومٌ فِي النَّادِ، أَضْرَبُ العَرَبِ بِالسَّيْفِ المُشَطَّبِ[1]، وأَطْعَنُهُمْ بِالرُّمْحِ المُكَعَّبِ، كُهولُهُمْ غُيُوثٌ، وشُبَّانُهُمْ لُيُوثٌ، وَقَائِعُهم مَشْهُورَةٌ، وأَيَّامُهمْ مَأْثُورَةٌ، عَلا مَجْدُهُمْ فَرَجَحَ، وطَالَ عِزُّهُمْ فطَمَحَ، لَهُمْ السُّيوفُ البَوَاتِرُ، والرِّمَاحُ الخَوَاطِرُ، والسِّكَّةُ والعُدَّةُ، والثَّرَاءُ والنَّجْدَةُ، نُجُومُ الأَنْدِيَةِ، وأَفَاعِي الأَوْدِيَةِ، ورَئِيسُهُم المِقْدَامُ صَرِيحُ النَّسَبِ، فَصِيحُ الأَدَبِ، فَسِيحُ الأَرَبِ، نَبْعَةُ أَرُومَتِهِ، وأَبْلَقُ كَتِيبَتِهِ، وَمَدَرَةُ عَشِيرَتِهِ وَنَابُهُمْ الَّذِي عَنْهُ يَفْتَرُّونَ، وَبَابُهُم الَّذِي إِلَيه يَضْطَرُّونَ، كَأَنَّ الفَهْمَ مِنْهُ ذَا أُذُنَيْنِ، وَالجَوَابَ مِنْه ذَا لِسَانَيْنِ، بَعِيدُ مَسَافَةِ الرَّأْيِ يَرْمِي بِهِمَّتِهِ حَيْثُ أَشَارَ الكَرَمُ إِلَيْهِ، لَيْسَ فِي عُودِهِ خَوَارٌ ولا في بَاعِهِ قِصَرٌ، ولا في صَفْوِهِ كَدَرٌ، وَلا فِي خَدِّهِ صَعَرٌ، ولا في صَدْرِهِ وَغَرٌ، ولا في حَدِيثِهِ زُورٌ، تَأْوِيلُهُ مَشْفُوحٌ، وسَائِلُهُ مَمْنُوحٌ، وَجَنَابُهُ رَبِيعٌ، وَجَارُهُ مَنِيعٌ، ألا وَهُوَ: شَيْخُ العَرَبِ العَرْبَاءِ الكِرَامِ أبو المَحَامِدِ مَجْدُ الدِّينِ إسماعيلُ بْنُ عبد الله بْنِ عِيسَى بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ هَمَّامِ ابن سِبِيَةَ الهَوَّارِيُّ الزُّغَيْبِيُّ الحِميريُّ. أَدَامَ اللهُ مَجْدَهُ عَلَى الدَّوامِ، مَا هَطَلَ زُكَامٌ وَشَدا عَلَى أَيْكِهِ الحَمَامُ[2].

وحَيْثُ انْتَهَى بِنَا هُنَا الكَلامُ؛ فَلْنَذْكُرْ طَرَفًا مِنْ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ حَسَبَ مَا أَبْرَزَهُ الإِلْهَامُ؛ **فَأَقُولُ**: أَمَّا **نَسَبُهُ الكَرِيمُ مِنْ جِهَةِ الآبَاءِ وَالجُدُودِ**، أَهْلِ السِّيَادَةِ والسُّعُودِ، **فَإِنَّهُ مُتَّصِلٌ إِلَى هوارة**[3]، كَوَاكِبِ المَجْدِ السَّيَّارَةِ، وَهُمْ - **فِي أَصَحِّ الأَقْوَالِ**، وَأَثْبَتِ النُّقُولِ عَنْ فُحُولِ الرِّجَالِ- مِنْ وَلَدِ زُغَيْبِ بْنِ سَعْدِ بن حِمْيَرِ بْنِ سَبَإِ الأَصْغَرِ، أَهْلِ النَّسَبِ الأَزْهَرِ، والحَسَبِ الصَّرِيحِ الأَفْخَرِ، وَاسْمُ هوَّارة المُثَنَّى، ويُقَالُ أبو المُثَنَّى عَلَى المَشْهُورِ. **وهُوَ**: ابن المِسْوَرِ بْنِ خداع بْنِ أَيْمَنَ بْنِ زُغَيْبِ المَذْكُورِ، وإِنَّمَا لُقِّبَ بِهِ؛ لأَنَّهُ خَرَجَ مِن مصر في طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ فَقَدَهَا، فَذَهَبَ في أَثَرِهَا إِلَى المَغْرِبِ. فلمَّا[4] دَخَلَ أفْرِيقِيَّةَ. قَالَ لِغُلامِهِ: أَيْنَ نَحْنُ؟ قَالَ: تَهَوَّرْنَا. فَغَلَبَ عليهِ هَذا

---

(١) السيف المشَطَّب: الذي فيه طَرَائِقُ وأُحسِنَتْ صَنْعَتُه

(٢) وعن قبيلة هوارة ونسبها ونشأتها وترحالها، والأحداث التي ألمت بها إلى أن نزلت بصعيد مصر، انظر القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ١٢٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٥، ١٧١، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب الإسلامية – ودار الكتاب المصري بالقاهرة – ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط٢، سنة ١٩٨٢م، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٤٤١، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٠م؛ المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ٢٢٢١ – ٧٠ – ٧١، تحقيق ودراسة: عبد المجيد عابدين، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧١م؛ الزَّبيدي: تاج العروس ١٤: ٤٤٨ – ٤٤٩، وللعلم فإنَّ الزَّبيدي ذكر في «التاج» أنه ألف رسالة عن نسب الهوَّارة، وسمَّاها «رَفْع السِّتارَة عن نسب الهوَّارة»، إلَّا أن فهارس المخطوطات لم تذكرها.

(٣) وعن قبيلة هوارة ونسبها ونشأتها وترحالها، والأحداث التي ألمت بها إلى أن نزلت بصعيد مصر، انظر القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ١٢٥، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٥، ١٧١، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب الإسلامية – ودار الكتاب المصري بالقاهرة – ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط٢، سنة ١٩٨٢م، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ٤٤١، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٠م؛ المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ٢٢٢١ – ٧٠ – ٧١، تحقيق ودراسة: عبد المجيد عابدين، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧١م؛ الزَّبيدي: تاج العروس ١٤: ٤٤٨ – ٤٤٩، وللعلم فإنَّ الزَّبيدي ذكر في «التاج» أنه ألف رسالة عن نسب الهوَّارة، وسمَّاها «رَفْع السِّتارَة عن نسب الهوَّارة»، إلَّا أن فهارس المخطوطات لم تذكرها.

(٤) في الأصل: فلا، وأثبت ما في المتن.

اللَّقَبُ لِهَذَا ؛ فَنَزَلَ عَلَى قَوْمٍ مِنْ زَنَاتَه [1]، فَزَوَّجُوهُ الْعَرْجَاء أُمَّ صِنْهَاج وَلَمَط ابْنَي لَمَطِ الأَكْبَرِ.

وَكَانَتْ فِيمَا يُقَالُ: جَمِيلَةً فَكَثُرَ نَسْلُهُ فَهَؤُلاءِ هُمُ الْهَوَّارِيُّونَ كَمَا نَقَلَهُ النَّسَّابُونَ. وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ فِي الأَصْلِ أَرْضَ الْيَمَنِ حَوَالَيْ صَنْعَاءَ وَمَأْرِب [2]. وَكَانَ لَهُمْ بِهَا الْعِزُّ الشَّامِخُ الَّذِي لا يُقْهَرُ وَلا يُغْلَبُ إِلَى أَنْ خَرَجُوا إِلَى أَرْضِ الْمَغْرِبِ فِي حَدِيثٍ سِيَاقُهُ مُرْقِصٌ مُطْرِبٌ. فَغَلَبُوا عَلَيْهَا وَتَزَوَّجُوا فِي قَبَائِلِهَا وَتَنَاسَلُوا فَأَكْثَرُوا وَدَوَّخُوا الْبِلادَ وَقَهَرُوا. فَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ مَا بَيْنَ بَرْقَة [3] إِلَى السَّاقِيَةِ الْحَمْرَا [4] السَّاقِيَةِ لِقُطَّانِهَا لَبَنًا وَخَمْرًا إِلَى أَنْ أَنْزَلَهُم الْمَلِكُ الظَّاهِرُ بَرْقُوقُ [5] أَرْضَ الصَّعِيدِ الْخَضْرَا.

وَذَلِكَ بَعْدَ وَاقِعَةِ بَدْرِ بْنِ سَلَّام [6] كَمَا هُوَ مَسْطُورٌ فِي دَفَاتِرِ الأَعْلامِ. وَهَذَا هُوَ الانْتِقَالُ الثَّالِثُ الَّذِي رَنَّ فِي الْبِلادِ كَمَا رَنَّتِ الْمَثَانِي وَالْمَثَالِثُ.

وَأَمَّا نَسَبُهُ السِّبْطِيُّ: فَمِنْ جِهَتَيْنِ؛ بَعِيدَةٍ وَقَرِيبَةٍ: **أَمَّا الأُولَى:** فَهِيَ وِلادَةُ الإِمَامِ الْحَسَنِ بِالنَّقْلِ الصَّحِيحِ الْمُسْتَحْسَنِ، وَذَلِكَ؛ لأَنَّ أَحَدَ جُدُودِهِ الْكِرَامِ. خَلَّدَ اللهُ مَجْدَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ. تَزَوَّجَ إِحْدَى بَنَاتِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ أَقْضَى الْقُضَاةِ شِهَابِ الدِّينِ أَحْمَدَ الْحَسَنِيِّ السَّمْهُودِيِّ الدَّاوُدِيِّ [7]. فَهِيَ أُمُّ أَوْلادِ هَذِهِ الْفَضِيلَةِ الْحَائِزَةِ بِالْحَصْرِ قَصَبَ السَّبْقِ وَالْفَضِيلَةِ.

وَهَذَا الشَّرِيفُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ هُوَ جَدُّ السَّيِّدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَالسَّيِّدِ نُورِ الدِّينِ عَلِيٍّ [8] مُؤَرِّخِ الْمَدِينَةِ ابْنَي السَّيِّدِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي الْمَحَاسِنِ عبد الله بْنِ أَحْمَدَ الْمَذْكُورِ. وَفَضْلُهُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ مَشْهُورٌ، وَحَدِيثُهُ عِنْدَ الأَئِمَّةِ مَذْكُورٌ، وَفِي الدَّفَاتِرِ مَسْطُورٌ.

---

(١) انظر في ترجمة قبيلة زناته: القلقشندي: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ١٧٦، ١٧٧.

(٢) مأرب: مدينة باليمن قريبة من صنعاء العاصمة. انظر القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ٦٠. دار صادر. بيروت. د.ت؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ٥١٥ – ٥١٦. تحقيق: إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت. ط٢. سنة ١٩٨٤م.

(٣) برقة: اسم مدينة كبيرة تقع حاليًا في شرق الدولة الليبية على ساحل البحر الأبيض المتوسط. انظر الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ٩١.

(٤) الساقية الحمراء: مدينة بالمغرب. ومنها كان انتقال الهوارة إلى وادي الصعيد. انظر الزبيدي: تاج العروس ١١: ٩٤.

(٥) الملك الظاهر برقوق: هو أبو سعيد الجركسي.. لقب بالملك الظاهر. وأول من ملك مصر من الشراكسة. مات سنة ٨٠١ هجرية. انظر في ترجمته الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١: ١١٠. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع. منشورات محمد علي بيضون – وضع حواشيه: خليل منصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. د.ت؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٢: ٢٨٥. تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. سنة ١٩٨٥م.

(٦) انظر في خبر نزول بدر بن سلام الصعيد والأحداث التي حدثت به. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر ١: ٢٧٢. ٢: ٦– ١٠. ٢: ٢٥٤؛ المراغي الجرجاوي: تاريخ ولاية الصعيد في العصرين المملوكي والعثماني المسمى ب «نور العيون في ذكر جرجا من عهد ثلاثة قرون» ١٠٧– ١٠٨. ١٢٢– ١٢٣. تحقيق ودراسة: أحمد حسين النمكي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط١. سنة ١٩٩٨م.

(٧) انظر ترجمته في السخاوي: الضوء اللامع من بعد القرن التاسع ١: ٢٨٢.

(٨) هو السيد علي بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عيسى الحسيني. المعروف بالسمهودي. الملقب نور الدين أبو الحسن: مؤرخ المدينة المنورة ومفتيها. ولد سنة ٨٤٤ هـ – ١٤٤٠م في سمهود بصعيد مصر. ونشأ في القاهرة. واستوطن المدينة سنة ٨٧٣هـ. وتوفي بها سنة ٩١١ هـ. ١٥٠٦م. انظر الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١: ٢٢٢.

وَنَسَبُ السَّيِّدِ شِهَابِ الدِّينِ هَذَا مُتَّصِلٌ بِجَدِّهِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَلَى وَجْهٍ بُرْهَانُهُ جَلِيٌّ؛ وَذَلِك أَنَّه: ابن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ جَلالِ الدِّينِ أَبِي الْعَلْيَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى بْنِ جَعْفَرٍ أَبِي الْفَضْلِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ أَبِي طَاهِرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاودَ الأَمِيرِ بْنِ الْحَسَنِ الْمُثَنَّى بْنِ الْحَسَنِ السِّبْطِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ ابن فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ هَذا أُمُّهُ أُمُّ كُلْثُوم ابْنَةُ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الحسين بن علي بْنِ أَبِي طَالِبٍ. فَلَهُ عَلَى هَذا نِسْبَةٌ سِبْطِيَّةٌ أُخْرَى بِالْوَاسِطَةِ، فَمَا أَشْرَفَ هَذِهِ الرَّابِطَةَ.

وأَمَّا الْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: مِنَ النِّسْبَةِ السِّبْطِيَّةِ؛ فَوِلادَةُ سَيِّدِنَا الإِمَامِ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وذَلِكَ أَنَّ جَدَّهُ الأَدْنَى. وهُوَ الأَمِيرُ مَجْدُ الدِّينِ شَيْخُ الْعَرَبِ هَمَّامُ بْنِ سِبِيبَة. وهُوَ الذي عَقَدَ لَهُ أَوَّلُ مُلُوكِ مصر مِنْ آلِ عُثْمَانَ السُّلْطَانِ سَلِيمُ بنُ أَبَا يَزِيد - عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ وَالْغُفْرَانُ - إِمَارَةَ الْعَرَبِ بِوَادِي جِرْجَا، وإقْطَاعَهَا. تَزَوَّجَ إِذْ ذَاك إِحْدَى بَنَاتِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ نُورِ الدِّينِ بْنِ الشَّرِيفِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ نَزِيلِ الْجَزِيرَةِ قِبْلِيِّ الْمَرَاغَةِ. بن الشَّرِيفِ نُورِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ الضَّرِيرِ المقري بْنِ الْقُطْبِ الشَّرِيفِ جَلالِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ الطَّهْطَاوِيِّ التِّلِمْسَانِي الأَصْلِ الْمَغْرِبِيِّ الْحُسَيْنِيِّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٧٦٢ [ميلادية]. ونَسَبُهُ هَذا مُتَّصِلٌ بِجَدِّهِ الإِمَامِ الْحُسَيْنِ، لأَنَّه ابن عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رَافِعِ بْنِ جُنْدُبِ بْنِ سُلْطَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ جعونَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ ابن الحسين بن علي بْنِ مُحَمَّدِ الدِّيبَاجِ بْنِ الإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ بْنِ الإِمَامِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ابْنِ الإِمَامِ عَلِيٍّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ بْنِ الإِمَامِ السِّبْطِ الشَّهِيدِ الحسين بن علي بْنِ أَبِي طَالِبٍ؛ ابن فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ابْنَةِ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

[القصيدة الميمية]

وَإِذْ قَدْ فَرَغْنَا عَنْ ذِكْرِ نَسَبِ الْمَمْدُوحِ عَلَى وَجْهِ الاخْتِصَارِ؛ لأَنَّ مَا لا يُدْرَكُ كُلُّهُ لا يُتْرَكُ كُلُّهُ عِنْدَ ذَوِي الاعْتِبَارِ عَنَّ لَنَا أَنْ نَذْكُرَ الْقَصِيدَةَ الْمِيمِيَّةَ الَّتِي وَعَدَ بِذِكْرِهَا سَالِفًا وَسَبَقَتِ الإِشَارَةُ إِلَيْهَا آنفًا. وَقَدْ أَمْلاهَا لِسَانُ الْحَالِ، وَأَبْرَزَهَا الْوَقْتُ حَسَبَ اتِّسَاعِ الْعِجَالِ بَنى حط أَثْقَالِ وَطِيّ الهامه الاغْفَالِ، وَهِيَ هَذِهِ:

[البسيط]

اجْعَلْ شَرَابَكَ رِيقًا ضَمَّهُ بَرَدٌ	أَحْرَى الشَّمُولِ الرَّحِيقِ الْقَرْقَفِ[1] الشَّبَمِ[2]
إِذا بَدَا أَبْدَتِ الدُّنْيَا مَحَاسِنَها	وَانْجَابَ مَا كَانَ يَعْرُوهَا مِنَ الْفَحَمِ
إِذا تَثَنَّى ثَنَى قَلْبِي عَلَى عَمَدٍ	وَإِنْ تَبَسَّمَ أَرْدَانِي بِمُبْتَسَمِ
إِذا قَطَعْتَ عُبَابَ الْبَحْرِ مُعْتَرِضًا	إِلَى الْكَرِيمِ الْوَفِيِّ الْعَهْدِ وَالذِّمَمِ
آراؤه شُهُبٌ كَالشَّمْسِ ثَاقِبَةٌ	تُضِيءُ مِنْهَا بِلادُ الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
أَمَشْرِقَ الشَّمْسِ تَبْغِي عِشْتَ فِي نِعَمٍ	أَمْ مَشْرِقَ الْجُودِ وَالأَفْضَالِ وَالنِّعَمِ

(١) الْقَرْقَفُ: اسم للخمر ويوصفُ به الماء البارد. انظر الفراهيدي: العين ٥ : ٢٦٢ .

(٢) الشَّبَمُ: بَرْدُ الماءِ. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٢ : ٣١٦ .

إنَّ الزَّمَانَ وَمَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ   أَفْنَى التَّلِيدَ وَمَا جَمَعْتُ مِنْ نَعَمِ

انْزِلْ عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ مُبْتَهِجًا   فِي الْمَنْزِلِ الرَّحْبِ جَهْرًا غَيْرَ مُكْتَتِمِ

إِنِّي أَخَافُ الرَّدَى مِنْ ثَائِرٍ[1] حَنِقٍ[2]   عَلَى السَّبِيلِ وَبَحْرٍ مُزْبِدٍ[3] حُطَمِ

أَوْ كَانَ فِي الْمَاءِ شَوْبٌ مِنْ خَلائِقِهِ   حَلَّى الأَوَاجِنَ مِنْ أَفْوَاهِنَا السُّدُمِ

أَوْ كَانَ فِي الْمُزْنِ عُشْرٌ فِي سَمَاحَتِهِ   لَظَلَّ يَهْطِلُ أَنْهَارًا مِنَ الدِّيَمِ

أَوْ كَانَ لِلشَّمْسِ ضَوْءٌ مِثْلُ بَهْجَتِهِ   لَمْ يَسْتَطِعْ لَمْحَهُ خَلْقٌ مِنَ الأُمَمِ

أَوْ كَانَ لِلطَّوْدِ[4] قِسْمٌ مِنْ رَزَانَتِهِ   لَمَا تَزَلْزَلَتِ الأَخْضَانُ مِنْ إِضَمِ

أَوْ كَانَ لِلَّيْلِ جُزْءٌ مِنْ مَهَابَتِهِ   لَمَا سَمِعْتَ زَئِيرَ الضَّيْغَمِ الْقَرِمِ

أَوْ يَكْشِفَ اللَّيْثُ خَوْفًا عَنْ فَرِيسَتِهِ   أَوْ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَ الضَّيْغَمِ[5] الرَّزِمِ[6]

تَجْلُو بَوَارِقُهَا أَزْلَ السِّنِينَ كَمَا   يَجْلُو الصَّبَاحُ سَوَادَ اللَّيْلِ ذِي الظُّلَمِ

تَرَى الرِّجَالَ جُنُوحًا فَوْقَ أَرْحُلِهِمْ   مِنْ جَهْدِ صَوْرَ الطُّلا مَرْضَى بِلا سَقَمِ

تَكَادُ تَخْرُجُ مِنْ آهَابِهَا مَرَحًا   إِذَا حَدَوْا بِحَدِيثِ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

ثُمَّ ارْتَحَلْنَا عَلَى هَوْجَاءَ مُقْلِعَةٍ   تَنْسَابُ فِي الْمَاءِ مِثْلَ الْبَرْقِ فِي الدِّيَمِ

ثُمَّ الأَمِيرُ وَحِيدُ الْعَصْرِ مُفْرَدُهُ   نَجْلُ الصَّنَادِيدِ إسماعيل ذُو الْكَرَمِ

ثُمَّ الْعُلا وَالْبَهَا وَالنَّيْلُ كَامِلُهُ   ثُمَّ السَّمَاحَةُ وَالأَفْضَالُ لَمْ يَرِمِ

ثُمَّ انْتَهَجْنَا ضُحُوكًا بَعْدَ أَرْبَعَةٍ   حَتَّى اسْتَبَانَتْ لَنَا مصر مِنَ الْهَرَمِ[7]

حَتَّى إِذَا صِرْتُ فِي جِرْجَا[8] وَمَشْرِقِهَا   فَالْبِلْبِيسَاءُ حَبَبْتُ الْوَجْدَ مُخْتَرِمِي

حَتَّى ارْتَحَلْتُ عَلَى وَجْنَاءَ نَاجِيَةٍ   عَيْرَانَةٍ أُجُدٍ كَالْبَازِلِ الْقَطِمِ

حَتَّى تَرَاهُمْ كَظَمْآنٍ بِبَلْقَعَةٍ   قَدْ أَجْفَلَتْ[9] فَزَعًا مِنْ قَانِصٍ لَحِمِ

حُثُّوا الْمَطِيَّ قَلِيلاً إِنَّ مَنْزِلَكُمْ   مَأْوَى الأَهِلَّةِ وَالْغِزْلانِ وَالأُدُمِ

---

(١) الثائر: المُلقي بين الناس الشرور. انظر الأزهري: تهذيب اللغة ٥ : ١٤٠.

(٢) الحَنَقُ : شدّة الاغتياظ. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٠ : ٦٩ .

(٣) بَحْر مُزْبِدٌ: أي مائج يقذف بالزَّبَد، وزَبَدُ الماءِ والجِرَّةِ واللُّعَاب: طُفَاوَتُه وقَذَاه، والجمع: أَزْبَادٌ. انظر الزبيدي: تاج العروس ٨ : ١٢٢ .

(٤) الطَوْدُ: الجَبَلُ العَظِيمُ .

(٥) الضَّيْغَمُ: الأسد .

(٦) الرَّزِمُ : الثَّابت القائم على الأرض والأسد .

(٧) الهرم: هو بناء ضخم بناه أحد الفراعنة من الحجارة الضخمة الصلبة ليكون قبراً له وهو ذو قاعدة مربعة في الغالب وله أربعة جدران كل منها مثلث الشكل رأسه إلى أعلى وترتفع هذه الجدران مائلة حتى تلتقي رءوسها فتكون رأساً واحداً هو قمة الهرم.

(٨) جرجا : مدينة من مدن صعيد مصر . انظر الحموي: معجم البلدان ٢ : ١١٩ .

(٩) أجفلت : أي مضت وأسرعت هربًا .

حرف مذكرة قوداء[1] ذعلبة[2]   تفري المهامه بالإرقال[3] والسقم

سبط الأئمة بحر الفضل ذو مدد   يهمي فما النيل إذ وافى إليه ظمي

شمسا تجسم من جود ومن كرم   ينهل مزن نداه غير منحسم

شيخ الأعارب والأجواد شاد لهم   بيتا من المجد فوق الشمس من عظم

فاقصد إلى مصر واعبر بحر قلزمها[4]   إلى الصعيد ترى ذا المجد والهمم

فانعم وعش سالما ما حج معتمر   وحثت النيب[5] في حل وفي حرم

فبت أشرب خمرا من لواحظه   والراح من يده والحتف في الشمم

فبعد عشرين يوما ثم لاح لنا   طود بأيلة ذو شوع وذو ينم

فثم تعلم أن الشمس مطلعها   قصر ببهجورة الغرا بلا وهم

فجد صحبي نحو النيل حين بدا   حتى وصلنا وشادي الراح لم ينم

فجر أتاني على ما كنت أحذره   أنباء هاد لدين الله ملتزم

فجود راحته يكسو خطائطها   أثواب نور أثيث النبت مبتسم

فصب في الكأس راحا مثل وجنته   يذوي الصحيح ويشفي علة السقم

فقال خريتنا والشمس طالعة   والقوم سكرى من التسهيد والسأم

فقال لي مرحبا يا زائرا قمرا   إن الزيارة عندي أوكد الحرم

فمال بي مسرعا خلي إلى رشأ   يقد قدي بحسن القد والشيم

قالت فلن يبلغ العلياء ذو خطر   حتى يخوض المنايا حندس[6] الظلم

قالت وقد قربوا للبين[7] أينقهم   وأسبلت عبرة ممزوجة بدم

قلت اصطبر لأمور كنت تعلمها   تبلغ منى النفس أو تنوي ولم تخم

قلت المنى والذي أنويه يا سكني   إن استطعت وصولا مطلع الكرم

كالخوط معتدلا والبدر مطلعا   والظبي منتصبا يخطو إلى سلم

كالريح كالبرق لا بل ليس يدركها   طرف حديد إذا تخدي على اللقم

كل يخال ظبات البتر واقعة   على الكواهل والأعناق واللمم

---

(١) القَوْداء: الطويلة.

(٢) الذِّعْلِبَةُ: بالكسرِ النّاقةُ السَّرِيعةُ السَّيْرِ. انظر الزَّبيدي: تاج العروس ٢ : ٤٢٤.

(٣) الإرْقالُ: السُّرْعَة، وهو ضرب من العَدْو فوق الخَبب. انظر الزَّبيدي: تاج العروس ٢٩ : ٩.

(٤) القَلْزَمَةُ: ابْتِلاعُ الشَّيْءِ، وبه سُمِّيَ البَحْرُ قُلْزُماً. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٢ : ٤٩٢.

(٥) النِّيبُ: جَمْعُ ناب، وهي النّاقةُ المُسِنّة.

(٦) الحِنْدِس: الليل الشديد الظُّلمة. انظر ابن منظور: لسان العرب ٦ : ٥٨.

(٧) البَيْنُ: بالفتح من الأضداد يطلق على الوصل وعلى الفرقة. انظر الفيومي: المصباح المنير ١ : ٩٧.

كَمَا يَبْكِي بِدُورَ الْمَالِ كُلَّ غَدِ ... وَيَعْجَبُ الْمَجْدُ مِنْ أَفْعَالِهِ الْهُضُمِ

كَنَشْرِ رَوْضٍ غَدَاةَ الدَّجْنِ ذِي زَهَرٍ ... وَعَرْفِ مِسْكٍ أَتَى لِلتَّجْرِ فِي اللُّطُمِ

لا يَنْبِسُونَ حِذَارَ الْمَوْتِ مِنْ ظَمَإٍ ... فَصَارَ بَيْنَهُمُ الإِيمَاءُ كَالْكَلِمِ

لَمْ آتِ فُحْشًا وَلَمْ أُهْمِمْ بِمَعْصِيَةٍ ... هَيْهَاتَ مَا كَانَ قَطُّ الْفُحْشُ مِنْ شِيَمِي

لَوْ صُوِّرَ الْمَجْدُ إِنْسَانًا لَهُ فَهِمٌ ... لَظَلَّ يَلْثِمُ مِنْهُ مَوْضِعَ الْقَدَمِ

لَوْ هَمَّ بِالدَّهْرِ أَضْحَى الدَّهْرُ مُنْهَزِمًا ... مِنْ خَوْفِ ذِي سَطْوَةٍ بِاللهِ مُعْتَصِمِ

مَا ضَرَّ بَهْجُورَةً أَنْ لا يَمُرَّ بِهَا ... مِنْ جُودِ كَفَّيْهِ سُكْبُ الْوَابِلِ الرَّزِمِ[1]

مَا يَنْقَضِي مَهْمَهٌ إِلاَّ تَعِنُّ لَنَا ... يَهْمَاءُ مُتْلِفَةٌ لِلْقَوْمِ وَالنَّعَمِ

مِنْ أَرْضِ مكةَ أَطْوِي الْبِيدَ مُعْتَرِضًا ... حِينَ السَّرَابُ بِهَا يَحْتَفُّ بِالأَكَمِ

مِنْ ثَمَّ يَطْلُعُ نُورُ الْجُودِ كُلَّ غَدِ ... وَثَمَّ تَفْرِقَةُ الأَمْوَالِ وَالْقِسَمِ

مَنْ قَاسَ رَاحَتَهُ بِالْمُزْنِ كَانَ كَمَنْ ... قَاسَ الْبِحَارَ بِأَوْشَالٍ مِنَ الرِّهَمِ

نِلْتُ الْغِنَى وَالْمُنَى مِنْ مَاجِدٍ قَرِمٍ[2] ... فَيُوضُ رَاحَتِهِ أَمْنٌ مِنَ الْعَدَمِ

هَذَا اسْمُهُ يَهْزِمُ الْجَيْشَ اللُّهَامَ وَإِنْ ... غَصَّ الْفَضَاءُ بِأَبْطَالٍ ذَوِي أَضَمِ

هَذَا الَّذِي اغْتَصَبَ الأَمْثَالَ أَنْفُسَهُمْ ... بِالْعَزْمِ وَالْحَزْمِ وَالصَّمْصَامَةِ[3] الْخَذِمِ[4]

وَتُبْصِرُ الْخَيْلَ مِنْ خَوْفٍ تَبُولُ دَمًا ... وَتَعْلَكُ الْمَوْتَ حِينَ الرَّوْعِ فِي الأُجُمِ

وَجَاشَتِ النَّفْسُ مِنْ شَوْقٍ لِهَيْبَتِهِ مَنْ ... حَنَّتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ كُلِّهِمِ

وَقَدْ أَتَيْتُكَ أَبْغِي الْوَفْرَ مِنْ بُعُدٍ ... وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَمْدُوحٍ وَمُعْتَصَمِ

وَقُلْتُ يَا صَاحِ مَا تَنْزِلْ بِسَاحَتِهِ ... فَالرَّاحُ تَذْهَبُ بِالتَّكْسِيرِ وَالأَلَمِ

وَمَرْءٍ يَبْذُلُهَا حَمْرَاءَ صَافِيَةً ... لَمَّا بَدَتْ كَدَمِ الْمَفْصُودِ[5] أَوْ صَرَمِ

يَا ابْنَ الأَعَارِبِ وَالأَمْجَادِ مِنْ نَفَرٍ ... وَاخُوا الْبِلادَ وَأَفْنَوْا كُلَّ مُجْتَرِمِ

يَا ابْنَ الْبُدُورِ إِذَا تَبْدُو غَيَاهِبُهُ ... وَالأَنْجُمِ الزُّهْرِ مِنْ عِيسَى أَبِي الْكَرَمِ

يَا مُهْجَةَ الْجُودِ يَا مَنْ حَشْوُ رَاحَتِهِ ... عَيْشُ الْمُطِيعِ وَمَوْتُ الْمَارِقِ[6] الْفَعِمِ[7]

---

(١) الرزم: الغيث الذي لا ينقطع رعده.

(٢) القَرْمُ: السَّيِّدُ المعظم.

(٣) الصَّمْصَامةُ: السيف الصارم الذي لا ينثني. انظر الأزهري: تهذيب اللغة ٤ : ١٨٧.

(٤) الخَذْمُ: وسُرْعَةُ السَّيْرِ... والخَذْمُ: سُرْعَةُ القَطْعِ. انظر ابن منظور: لسان العرب ١٢ : ١٦٨.

(٥) المفصود: يقال تَسْرِيحُ دَمِ العِرْقِ المفصود: أي إرساله بعدما يسيل منه حين يُفْصَد مرة ثانية. ويسمى الدم مفصودًا. انظر في ذلك ابن منظور: لسان العرب ٢ : ٤٧٨.

(٦) المارق: الخارج من دينه. والنافذ في كل شيء لا يتموج فيه.

(٧) الفَعْمُ: أي المُمْتَلِئُ. انظر الزبيدي: تاج العروس ٢٠ : ١٨٧.

يَبْكي السُّيوفُ دَمًا في الرَّوْعِ مُنْسَكِبًا   وَيَضْحَكُ العُرْجَ مِن أبْطالِها البُهَمِ
يَحارُ فِيها إذا رَمْضاؤُها وَقَدَتْ   بَرَتْ عَلَيْهِمْ بِسُوقِ التُّرْبِ ذُو فَهَمِ
يُعْطي الذي كُنْتَ تَرْجُوهُ وَتَأمُلُهُ   حَتَّى تَعُودَ كَثِيرَ المَالِ وَالخَدَمِ

ولَمَّا أنْهَى القَلَم بَعْضَ حَقِّ خِدْمَتِه، وَبَيَّضَ بِمِدادِهِ وَجْه صَحِيفَتِه. هَزَّتْه أَرْيَحِيَّة النَّشاط، وسَاوَرَتْه[1] نَشْوة الانْبِسَاط مُذْ رَأى مَوْلانا المَمْدُوح قَدْ هَشَّ وَوَجْهه بِالطَّلاقَةِ قَد بَشَّ. فَصَارَ يَسْتَعْطِفُهُ فِي الإنْجازِ، وَيصَرِّحُ لَهُ بِالحَقِيقَةِ دُونَ المَجازِ: [الكامل]

وَلَقَدْ نَسَجْتُ مِن البَدِيعِ مَطَارِفًا   وَجَلَوْتُ مِنْ أُفُقِ المَدِيحِ أَهِلَّةً
وَرَجَوْتُ مِنْ عَالي الجَنَابِ إِغَاثَةً   فَمُنِحْتُ بِالإسْعافِ حُسْنَ بَشَاشَةٍ
فَرَجَوْتُ أَنِّي مِنْهُ أَتَّصِلُ المُنَى   فَنَشَرْتُ فِي طَيِّ البِلادِ بَشَائِرًا
وَغَدَوْتُ مُرْتَجِيًا هَوَامِعَ وَبْلِهِ   فَعَسَى بِإسْماعِيلَ يُعْطِي المُرْتَضَى
وَشَبَّهْتُهَا بِمَحَامِدٍ وَمَنَاقِبِ   تَزْهُو ضِيًا بِمَشَارِقٍ وَمَغَارِبِ
حَيْثُ الزَّمَانُ رَمَى بِسَهْمِ صَائِبٍ   وَطَلاقَةٍ أَذْنَتْ بِوَعْدٍ لازِبِ
وَعَلِمْتُ نُجْحًا فِي حُصُولِ مَآرِبي   بِرَسَائِلٍ لأَبَاعِدٍ وَأَقَارِبِ
إذْ لاحَ بَرْقٌ فِي خِلالِ سَحَائِبٍ   رَصَدَ المَعِيشَةَ مِنْ كُنُوزِ مَطَالِبِ

ثُمَّ وَقَفَ في مَقَام الأَدَبِ والخُضُوعِ والاعْتِرَاف، طَالِبًا مِنْهُ الإذْنَ بالرُّجُوعِ والانْصِرَافِ، دَاعِيًا لهُ بِتَوالي النِّعَمِ المَحْمُودَةِ العَوَاقِبِ، وَثَبَاتِ الهِمَمِ الجَلِيلَةِ الذِّكْرِ وَالمَنَاقِبِ. لا زَالَ مَلْحُوظًا بِعِنَايَةِ حِمَايَةِ مَوْلاه، مَحْفُوظًا بِوقَايةِ كِفَايةِ فَسَيَكْفِيكَهُم اللهُ ما أَبْدَعَ مُنْشِئَ فِي النَّثْرِ والنِّظَامِ. وأتى التَّارِيخ بِأطْيَبِ أَحْسَنِ خِتَام: [الكامل]

تُهْدِي إِلَى عَالي الجَنَابِ مَقَامَةً   تَزْهُو كَبَدْرٍ فِي غَيَاهِبِ جِنْحِهِ
وَسَمَتْ وَقَدْ عَزَّتْ بِتَارِيخٍ زَهِي   لِمَقَامَةٍ أَبْدَتْ بَدَائِعَ مَدْحِهِ

١١٨٤هـ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّد، وَعَلَى آله وَصَحْبِه وسلم آمين.

---

(١) في الأصل: وسادرته.

- المُطْرَفُ: ثوبٌ من خزّ له أعلام كانتِ النِّسَاءُ والرِّجَالُ تَلْبَسُه، والجَمِيعُ المطارِف. انظر الفيومي: المصباح المنير ١ : ٥٠٧.